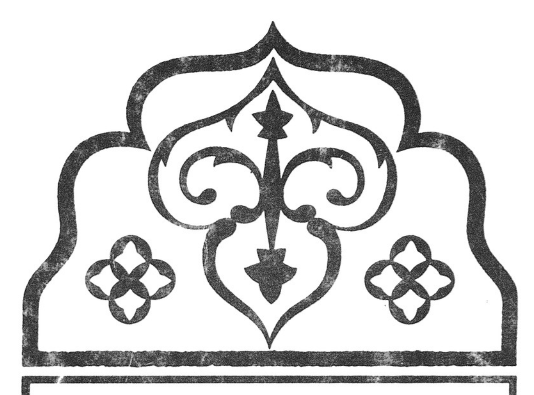


يوسف ابراهيم يزبك

النفط

ستعبدُ الشعوب

الطبعة الثانية

قضايا وحوارات النهضة العربية «٣»

النفط

مُستعبدُ الشعوب

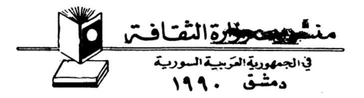
قضايا وحوارات النهضة العربية

٣

يوسف ابراهيم نزيك

النفط
مُستعبدُ الشعوب

الطبعة الثانية


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٠

النفط مستعبد الشعوب / يوسف ابراهيم يزبك . ـ ط. ٢
ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٠ . ـ ٢٨٠ ص : صور
؛ ٢٠ سم . ـ (قضايا وحوارات النهضة العربية ؛ ٣) .

١ ـ ١ر٣٢٧ ي ز ب ن ٢ ـ العنوان ٣ ـ يزبك
٤ ـ السلسلة

الايداع القانوني : ع ـ ١١٩٩ /١٢/ ١٩٩٠

تقدمة الكتاب

الى الرئيس الجليل

مصطفى النحاس

خليفة سعد في النضال ، ورئيس الوفد المصري ، الامين

سيدي الرئيس الجليل

لسعد ، رحم الله سعداً ، فضل على تربيتي السياسية في نضاله ، فاذا توجتُ كتابي هذا باسم خليفة سعد : باسم المجاهد ، المؤمن ، الصابر ، العفيف اليد والخلق والقلب ، **مصطفى النحاس** ، فاني افي ديناً مستحقاً ، وأخطو خطوة جديدة بدأ قبلي باخواتها احرار المفكرين العرب ، في توحيد سبل التضامن لرد غوائل الاستعمار عن هذا الشرق العزيز

ليس من بلد عربي ، او شرقي كما يقول بعض اخواننا في وادي النيل ، ببعيد عما في هذه الصفحات من عرضٍ لعوامل التبسط الاجنبي في ربوعنا المحبوبة ، بل انها ، جميعها ، واحدة في الهدف الذي

يرمي اليه سهم المستعمر . واذا قيل : « الاستعمار في مصر » فمعنى القول او نتيجته : « الاستعمار في سوريا ، والعراق ، وفي شقيقاتهما » . فاية يد حبيت قوة الكفاح ، وعناصرها ، اكثر من يدكم الكريمة ، في توحيد جبهة الدفاع ، قبالة توحيد الاقوياء جبهتهم لارهاق هذه البلدان ؟

لقد لبس الاستعمار في الشرق اثواباً كثيرة الالوان ، وجاءنا الآن يرتدي زياً جديداً اسود ، هو لون النفط ، واللون الاسود شعار للحزن والاسى ، فهل يحق لنا في عهد عقيدتك الناصعة البياض ، يا سيدي الرئيس الجليل ، ان نتفاءل خيراً بدنو الاستعمار من . . . الموت ؟

. . . .

تكرم ، يا سيدي الرئيس الجليل ، بقبول هذا الكتاب عربون الوفاء الصادق ، من كاتب أحب الوفد ، ورئيس الوفد ، وبرهن عن هذا الحب في احرج المواقف ، يقيناً منه بانكم عنوان الايمان في النضال لتحرير « امصار » العرب

بيروت في ٥ ايلول ١٩٣٤

المخلص

يوسف ابرهيم يزبك

منشئ جريدة « السيار »

حضرة الفاضل السيد يوسف يزبك المحترم

لقد كان بحثكم تأثير سياسة النفط في مصير الشعوب وخطورتها لانها كانت سرية يقوم بها اناس يسيرون الحكومات لتحقيق مطامعهم : اما الآن فلا يغرب عن افهام [illegible] تتبع الحوادث النفطية وهي [illegible] مصير الشعوب وقد بدأ الكتاب في الغرب يضعون المؤلفات التي تبين اسرار تحكم النفط [illegible] هذا الكتاب [illegible] كانت تحتاج اليه نهضة الامة العربية في نهضتها الحديثة من الوجهة [illegible] اذ لم يسبق لكاتب ان كشف اسرار هذه السياسة وبسط تأثيراتها الاستعمارية بهذه الدقة والاحاطة عدا انه لا [illegible] التاريخية التي [illegible] الحلفاء في سنوات الحرب [illegible] الكبيرة فانا لا [illegible] اقوال الساسة [illegible] في تصريحاتهم فانكم جديرون في تأليف هذا الكتاب النفيس [illegible] خدمة الامة العربية [illegible] السلام والاستقلال [illegible]

حلب في ٦ ايلول ٩٣٤ ا. هنانو

مقدمة الكتاب بقلم الزعيم الجليل ابراهيم هنانو

«استعدوا لحرب النفط !»

— لورد فيشر وزير الملاحة البريطانية —

«... وعندما وضعت الحرب اوزارها، وطرح على بساط البحث اقتسام الاراضي النفطية في العالم، إنْ بواسطة الانتداب او بواسطة غيرها، جرت بين الحلفاء اتفاقات ليحفظوا لفرنسا حصتها منها، وكان اتفاق سان ريمو اول عهد اعترف لنا فيه بحصة من نفط العراق.»(١)

— بيار اتيان فلاندان وزير تجارة فرنسا —

(١) — الجريدة الرسمية للجمهورية الافرنسية (مناقشات مجلس النواب): محضر جلسة الثلاثاء في ٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٠ ص ٢٩٦٩

باسم الله والحق والسلام ...

واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً
اليه ... — صدق الله العظيم —

— ١ —

« لسنا نعمل للسلم في بلادنا فحسب ، بل في اوروبا »

(ادوار غراي وزير خارجية انكلترة في جلسة
مجلس العموم مساء ٣ آب اغوسطوس ٩١٤)

« اضطررنا الى امتشاق الحسام لندافع بعون الله عن استقلالنا الذاتي
ونحافظ على سلامة اراضينا »

(بيان الحكومة الالمانية في ٤ آب ١٩١٤)

« ... وليست لنا اية نية طامعة ولا نرغب في فتح ما ، ولا في السيطرة
على احد ، ولا نطلب اي تعويض مادي على التضحيات التي سنقدمها
مختارين ... مانحن الا من ابطال حقوق الانسانية ، نبذل في سبيلها
اموالنا ودماءنا وارواحنا بكل فخار ، وعلى الله اتكالنا ليساعدنا
في تأييد مبادئ الحق والعدل والمساواة بين الجميع ! »

(من بيان الرئيس ويلسن الى مجلس الامة
(الكونغريس) الاميركي في ٢ نيسان (ابريل)
٩١٧ عن اسباب دخول الولايات المتحدة الحرب)

و ... النفط

« الويل للشعب المحارب الذي لا يملك نفطاً »

(امير البحر الانكليزي لورد فيشر)

* * *

« لو لم يكن النفط في حوزة الحلفاء لما استطاعوا الانتصار ... »

« وحاجتنا الى النفط بمختلف مواده كانت من اشد العوامل في خسراننا الحرب »

(مذكرات المشير الالماني اريخ لودندورف)

* * *

« ولقد كان النفط في الحرب كدماء لها »

« وما كان الانتصار الذي نلناه ليتم لولا دم آخر هو دم الارض الذي نسميه بالنفط »

(من خطبة لهنري بيرانجه ممثل الحكومة الافرنسية في مؤتمر النفط بين الحلفاء في روما في ١ت١ (اكتوبر) ١٩١٨)

***

« اجل ، لقد كانت مواد النفط متساوية في اهميتها الحيوية في سنوات النضال ، وسيأتي يوم يقال فيه : ان الحلفاء طفوا الى النصر على

عباب من النفط »

(من خطبة للورد كورزون رئيس مؤتمر النفط المنعقد في لندره بين الحلفاء في ٢١ ت ٢ نوفمبر سنة ١٩١٨)

* * *

« ... وبينما كانت حكومة الرئيس ويلسن تبشر في ايام عقد معاهدة الصلح بمحبة القريب ، كانت امم غيرنا ، ولا سيما الامة الانكليزية ، تستولي على ثروات النفط العالمية ، وتلك الثروات هي مفتاح السيطرة الاقتصادية على الدنيا باسرها »

(من خطبة لهاردينغ في حملته الانتخابية لرئاسة الولايات المتحدة سنة ١٩٢٠)

***

« ليس للولايات المتحدة نية للتدخل في العلاقات السياسية بين اية دولة ومستعمراتها او البلاد الواقعة تحت حمايتها وانتدابها ، ولكنها عندما ترى ان الدولة المنتدبة تسعى بتأثير تلك العلاقات السياسية الى ايجاد مناطق نفوذ اقتصادي بحت (في البلدان المشمولة بانتدابها) لتحتفظ لنفسها وحدها بحق استغلال ما تحت اراضي تلك المناطق من ينابيع طبيعية (نفطية)، ولتوطيد عري الاتحاد بشتى السبل بين الدولة المسيطرة والشعب الضعيف ، فان من واجبنا ساعتئذ

ان نرفع صوتنا ونحتج على ذلك العمل الذي نراه ظالماً ومهيناً ومخالفاً للصواب ... »

(من خطبة لوالتر تايغل رئيس شركة ستندر اويل في مؤتمر جامعة النفط الاميركية في نيويورك سنة ١٩٢٠)

« ... وبواسطة الملايين التي يملكها ، تمكن ديتردينغ — نابليون النفط في العالم — من تأمين مساعدة كبار رجال الحكم له في فرنسا وانكلترة ، كالمستر رامسي مكدونلد ودوائر الانتلجانس سرفيس، وكالمسيو فرنسوا مارسال ، رئيس الوزارة الافرنسية الاسبق ، الذي قضى زمناً طويلا في خدمته . وقد اكد بعض النواب من فوق هذا المنبر في جلسة سابقة ان ديتردينغ رشا بعض السفراء ، واستمال كبار الموظفين ، واشترى صحفاً انكليزية وافرنسية، منها جرائد « الماتن» و « الامي دي بوبل و «الليبرته» التي امتازت باتمامها اليه بشكل مخجل ... »

(من خطبة للنائب جاك دوريو في مجلس النواب الافرنسي في ٢٠ اذار (مارس) ١٩٣١ (الجريدة الرسمية : مناقشات النواب : ص ٢١٠٤ عدد ٤٩)

« ليس للنفط ... رائحة ! »

موريس بوكانوفسكي وزير التجارة الافرنسية سنة ١٩٢٨)

مؤلف عربي

قل : اعوذ برب الفلق ، من شر ماخلق ، فليس الشر البارز للعيان بثوبه الاسود هو هذا المستطير الذي يعوذ منه ، ولكنه الشر الخبيث البادي بثوب الملائكة الابيض ، ساتراً تحته الموت الزؤام ، والحامل بيده غصن الزيتون حاجباً وراءه السم الزعاف . قل اعوذ برب الفلق ، ايها القارئ العزيز ، فاننا محدثوك عن دم الارض ، عن النفط الذي وضعنا في مستهل هـذا الكتاب بعض فقرات من اقوال تاريخية تدل على ماله من اهمية مباشرة في حياة الامم في حالتي السلم والحرب ، ومن تأثير شديد في استعباد الشعوب او تحريرها ، فنرجو أن ترافقنا في ماسنبسطه لك من حوادث وشروح لا تقل اهمية عن تلك الاقوال ، لأن للنفط سياسة ماتزال مجهولة من الرأي العام العالمي ،ولاسيا في الاقطارالشرقية، ولان العالم «المتمدن» صار بحاجة اليه بقدر حاجة الفقير الى الخبز والماء ، فخضعت البشرية جمعاء لمشيئة افراد معدودين من أصحابه يلعبون بها ويقلبون بلدانهـا ، ويعبثون بأوضاعها وامانيها كما يلعب الاطفال بالكرة ، ويقلب القراء صفحات هذا الكتاب، فمن الواجب علينا اذن أن نتفهم بعض سياسته التي تسيرنا لعلنا نعتبر بالتناقض بين الاقوال والاعمال ونستفيد من هذه العبرة في سعينا الى الاهداف التي نرمي اليها

ان هذا الكتاب هو الاول من نوعه في المكتبة العربية ، والاول من نوعه ، بمراميه ، في جميع اللغات ، فقد وضع كثيرون من كتاب الفرنجة كتباً عن النفط واهميته وسياسته ، وعن محتكريه وجرائمهم واحساناتهم ، ولكنهم لم يذكروا عن تأثيره في البلدان العربية الا النزر اليسير ، وفي ماذكروه كثير من الاخطاء تنم عن قلة تمحيص ، او عن جهل وسوء قصد ، وكان اكثرهم يذهب في كتابته عن هذه الاقطار الى خدمة دولة معينة ومصلحة محدودة ، وكانوا ، جميعهم ، يمرون بمصائبها من سياسة النفط ونكباتها بها مر ... الكرام !

النفط او « البترول » هو اليوم الهدف الاول الذي ترمي كل دولة من دول اوروبا واميركا الى تأمين حاجاتها منه ، لأن السيارة لا تسير بلا نفط ، والطائرة لا تطير بلا نفط ، واكثر الالات لا يتحرك بلا نفط ، فما يكون مصير فرنسا وبريطانيا وجمهوريات السوفيات والولايات المتحدة واليابان وغيرها من الدول الكبيرة اذا حرمت من هذه المادة الحيوية ؟

يقول النائب الافرنسي سبيناس : « ان النفط كان ، وما يزال ، وسيظل الاس الحقيقي لدعامة الشعوب الكبيرة سواء أفي حالة الحرب

ام حالة السلم » (١) وقد استشهد بهذا القول الخطير الوزير ييسار فورجو (٢) وزاد عليه يخاطب النواب يوم بحثوا في اتفاق نفط الموصل فقال : « على م تنشئون الجيش وترصدون ألوف الملايين لتعزيزه ؟ بل على م تشق حكوماتنا الانفاق تحت الارض وتبني الحصون في الصين لتأمين حدودنا الشمالية والشرقية ؟ بل على م نتابع سياستنا الامبراطورية في اوروبا وما وراء البحار اذا كنا لا نملك النفط ؟ » (٣)

وهذا الكلام يتعلق باهمية النفط في الحاضر والمستقبل ، وأما اهميته الماضية وما كان لها من تأثير فعال في مصير المجزرة البشرية الاخيرة فحسبنا ان نستعيد اقوال بعض ابطالها فيه ، لنعرف الدور

---

(١) و (٣) الجريدة الرسمية للجمهورية الافرنسية (مناقشات مجلس النواب) : محضر جلسة ٢٤ اذار (مارس) ١٩٣١ ص ٢١٣٠

(٢) وزير افرنسي سابق تولى مراراً وزارات المعارف والتجارة والاشغال العامة وقد اطلع على بعض اسرار السياسة النفطية واهميتها في حياة الدول ، وصار يعد مع الوزير فلاندان والشيخ بيرانجه من الاخصائيين بين رجال فرنسا الرسميين في سياسة النفط . وله خطب قيمة في نقد الاتفاق الذي اجرته حكومة باريس مع شركة النفط الافرنسية لاستثمار حصتها من زيوت الموصل

العظم الذي قامت به المواد اللاهبة في الحرب ، فقد قال القائد الالماني اريخ لودندورف في تصريح له بعيد الهدنة : « لو لم يكن النفط في حوزة الحلفاء لما استطاعوا الانتصار علينا »

وأيد هذا الرأي الوزير الانكليزي كورزون في الخطبة التي ألقاها في ٢١ ت ٢ (نوفمبر) ١٩١٨ بعد انتهاء مؤتمر النفط بين الحلفاء في لندرة فقال : « لقد كانت مواد النفط متساوية في اهميتها الحيوية في سنوات النضال ، وسيأتي يوم يقال فيه ان الحلفاء طفوا الى النصر على عباب من النفط »(١)

وفي سنة ١٩١٧ تأزم موقف الحلفاء في اكثر ساحات القتال، وباتوا والخطر يهددهم من جوانب كثيرة ، وقد كان لسياسة النفط اكبر اثر في موقفهم ذاك الحرج ، فتوالت برقيات الاستنجاد منهم على حكومة واشنطن ، واوفدت حكومة كليمانسو السيد اندره تارديو مفوضاً سامياً الى الولايات المتحدة ومهمته الفريدة تأمين شحن الزيوت منها الى ساحات القتال في فرنسا ، فسافر السيد تارديو في شهر نوار (مايو) من تلك السنة وعرف بعض اسرار الاحتكار الذي طوق المواد اللاهبة ، فكان بينه وبين حكومته في باريس مراسلات مايزال اكثرها سرياً ، ولكن المعروف عنها هو ان

---

(١) بيرانجه ص ١٧٠

البرقيات انهالت على اثرها من فرنسا على الحكومة الاميركية تستصرخها لتحمل المحتكر الاعظم روكفلر — وهو من ملوك النفط في العالم — على ان يمد الحلفاء بالسائل الاسود والا ساء المصير. وقد اهمل روكفلر، او اهملت شركاته، تلبية الحلفاء لاسباب ما يزال بعضها مبهماً، فكانت البواخر الاميركية تحمل اطنان المواد اللاهبة الى الصين في حين ان مستودعات الحلفاء في فرنسا كانت على وشك النضوب، واضطر الوزير الافرنسي كليمانسو لان يبعث في اواخر تلك السنة (١٥ ك ١ — ديسمبر) ببرقية «تاريخية» الى الرئيس ويلسن، شخصياً، يناشد فيها عطف الرأي العام الاميركي وحكومته لامداد فرنسا بالنفط ويقول في ختامها: «اذا كان الحلفاء لا يريدون خسران هذه الحرب فعليهم ان يمونوا فرنسا بالنفط لأن حاجتنا الى موادها الحيوية تساوي حاجتنا الى الدماء في المعارك القريبة المقبلة»(١). فتدخل الرئيس ويلسن بنفسه في اقناع شركات الاحتكار بوجوب

(١) — كثيرون من كتاب النفط بدلوا هذه الفقرة من برقية كليمانسو بالفقرة الاتية: «لقد اصبحت نقطة النفط عندنا بمثابة نقطة من دم جندي» والمعنى المقصود من الفقرتين يكاد يكون متقارباً، ولكن حق التاريخ يقضي بان يستشهدوا بها كما هي مسجلة في محضر جلسة لجنة الجيش في مجلس الشيوخ (١١ ك ٢ سنة ١٩١٨).

تلبية الطلب ، وتمكن المفوض الافرنسي تارديو من تأمين الحلفاء الى بعض مطلوبهم وابرق الى الرئيس كليمانسو في ٦ ك ٢ (يناير) سنة ١٩١٨ بذلك خاتماً برقيته بالعبارة الاتية : « اني ابذل جهدي للحصول على المطلوب ولكنه سيكون شاقاً » (١)

وما دام النفط على هذه الاهمية الحيوية ، التي اشرنا الى بعضها ، في مصير الشعوب الكبيرة والدول العظيمة في السلم والحرب ، فمن الواجب على الرأي العام العربي ان يعرف كما قلنا شيئاً من سياسته الخطيرة، لاسيا وان اقطارنا قد ظلمها الله او رحمها — من يدري؟! — فجعل تحت تربة عراقها محيطاً من النفط يقدره علماء الاختصاص بانه يكفي وحده حاجات العالم باسره مدة لاتقل عن خمس عشرة سنة، وأجراه تحت بلدان عربية غير العراق انهاراً لم تعرف قيمتها كلها حتى الان ، وربطنا في الماضي ويربطنا اليوم وغداً بسياسة تجاره ومحتكريه ربطاً محكماً ، حتى بتنا ونحن لا نملك من امرنا حقاً ، وصار الفرد منهم ، وهو الاعجمي ، يملي على الدول الحاكمة في رقابنا اوامره في الحياة التي يريدنا عليها ، ونحن واملاكنا وبلادنا ، وموظفو تلك الدول وجيوشها ، عبيد ارقاء لتلك السياسة !

قد يجهل الكثيرون ان فكرة الانتدابات التي بشر بها معلم اللاهوت

---

(٢) بيرانجه ص ٦٨

المسيحي وودرو ويلسن في مؤتمر الصلح ، وطبخ انظمتها ووزع ألوانها في الصحون المثلثة الانواع القائد البويري الانكليزي جان سموطس حاكم افريقيا الجنوبية ، لم تحقق عملياً وتبدأ بارتداء شكلها « القانوني » الدولي الا في مؤتمر سان ريمو ، وان ذلك المؤتمر المبارك لم يعقد الا لاجل النفط ، وفيه وضعت اسس سياسته العامة وشروطها لاقتسام آبار العالم ، وفي البلاد المسلوخة عن السلطنة العثمانية : اي ان الانتداب على بلادنا مشى وسياسة النفط رجلا فرجلا في الظاهر ، وان هو تبعها وكان نتيجة لازمة لها في الواقع

ليقرأ بنو قومي هذا الكتاب بتؤدة وبامعان نظر ، فقد وضعته بعد جهد عزيز ، وبذلت ماليس بطاقة عربي مثلي بذله لاخراجه على مايرونه ، فجاء وليس فيه من عيب الا ان مؤلفه عربي ، ومكتوب بلغة عربية !!! (١)

---

(١) نشر المؤلف بعض مقالات عن محتويات هذا الكتاب في جريدة « صوت الاحرار » الغراء واعلن عن عزمه على وضع كتاب عن اسرار سياسة النفط ، فكتب اليه احد زعماء العرب في بغداد معرباً عن اعجابه وتقديره وختم كتابه بقوله للمؤلف : « وارجح بل اعتقد انه لن يكون في الكتاب من عيب الا ان مؤلفه عربي ، ومكتوب بلغة عربية ! » ولا يخفى مافي قول الزعيم الكريم من استفزاز وسخط على ماوصل اليه العرب من تزلف للفرنجة ، واخذهم باقوالهم وان كانت كاذبة وسخيفة ...

بعض ارقام

ماهي اهمية النفط ؟

سؤال يحق لـكل قارئ أن يلقيه ، وعلينا ان نجيب عليه :

١ ـــ في العالم الان اكثر من اربعين مليون سيارة (١) لنقل الناس وللشحن ، يحركها البنزين ، اما الاساطيل الجوية والبحرية فتستحيل معرفة عددها لان الدول لا تنشر احصاء صحيحاً عن قواتها الحربية ، وهذه الاساطيل لا تتحرك الا بقوة البنزين والمازوت وروح الغاز المستخرجة من النفط . وكذلك يصعب على اي انسان احصاء الالات التي تتحرك به

٢ ـــ مجموع ماتستخرجه الشركات من الارض يزيد على مئة وثمانين مليون طن سنوياً

٣ ـــ مجموع رؤوس الاموال التي تدير هذه الصناعة يبلغ اكثر من خمسماية مليار فرنك (٢)

---

(١) عن آخر احصاء نشر سنة ١٩٣٤

(٢) في العالم ثلاث جبهات نفطية تسيطر عليه : الاولى اميركية بزعامة روكفلر ، والثانية انكليزية بزعامة ديتردينغ ، وفي كل منهما اموال اجنبية ، والثالثة روسية تخص الشعب لا الافراد وتديرها حكومة السوفيات

٤ — يسيطر على هذه الثروة في الدنيا كلها شخصان احدهما اميركي يدعى جوهن روكفلر والثاني هولاندي متأنكلز سياسة يدعى هنري ديتردينغ

٥ — في سنة ١٨٥٣ حفر في ولاية بنسلفانيا الاميركية اول بئر في العالم لاستخراج النفط ، ولم تكن صناعة « الموتور » قد اخترعت بعد فلم يكن اذن سيارة ولا طيارة ، ولم تكن البواخر تجري بواسطة المازوت

٦ — في سنة ١٩٣٣ بلغ الاحصاء الرسمي لصناعة السيارات العالمية ستة وثلاثين مليون سيارة ، تملك منها الولايات المتحدة وحدها سبعة وعشرين مليوناً ، اي اكثر من الثلثين ، ولم تكن هذه الصناعة في سنة ١٩٣٢ سوى رقم ضئيل جداً بالنسبة الى الرقم الحالي، فقد صنع العالم باسره في العام الاسبق مليوني سيارة فقط ، ووثب من سنة الى سنة الى اضعافها ست عشرة مرة

٧ — كانت اقصى مسافة سجلتها سرعة السيارة في سنة ١٨٨٨ ستة عشر كيلو متراً ، فسجلت في السنة الماضية اربعماية وسبعة وثلاثين كيلو متراً ...

٨ — كانت فرنسا تملك يوم اعلنت الحرب العامة مئة واثنتين وثلاثين طيارة ، ومئة وعشر سيارات شاحنة (كميونات) — وانتهت

الجزرة البشرية وفرنسا تملك اثني عشر الف طيارة وسبعين الف كميون

٩ — اوقد العالم في سنة ١٩١٣ ستة وخمسين مليون برميل من البنزين وبلغ الاستهلاك السنوي في آخر ايام الحرب ستماية وسبعة وثمانين مليون برميل

١٠ — وكان المتحاربون يستهلكون في ايام المواقع الحربية الشديدة اثني عشر الف طن من البنزين في اليوم الواحد

اليك باحصاء ثان ، ومن نوع آخر :

١ — دخل هنري ديتردينغ سنة ١٨٨٠ موظفاً صغيراً في مصرف « تونتشي بنك » في امستردام يقبض ثلاثين فرنكا مرتباً شهرياً . واصبح اليوم — ديتردينغ «نابليون النفط في العالم» — يملك ثلاثماية واربعين مليون فرنك لنفسه ويرأس شركات ومؤسسات يبلغ رأسمالها مئة مليار فرنك

من ثلاثين فرنكا مرتباً شهرياً الى السيطرة على مئة مليار !...

٢ — في سنة ١٩١٣ دفعت شركة « رويال دوتش » وهي من اعظم شركات احتكار النفط في العالم ، سبعة وعشرين مليون فلورين لحاملي اسهمها حصة ارباحهم ، وفي سنة ١٩١٩ دفعت لهم ستة وتسعين مليوناً !...

٣ ـــ كان رأسمال روكفلر سنة ١٨٦٥ خمسة آلاف دولار استقرضها من والده بفائدة ١١ في المئة ، وبلغ رأسمال شركته بموجب آخر احصاء مليارين وثلاثماية وستة واربعين مليون دولار . وقد اعترفت شركة ستندر اويل ـــ مؤسسة روكفلر ـــ وذلك سنة ١٩٢٠ بانها تربح سنوياً ربحاً يوازي رأسمالها . وقد كان رأسمالها يومئذ ملياراً واحداً من الدولارت ، فكم يبلغ الان ؟!...

هل قرأت هذه الارقام ايها العربي الفقير ؟ انها موجز اهمية النفط ! و «قصص» ملوك النفط ، ومطوحاتهم واجرامهم ، واحسانهم ! ـــ اجل ان فيهم لمحسنين ، يوقعون باليد اليمنى على تقرير يقضي باستعباد بلاد كبيرة ، وقتل شعب آمن ، وذبح نساء وشيوخ واطفال ، وايقاظ الفتن والثورات وخرب البيوت ، وشهر الحروب الصامتة والصاخبة ، السرية الخفية والعلنية الظاهرة ، ثم يدفعون باليد اليسرى حوالة بمليون او ملايين من الدولار لبناء مستشفى وتأسيس جامعة وتشييد مختبر لمكافحة الامراض !! ـــ اما هذه القصص التي تشبه الاساطير وحكايات الف ليلة وليلة فهي مجهولة من الرأي العام ، وبعضها غريب الحوادث المتناقضة مما يخيل الى القارىء انها تروى لارهاب الجماهير القريبة بذهنيتها من ذهنية الاطفال !

وفي الواقع ، ان اسرار سياسة النفط مخيفة بل فظيعة ، ولولا بعض طوارىء مفاجئة ، او حوادث فردية غير منتظرة ، ولولا تكالب

الشركات وتطاحنها على هذه المادة ، والتزاحم الشديد العلني الذي استخدم رجال السياسة في المؤتمرات الدولية للدفاع عن مصالح تلك الشركات المخيفة لظلت اسرار سياسة « الذهب الاسود » ، او لظل اكثرها ، طي الكتمان حتى الان ، ولظلت الشعوب والجماهير في الدنيا ، وهي عنوان السذاجة وقلة التفكير المستقل ، على ظنها بان الحروب التي تشهرها الدول انما هي « للدفاع عن ارض الوطن ! » و« لحماية تربة الآباء والابناء من اغتصاب الفاتح » و « للذود عن الكرامة القومية وراية الجدود » وما اليها من كلمات خلابة ، جذابة ، تخدر القلوب و « تمرفن » النفوس ، وتقود الجماهير بالالوف والملايين الى المجازر ، وهذه النعاج واهمة انها تتقدم من الموت لدفع الضيم والاذى عن حياضها ، جاهلة انها تتناحر وتتقاتل لان محتكري النفط قد اختلفوا على سنتيم او سنس او مليم في تسعيره ، ولان ملوكه يتسابقون الى الحصول على امتياز في ارض تجري من تحتها انهار النفط كالـ ... جحيم !

وبعد ، فماذا يهمنا — نحن العرب ، وسكان بلاد العربية — من هذه الاساطير والحكايات المخيفة ؟

ماذا يعنينا من تطاحن ملوك النفط في اميركا الجنوبية والوسطى والشمالية ، في فنزويلا وبوليفيا وبارغواي ، ونيكاراغوا وكوستاريكا

وبنّاما ، والمكسيك ، في جبال القوقاس واودية ايران ، في رومانيا وتركيا ، في السماء وعلى الارض وفي ... جهنم ، ماذا يهمنا من تلك الاسرار التي تصلح لانشاء القصص والروايات ، وهل نحن بحاجة الى ازدياد معرفة بالاسرار ، واسس دياناتنا قائمة عليها ، وحياتنا محاطة بها ، ومصيرنا مغلف بغوامضها !

هل تهمنا اسرار النفط ؟

ـــ ايها العربي العزيز ، المسكين ، ان الاسرار التي شبعت منها هي « دعامة » الاسرار الجديدة التي ستعرف بعضها في هذه الفصول:

ان الثورة العربية الاولى حركتها سياسة النفط ، وغذتها شركاته ، وكنا اللهيب ولم ندر

ان الانتداب على فلسطين وشرقي الاردن ، وجعل الاولى وطناً قومياً لليهود ، هو نتيجة سياسة النفط في العراق

ان الانتداب على سوريا ولبنان هو جزء متمم للنتيجة الاولى في القطرين الشقيقين

ان احتلال العراق ، فالانتداب عليه ، فالمعهدة الحلفية معه ، ثم « استقلاله » ودخوله عصبة الامم ، ذلك كله كان لتأمين مجرى سياسة السائل الاسود الى شاطىء التبسط البريطاني

ان الروابط الاقتصادية التي يحكم عقدها الدهاء الانكليزي في فلسطين وشرقي الاردن والعراق ، والعهود التجارية لازالة الحواجز

الجمركية من بين هذه الاقطار ، والغاء جوازات السفر ، وتطويق سوريا باتحاد عربي موحد النظم الاقتصادية ، وسد السبل في وجه هذه المنطقة التي يحتلها الافرنسيون : هذه الانشاءات جميعها التي تلبس شكلاً تجارياً وترمي الى غايات حربية خطيرة الاثر في مصير الشرق هي وسائل الاستعمار البريطاني لاحتكار النفط العربي ، واحراج الافرنسيين ، فاخراجهم ...

واخيراً ، ان مشروع الخط الحديدي من شمالي سوريا الى الموصل فايران ، وتوسيع مرفأ حيفا ، وتوسيع مرفأ بيروت ، وانشاء المطارات في المرافىء والسهول ، واسكان الاقليات الجنسية والدينية في « اراضي الحدود » بين هذه الاقطار العربية هي عنوان الاستعداد الجبار الذي تعده الدول لحرب النفط المنتظرة

ايها العربي المسكين ، ان النفط هو ملكك وشيطانك ، حبيبك وعدوك ، محررك ومستعبدك ، معزك ومذلك : هو حياتك وموتك ، فاعرف « شيئاً » من سياسته تعرف ما انت فيه وما انت واصل اليه !



الاله ، الملك ، القربان

بعض الكتاب يلقبون النفط بـ « صاحب الجلالة الملك » وهو ملك حقاً ، على المبدأ الدستوري ، يخدم شعبه اكثر من خدمة شعبه له ، وقد تطور شكل حكمه على ممر الاجيال والقرون اسوة بزملائه الملوك ، فكان الهاً معبوداً ثم ملكا لادستورياً ، وصار ملكا ديموقراطياً ثم « فدائياً » يضحي نفسه ، اذ يحرق ذاته ، في خدمة الرعية ! هو مسيح ثان « لانقاذ » البشر ، ولكن كنيسته ، سواء أسمي حبرها الاعظم روكفلر ام ديتردينغ ، تزداد تعسفاً واستبداداً بالامم والشعوب كلما ازداد هو تضحية وافتداء ...

وتأبى الاقدار الا ان يكون اصل هذا الاله شرقياً — «عربياً» — وان يكتب لبلادنا — أجارها الله — ان تصدر جميع الانواع الالهية ، حتى السوداء ... منها ! فقد كانت الجزيرة (بلاد مابين النهرين او العراق) وفلسطين ، اول ارض عرف سكانهما النفط واستخدموا اجزاءه لاغراض منوعة :

قلب صفحات الكتاب المقدس عن العهد القديم تقرأ ان بني نوح ارتحلوا الى شنعار (في العراق) وسكنوا فيها « وقال بعضهم لبعض : تعالوا نصنع لبناً ونضجه طبخاً . فكان لهم اللبن بدل الحجارة والحمر كان لهم بدل الطين ، وقالوا : تعالوا نبن لنا مدينة وبرجاً

رأسه الى السماء ... فبددهم الرب من هناك على وجه الارض كلها وكفوا عن بناء المدينة ، ولذلك سميت بابل» (١)

ولما غضب الله على البشر لأن الارض امتلأت ظلماً منهم ، وما كانوا قد عرفوا الانتدابات بعد، ولا عهد لهم بالاستعمار ، أتى بطوفان الماء يهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . وكان نوح قد وجد نعمة في عيني الرب فامره بان يصنع فلكا من خشب قطراني ويدخله وعياله ، وقال له : « تجعل الفلك مساكن ، وتطليه من داخل ومن خارج بالقار » (٢)

وكان الطوفان او — فار التنور — كما جاء في القرآن الكريم وهو اصح تعبيراً ، فاخذ فلك نوح يسير على وجه المياه حتى «استقر في الشهر السابع ، في اليوم السابع عشر منه على جبال ارارط» (٣) — «وقيل: ياأرض ابلعي ماءك، وياسماء اقلعي، وغيض الماء ، وقضي الامر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح ١١ : ٣ و ٤ و ٨ و ٩ — والحمر بضم الحاء وفتح الميم نوع من القار اي الزفت المعدني . والعامة تشدد الميم

(٢) القار ، ويقال له القير ، والحمر ، والزفت ، مادة مكونة من ثفل (طحل) النفط الذي يطير غازه من التبخر ...

(١) سفر التكوين ، الاصحاح ٦ و ٧ و ٨

الظالمين ! » (١)

ثم نقرأ انباء النفط في مواضع كثيرة من الكتب المقدسة، فقد ذكرت التوراة ان غور السديم الذي هو بحر الملح « كان فيه آبار حمر كثيرة » — والحمر كما علمت ثفل النفط الذي يطير غازه من التبخر — فلما كثر صراخ سدوم وعمورة، وخطيئتهم . . . قد عظمت جداً، بعث الرب ملا كين الى لوط اخرجاه مع امرأته وابنتيه ووضعاه خارج المدينة لشفقة الرب عليه، وهرب لوط «فامطر الله على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عنده من السماء، وقلب تلك المدن وكل الدائرة (دائرة الاردن) وجميع سكان المدن ونبت الارض...والتفتت امرأة لوط الى ورائها فصارت عمود ملح» (٢) — « فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها، وامطرنا عليها حجارة من سجيل، منضود، مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد » (٣) —

---

(١) سورة هود (٤٤) الضمير في استوت يعود الى السفينة (الفلك) وقال الاستاذ محمد فريد وجدي في تفسيره البليغ انه الجودي جبل بالموصل

(٢) — سفر التكوين : الاصحاح ١٤

(٣) — سورة هود (٨٢) ويقول الاستاذ وجدي في تفسيره: « (من سجيل) اي من طين متحجر . وقيل اصله من سجين اي جهنم فابدلت نونه لاماً . (منضود) اي منتظم متتابع بعضه يتبع

« وبكر ابرهيم في الغد الى المكان الذي وقف فيه امام الرب، وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل ارض الدائرة ونظر : واذا دخان الارض يصعد كدخان الاتون » (١)

ويشرح علماء الجيولوجية اسباب ذلك الانفجار بان الارض المعروفة اليوم بالبحر الميت ، اي غور السديم او بحر الملح ، كانت في عهد ابرهيم ولوط مستودعاً عظيماً للنفط ، مستوراً بقشرة ارضية خصبة ، ولما كان السكان يحفرون فيها لاستخراج الحمر لاجل البناء ، فيعتقد أن صاعقة انقضت عليها ونفذت من الحفر الى المعادن او أن

بعضاً . (مسومة) اي معلمة للعذاب. مشتق من السومة وهي العلامة. (عند ربك) اي في خزائنه. — ثم فسر الاستاذ وجدي معنى الاية قال : « فلما جاء عذابنا قلبنا مدينتهم بهم وامطرنا عليهم حجارة من طين متحجر متتابعة ومعامة من خزائن ربك وهي ليست من الظالمين ببعيد » اهـ

(١) — سفر التكوين : الاصحاح ١٩ وفي هذا الاصحاح (١٩) قصة « طريفة » عن لوط وابنتيه اذ سكنوا في المغارة بعد ذلك الانفجار البركاني ، وسقت الابنتان اباهما خمراً في الليل واضجعت كل منهما معه ، كل منهما في ليلة ...وتقول التوراة ان لوطاً هذا لم يعلم باضطجاعهما ولا بقيامهما ... فحبلتا منه !

الغازات فارت فجأة والتهبت باحتكاكها باوكسجين الهواء ، فالتهب احد آبار النفط وامتدت النار الى الآبار الاخرى وانفجرت الارض تحت سدوم وعمورة فاحترقتا بالنار والكبريت ،وأمطرت عليهما حجارة من سجيل ، وعرف العهد القديم الذي سبق التاريخ نوعاً من انواع البراكين النفطية التي نشاهدها او نسمع بها في ايامنا هذه،ولكننا ـــ لقصر في عقولنا ، او كفر في قلوبنا ... ـــ ننسبها الى عوامل كيمائية في حين انها غضب من الله علينا . لان الارض امتلأت جوراً من ... «البشر »، وخطيئاتهم ... كثرت جداً !

ومما ذكرته التوراة عن النفط ، دلالة على ان اجدادنا الشرقيين عرفوه واستخدموه ، حكاية موسى الكليم اذ ولد في عهد الظلم الفرعوني وكان العبرانيون مأمورين برمي ابنائهم في المياه ، فكتمت امه امره ثلاثة اشهر « ولما لم تستطع ان تخفيه بعد ، اخذت له سفطاً من بردي وطلته بالحمر والزفت وجعلت الولد فيه ، ووضعته بين الخيزران على حافة النهر »(١) فرأته ابنة فرعون واخذته

ولم تقتصر الكتب المقدسة وحدها على وصف حوادث النفط وانبائه في العصور الاولى ، فقد ذكرها كثيرون من مؤرخي العالم القديم ولا سيما « بلين » و « هيرودوت » و « بلوتارك » ، ولهذا المؤلف اليوناني الاخير حكايات ووصف مسهب عن النفط وعناصره

(١)ـــ خروج : الاصحاح ٢ : ٣

في كتابه الخالد « حياة الاسكندر » ، ولم تكن هذه المادة يومئذ باقل نفعاً — على مايصفها بلوتارك في كتابه — منها اليوم ، فقد كان المصريون يأتون بها من هيت ، على الفرات ، لتحنيط الموتى (١) وكان الملاحون يطلون بها زوارقهم . ومما يرويه بلوتارك في هذا الصدد ان الاسكندر يوم كان في بابل اختار شاباً من بين رجاله جميعاً اسمه اثينوفانوس ليخدمه في الحمام ويدلك جسمه بالزيت لانه كان يحسن « مماجنته » وتسليته ... وتعرف العاهل الى شاب آخر يدعى اسطفانوس كان جميل الصوت ويتقن الانشاد الحنون فقربه اليه بالرغم من بشاعة وجهه ، واتفق ان اسطفانوس وجد يوماً في غرفة الحمام فقال اثينوفانوس للاسكندر : « أيريد مولاي ان نجرب تأثير النفط في جسم اسطفانوس ؟ اننا سنشعله عليه ، فاذا لم ينطفيء ، فاؤمن عندئذ بان قوته اعجوبة وليس من شيء اعظم منه »

واحب اسطفانوس ان يساير عبث الاسكندر فقدم نفسه مختاراً لتلك التجربة ، فما كاد يدلك بالنفط ويقرب من النار حتى اشتعل كله ، فاضطرب الملك اضطراباً عظيماً ، واسرع الخدام الذين كانوا في الحمام وصبوا الماء على المنشد وبذلوا جهداً كبيراً في اطفاء اللهب ولكن المسكين قضى طيلة حياته مقعداً مشوهاً !...

وقد يكون في قصة ذلك المنشد اسطفانوس الابله — ولم يخل

(١) — ايمار : الفصل الاول

منشد من بله !... — وجه للشبه بين عبث الملك الاسكندر بفرد من ابناء رعيته ، وبين عبث ملوك النفط اليوم برعاياهم التي هي شعوب الارض باسرها ، وليس من عجب ان يستعبد النفط الشعوب بعد استعباده الافراد ، فان كل شر يبدأ صغيراً ثم ينمو ويكبر ، الا حب « الطوائف » للدول الغربية عنها فانه يبدو في بدئه عنيفاً قويا ثم يصغر ، فيضمحل ، فيتلاشى !

واذا لم يكن لنا من العزاء بد ، — بعد ان كنا اول شعب عرف النفط واستخدمه للخير : للبناء والتداوي والفن ، وهذه هي الشعوب القوية تستخدمه اليوم للتدمير والقتل والهمجية ، ثم صرنا بسببه عبيداً ، وانوفنا راغمة ، — فحسبنا عزاء ان التاريخ سجل لاجدادنا هذا السبق (١)

وزادنا الله تعذيباً على اهمالنا شأنه الخطير وسماحنا للاجانب باستثماره واستعبادنا !

كان النفط يسمى بالحمر ، والقار ، والزفت ، ولم تطلق عليه كلمة

---

(١) لقد انصف ايمار الشرق بقوله (ص١٣) : « ان التاريخ يظهر لنا ان الشعوب القديمة في مصر وفلسطين وبلاد العرب والعراق وايران عرفت النفط في جميع الازمان وكانت أسبق الشعوب الى استخدامه »

« بترا أوليوم » الا في كتابات « بلين » (١) ومعناها « زيت الحجر او الارض » وهـذا اصح تعبير ، ثم حرفت فصارت « بتروليوم » ، و « بترول ». وانتقلت معرفة الناس به من الشرق الى الغرب فاستخدم للتحنيط والتداوي ، وفي القرن الرابع عشر صار يشمل للاضاءة . وكان الهنود اول الذين استخدموه في اميركا .

وظل شأنه على هذا الحال الى منتصف القرن التاسع عشر ، الى سنة ١٨٥٣ ، اذ كان الكولونيـل ادوار دراك (٢) يحفر بئراً في بلدة تيتسفيل في ولاية بنسلفانيا الاميركية ليستخرج الملح بعد تبخير مياهه واذا بمـائع زيتي ينفجر فجأة مرتفعاً بقوة عظيمة في الجو ، واذا التاريخ يسجل اكتشاف اول بئر للنفط في العالم !

وكانت تجـارة السائل الاسود ، التجارة السوداء ، وسبقت الولايات المتحدة العالم فيها ، فالفت الشركات الرأسمالية ، وارصدت الاموال لتنظيم تجارته وصناعته ووضع الكتب العلمية عنه ، واصبح النفط بعد مدة وجيزة مادة حيوية للناس وللدول ، بعد ان كان دواء للسل والسرطان والرشح والهواء الاصفر ، فبلغت اعمال المسيطرين عليـه قمة الازدهار ـــ ولهؤلاء المسيطرين حوادث وفضائح تقشعر منها الابدان سنوجزها في كتابنا الثـاني ـــ واعلنت الحروب بين شركات الاحتكار الضخمة ، وسيطر زعماؤهـا على سياسة الولايات

---

(١) PETRAE OLEVM (٢) Cl. Edouard DRAKE

الـتي يستخرج منهـا النفط ، وصار لهم نواب في مجالسهـا ، ونواب وشيوخ في الندوة التشريعية العليـا (الكونغريس) في العـاصمة واشنطن ، ينوبون في الظاهر عن الشعب ويمثلون في البـاطن مصالح اولئك المحتكرين .

وضجت الصحافة من فضائح شركات الاحتكار ، واحيـل الكثيرون من اربابها الى القضاء فتمكنوا من تسخيره لمصالحهم، فازداد الرأي العام انتباهاً لاهمية المادة السوداء الـتي قلبت صناعة العـالم رأساً على عقب واحدثت ثورة حيوية فيـه ، واهتمت الدول للبحث والتنقيب عنها ، وانبثت بعثات المهندسين في مجاهل الارض وفي سائر انحاء المعمور تفتش عن « الحياة » الجديدة الـتي كانت الهاً وصارت ملكاً، واصبحت قرباناً على مذبح المطامع !



حكاية ...

تبدأ في شكلها الظاهر منـذ ثلاث وثلاثين سنة — عمر السيد المسيح على التمام — وترجع في تاريخهـا الحقيقي الى عهد مجهول لم يضبطه كاتب : حكاية مقدمتها بطيئة طويلة، ومشاهدها سريعة قصيرة، ونتيجتها سنون واجيال

المقدمة : في اليوم التـاسع من شهر صفر ١٣١٩ و ٢٨ نوار (مايس) سنة ١٩٠١ ، وبعد مفاوضات ومراجعات ، تم الاتفاق بين الانكليزي الفرد ليتلتون ماريوت ، بالنيابة عن موكله وليم نوكس دارسي « ملاك مقيم في لندره ، شارع ساحة غروسفنور رقم ٤٢ » (فريق اول) وبين صاحب الجلالة الامبراطورية مظفر الدين شاه ايران (فريق ثان) على عقد امتياز كتب باللغتين الافرنسية والايرانية

المشهد الاول — في اليوم الرابع من شهر حزيران (يونيو) من تلك السنة ، ذهب المستر ماريوت ، وكيل المستر دارسي ، الى مقر القنصلية البريطانية في طهران ووقع على العقد بحضور المستر جورج غراهام نائب القنصل الذي صـدق صحة التوقيع وسجله في اليوم الثاني في سجل القنصلية (من ص ١١٧ الى ص ١٢٤)

المشهد الثاني — في اليوم السـادس من حزيران جاء الى مقر

القنصلية المذكورة الصدر الاعظم امين السلطان (اتابك اعظم) ومشير الدولة وزير الخارجية الايرانية (١) فوقعا على العقد باسم الحكومة ، وصدق نائب القنصل نفسه صحة التوقيعين

المشهد الثالث — في اليوم عينه انتقل الممثلون المذكورون من مقر القنصلية البريطانية الى البلاط الملكي حيث تشرفوا بالمثول بين

---

(١) كان كبار الموظفين من وزراء وسفراء في عهد الشاهات القاجاريين يلقبون بالقاب رسمية يعرفون بها ويشتهرون ، وكانوا يوقعون على الاوراق الرسمية بتلك الالقاب ، مهملين أسماءهم الحقيقية، فتراهم مشهورين بالقاب سيف الدولة ، ومشير الدولة ، وعضد الدولة ، وامين السلطان ، واحتشام السلطنة ، وسالار الدولة الخ الخ وقد أحسنت الحكومة البهلوية صنعاً بالغاء تلك الالقاب الجوفاء واستخدام الاسماء الحقيقية . اما الصدر الاعظم امين السلطان الذي وقع على عقد دارسي فكان يدعى ميرزا علي اصغر خان ، ووزير الخارجية مشير الدولة ميرزا حسن خان بيرنيا ، وقد تندهش من العلم بان هذا الوزير الكريم بمساعدة الاجانب ، والسخي عليهم في نصوص الامتيازات التي كانوا « يمنحونها » في العهد الماضي ، هو اليوم مساهم في شركة الانكلوبرشيان — التي قامت على انقاض شركة دارسي .... — ويعد من كبار النفطيين الشرقيين .

يدي جلالة الشاه المعظم، وتشرف العقد بتوقيع يد جلالته الكريمة...
وصدق نائب القنصل صحة التوقيع
واسدل الستار

....

ماهو ذلك العقد ؟

هو امتياز « منحه » وليم نوكس دارسي جاء في البند الاول من بنوده الثمانية عشر مانصه :

البند الاول — : تمنح حكومة الشاه صاحب الامتياز الامتياز الخاص والمنحصر في البحث والتنقيب عن الغاز الطبيعي والنفط (البترول) والقير (الاسفلت) وحجر الشمع (الاوزوكيريت) في جميع انحاء المملكة الايرانية ، واستخراج هذه المواد ، والاستفادة منها ، وتنميتها وجعلها صالحة للتجارة ، وتصديرها وبيعها ، الى مدة ستين سنة تبتدىء من تاريخ هذا العقد

البند الثاني — : يشمل الامتياز الحق المنحصر لمد الانابيب اللازمة لهذه الاعمال ، من الاماكن التي قد يوجد فيها مادة واحدة او عدة مواد من المذكورة في البند الاول ، الى خليج فارس ، مع مايتفرع على ذلك من التشعبات الضرورية للتوزيع . وكذلك يشمل حق حفر آبار وبناء خزانات ومحطات ، واستعمال مضخات للاذخار والتوزيع ، وتأسيس معامل وسائر الاعمال والمؤسسات

التى تقضي الحاجة اليها

البند الثالث ـــ : تمنح حكومة ايران صاحب الامتياز حق التصرف مجاناً بجميع الاراضي غير المزروعة العائدة للحكومة، التي يراها مهندسو صاحب الامتياز بانها ضرورية لبناء الاعمال الانفة الذكر، او قسم منها الخ ...

وكذلك تمنح الحكومة (الايرانية) صاحب الامتياز حق استملاك جميع الاراضي الاخرى والابنية اللازمة للقصد عينه، وتتعهد بموافقة اصحاب الاملاك على الشروط التي تقرر بينه وبينهم الخ .

البند السابع : ـــ تعفى من الضرائب والرسوم جميع الاراضي الممنوحة بموجب هذا العقد لصاحب الامتياز، والتي يشتريهـا، وكذلك تعفى المحصولات المصدرة في اثناء مدة هذا الامتياز، وتعفى ايضاً مـن الرسوم والمكوس الجمركيـة جميع الالات والماكينات التي تجلب الى ايران واللازمة لمشاريعه المذكورة في هـذا العقد .

....

....

البند التاسع ـــ : تخول حكومـة ايران صاحب الامتياز حق تأسيس شركة او شركات لاستثمار هذا الامتياز ... وهـذه الشركة والشركات ستتمتع بجميع الحقوق والامتيـازات

الممنوحة للمهندس دارسي ، غير انـه يجب عليهـا ان تأخذ على عاتقها جميع العهود والتبعات التي قبلها صاحب الامتياز الخ »(١)

***

هذا موجز العقد الذي اشتهر باسم « امتياز دارسي » صاحبه ،

---

(١) يرى القارىء نص الامتياز منشوراً بكامله في آخر هـذا الكتـاب . William Knox D'Arcy وقـد تنوعت أقـوال كتاب النفط في جنسيته : فالاستاذ نيكوليسكو الروماني ، وهو عالم رزين الحجة وأخصائي في شؤون النفط ، يقول (ص١٤٣) ان دارسي من جزيرة نيوزيلاندة (مستعمرة بريطانية في قارة اوسيانية) وقال عنه ايمار الفرنسي (ص١٩٧) انه اوسترالي ، وزيخكا النمساوي (ص١٢) وبوكار الافرنسي (ص٩٤) ينسبانه الى كندا ، والكاتبان السكسونيان دافنبورت وكوك يقولان (ص١١) انه انكليزي ... ولكن الجميع يثبتون انتسابه الى راية سيدة البحار . وكذلك تناقضت الروايات عن انتقال امتيازه الى شركة « الانكلوبرشيان » الانكليزية الهولاندية مما سنشير اليه في موضعه .

واستندنا في فصلنا هذا عنه الى بوكار (ص٩٠) وزيخكا (ص١١) ولكننا ننبه القارىء الى ان الخفـة الروائية تنزع بهذين الكاتبين الى الرعونة والخطأ في استنتاجها وحكمها على الحوادث ..

والذي يشبه في مراحله التاريخية حكايات الف ليلة وليلة ، فمن هو دارسي ، وكيف « منح » هذا الامتياز السماوي ؟

في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، حط رحاله في طهران مهندس نحيل ، « ناشف الوجه » ، يدعى وليم نوكس دارسي كندي الاصل ، قطع البحار والامصار بين الغرب والشرق ، ونزل ايران ليتطوع في خدمة صاحب الجلالة الشاه ، اسوة بزملائه الاجانب الذين كانوا يقدمون النصائح في ذلك العهد لصاحب الجلالة ، طاهرة عفواً ، لوجه الله الكريم .

ولم يكن عسيراً على الاجنبي في ذلك الزمن المشؤوم ، ولا سيما اذا كان انكليزيا أو روسياً ، أن يتقرب من البلاط الملكي ، فحمل رجال الحاشية صاحب العرش على الاعتقاد بان المهندس دارسي يحب الشرق عامة لانه مهبط الوحي ، ويعطف على ايران خاصة لانها مهد أقدم حضارة في تاريخ الشعوب الموجودة . فرضي الشاه عن الخادم المتطوع بالنصائح المجانية وقربه منه (١)

---

(١) كان الشاه مظفر الدين ضعيف النفس ، صبي الارادة ، وقد تولى الحكم بعد مقتل الشاه ناصر الدين الذي عاش فاجراً ظالماً وأباح بلاده لمطامع المستعمرين ، فتنزل عن تركستان لقيصر بطرسبرج ، ومنح الامتيازات الرئيسية في ايران للانكليز والروس ، وأرهق

ويؤكد الذين عرفوا دارسي انه كان شريف الغاية، يرجو أن ترتقي البشرية الى مستوى يعيش الناس فيه برغد وطمأنينة : مبادىء مستحبة أخذها من « روح » التعاليم المسيحية ، لولا بعض النعرة

الشعب بالضرائب ، مما جعل عهده مخجلا في تاريخ الشرق . وقد قتل على أثر الهياج الذي عم ايران من منحه شركة انكليزية امتياز حصر الدخان... فلما خلفه شاه مظفر الدين كانت حال المملكة المالية في خراب وفقر مدقع ، فرهن المكوس (الجمارك) لدى الروس ، ومنحهم امتيازاً بانشاء مصرف رسمي باسم « بنك الاستقراض » بات مديره بمثابة الشاه الحقيقي : ينهي ويأمر بما يوافق مطامع الاستعمار الروسي ، غير مبال بكرامة البلاد ومصالح الشعب . وحسبك ان تعرف أي امتياز سماوي منحه مظفر الدين للمهندس دارسي لقاء بعض دريهمات انفقها على ملاذه في اوربا لتعلم شيئاً عن حالة ايران في ذلك العهد المشؤوم !

وللكاتب الافرنسي الكونت غوبينو مؤلف بعنوان : « ثلاث سنوات في اسيا » ذكر فيه كثيراً من مآسي ذلك العهد المخجل ، ليرجع اليه من يهتم لشؤون الشرق في زمن الاستبداد والارهاق ... ونقول بهذه المناسبة ان الشاهات القاجاريين هم من أصل غير ايراني ، فلا عجب ان يهملوا مصالح ايران !...

السكسونية فيها . وكان فوق سكسنته مهندساً : أي ماديا ، وضعياً ، « رقمياً » — اذا جاز هذا التعبير — فقد تأثر فكره بالمادة كما تأثر قلبه بالروحيات . ولما بدأ حياته العملية كانت الثورة الصناعية التي خلقها النفط في ابان فورانها ، فمال بقواه كلها الى درس هذه الصناعة وكشف اسرارها ، وكانت له فيها مجازفات ، ونضال وعمل مستمران ويأس وعمل ، فقنوط ، فرجاء .

وفتح الله قلبه ، وذكر انه درس يوم كان في المدرسة أن بعض قبائل في الشرق كانت تعبد النار ، وان مركز الديانة الزردشتية كان في بلاد فارس ، وان الهياكل التي بناها المجوس كانت منارة بلهب دائم يصعد من الارض ، والسنة النار ترتفع عالياً ولا يؤثر فيها مطر ولا هواء !

— : يا الله !.. ما عساه يكون ذلك اللهب الدائم ، والالسنة النارية المضطرمة صيفاً وشتاء ، في هيا كل المجوس ؟

ألا يمكن أن تكون غازاً منطلقاً من جوف الارض ، وأن تكون تلك الارض مناطق نفطية ؟

ألا يجوز أن يكون كهان المجوس قد بنوا هيا كلهم في تلك الارض خصيصاً لايقاع الناس في الوهم أن ديانتهم هي فوق ادراك البشر ، وأن لها القوة الخالدة ؟

اذن ، فالى ايران ، الى بلاد الميا كل المجوسية والديانة الزردشتية

***

حط دارسي رحاله في طهران ، وفتح له النفوذ الانكليزي ، المسيطر يومئذ على مقدرات البلاد ، ابواب التيسير في مفاوضاته وعلاقاته بالحكومة والرعية ، ولكن الطبيعة عسرت مهمته وكسرت خياله فقد قضى الشهور والسنين يجوب الصحارى والجبال والاودية مفتشاً عن الضالة المنشودة ، ناقباً ارض الميا كل المجوسية ، وهو يصطدم بجبال من اليأس ، حتى خسر شبابه وصحته وماله ، ولم يبق لديه الا ايمانه بالله ، وايمانه بنفسه ، فسافر الى انكلتره والف شركة قدمت له المال اللازم لمتابعة الجهاد ، فباءت أعمال الشركة بالفشل ، ورجع ثانية الى انكلترة لتأليف شركة جديدة فلم يوفق ، وكاد القنوط يستولي عليه ، وبدأ اصحاب المال يسخرون منه ويتهمونه بالبله والتدجيل ، وسدت ابواب الامل في وجهه ـ فصبر ، وثبت في ايمانه .

وعاد الى طهران كئيباً ، عاد اليها ليكون على مقربة من مسرح احلامه ومهد امانيه ، وانصرف الى التجارة الصناعية فأنشأ خطاً حديدياً صغيراً وانتهى به الامر الى الاثراء : أي ان المال جاءه صاغراً بعد أن ذاق الامرين في سبيله وتلاشت قواه للوصول اليه ؛ وبعد أن احتقره وودع حلمه الذهبي الجميل ! الا يرى القارىء وجهاً للشبه في

هذه « الحكاية » بين المال وبين المرأة ؟

اثرى دارسي ، فعاد اليه خيال النفط بشدة وعنف حتى كاد يقض عليه مضجعه ، وكان « صديقه » الشاه قد « منحه » في هذه الفترة من الزمن الامتياز الذي أوجزنا بنوده في الفصل السابق ، وتابع هو تفتيشه عن الابار .

وفي ذات ليل ، وكان مستلقياً على فراشه يستعيد في مخيلته ذكرى المجوس ، طرق بابه ودخل عليه رسول من تستر (شوستار او ششتر) يحمل اليه بشرى التوفيق ، وأنبأه بأن النفط تدفق من بئر في تلك المنطقة الواقعة في شمالي الخليج الفارسي .

ودخلت حياة الشرق في طور جديد !

لم يصدق دارسي ما سمعته اذناه ، وخيل اليه انه لا يزال يحلم ، وان هيا كل المجوس التي فتش السنوات الطوال عن آثارها وتحت انقاضها هي التي تترآى له الان من وراء مئات الاجيال : فقد قضى في درس طبقات الارض الايرانية اربع عشرة سنة ، وجاب الصحارى الموحشة اشهراً كاملة يبحث عن ضالته ، وحيداً لا يرافقه أخ ولا حبيب ، ويحتاج الى القوت والماء مراراً ، وقد حرقته اشعة الشمس والف حياة الحيوان حتى كاد يظن نفسه حيواناً ... ولكن خشبة صغيرة لم ترافقه في اسفاره ايقظت فيه الضمير الانساني وأحيت في

قلبه الامل ، وكانت مع توراته وخرائطه ورسومه الصلة الوحيدة التي ربطته ، في عزلته ، بالحياة « البشرية » وذكرته انه ... انسان ! — فهل أنعم الله حقاً على عبده بما يصبو اليـه ، وهل ترى عيناه النفط في زمان ومكان محدودين ؟

بهذه الخيالات والذكريات « سمر » دارسي حتى الصباح ، فمشى الى تستر (شوستار) وشاهد النفط يتـدفق من الارض فسجد يشكر ربه !

ونعرته كرامته فولى وجهـه شطر الغرب وابتسم ... ابتسامة السكسوني المنتصر ، اذ ذكر التهم التي الصقها به رجال المال في اوربا فنسبوا اليه البله والجنون ، وباتوا يحذر بعضهم بعضاً من امداده بفلس واحد ، واتهمه اناس بانه « نصاب » محتال يؤلف الشركات الماليـة موهما اصحاب الاموال بانه يحاول استخراج النفط وبانه في الواقع يبذر تلك الاموال على ملذاته الجنونية !

ولكن الصبر والثبات ، ولكن الايمان وفقه :ـ « ان من كان في قلبه ذرة من الايمـان كحبة الخردل ، وقال لهـذا الجبل : انتقل لانتقل » — صدق الله العظيم ! — وهذا عبده دارسي يقول للارض : أخرجي النفط ، فتخرجه !

والانكليزي : « ينام باحدى مقلتيه ... »

في تلك الاثناء كانت امارة البحر البريطانية قد بدأت عهداً جديداً في سياستها ، وبدأت تهتم لشؤون السائل الاسود ، لتكون صاحبة مشاريع نفطية تستقل بها(١) فأوعزت الى جماعة من المهندسين

---

(١) كان اللورد فيشر الذي تولى امارة الملاحة البريطانية من سنة ١٩٠٤ حتى بدأ ١٩١٠ اول انكليزي نادى بوجوب اتباع سياسة خاصة بالنفط ، وله في هذا الصدد مواقف تاريخية واعمال خالدة ، واليه يعزى الفضل الاكبر في ماوصل اليه الاسطول الانكليزي من العظمة ، فقد تنبأ منذ سنة ١٨٨٠ بإمكان الاستغناء عن الفحم بالنفط في مواقد الاسطول . وقد ذكر العالم الكيمائي اللورد مولتن ان اللورد فيشر هو الذي نبهه الى اهمية النفط كمادة تصلح للوقد ، وذلك سنة ١٨٨٢ بعد اطلاق الاسطول الانكليزي القنابل على الاسكندرية ، وقال ان استخدام النفط يوفر عن الاسطول نصف القيمة التي ينفقها على الفحم

وكان اللورد فيشر مؤمناً بصحة فكرته ، متحمساً لها ، يعلنها ويدافع عنها في كل زمان ومكان ، وشايعه بعض زملاء له في الدعوة لها على شرط ان تفتش انكلترة عن منابع النفط في ممتلكاتها وتمتلك

بتأليف شركة اسمها « بورماه اويل » (١) وساعدتهم مادياً ومعنوياً ، وعطفت على مساعيهم ، ومنحتهم حق استثمار قسم كبير من

آباراً تكون خاصة بها وحدها ، وقد تحمس بعض الانكليز لهذه الفكرة لان الولايات المتحدة الاميركية كانت تحتكر النفط وتمون العالم منه وتستبد به وتملي ارادتها على الشراة . ولكن اكثر موظفي امارة البحر البريطانية كانوا على رأي آخر ، لانهم من انصار الفحم ، وكلهم شيخ عجوز ، وشيمة العجوز المحافظة على الكيان القائم والابتعاد عن الافكار الجديدة الجريئة ، فقاوموا فيشر وحملوا على فكرته مستهزئين منها

وقد روى اللورد فيشر في مذكراته صفحة من ذلك التاريخ فقال : « دعاني ذات يوم اللورد ريتون ، وكان وزير الملاحة ، وقال لي ان رجال الاسطول الانكليزي ينعتونني بالمتطرف المتباهي ، ولكنه يرغب مع ذلك في تعييني عضواً في مجلس امارة البحر . فأجبت الوزير بان اسناد هذا المنصب الي يؤدي حتماً الى استقالة جميع الاعضاء الآخرين من مجلس الامارة . ومضى اسبوع على ذلك الحديث ودعاني ملتون ثانية اليه ، وقال لي وهو يضحك : « لقد كنت مصيباً في جوابك ورفضك » ثم عينني مديراً للمدفعية البحرية ، وكان بعض الناس قد بدأوا يلقبونني بـ « مهووس النفط » — (ايمار ص ١٢٢)

---

(١) Burmah Oil

اراضي الهند النفطية ، ولكنهم لم يتمكنوا من تموين تلك البلاد المترامية الاطراف لان الهند فقيرة بالوقيد ، (١) فاتجهت ابصارهم الى البلدان المجاورة ، واتصلوا بايعاز من حكومة لندره بالمهندس دارسي. واتفقوا معه على العمل في منطقة صغيرة من البلاد التي يشملها امتيازه السماوي ، وكان ذلك الاتفاق فاتحة علاقة امارة البحر البريطانية بكنوز ايران

وبدأت شركة «بورماه اويل» عملها بدرس تربة المناطق المجاورة ، وتردى مهندسوها برداء العلم والتجارة ، واعلنوا ان غاية شركتهم استخراج النفط من تستر (شوستار) وجلبه الى الخليج الفارسي لبيعه في الهند ، ولكنهم كانوا يضمرون وراء هذه التجارة صرف دارسي بسلام ... بعد التعويض عليه ببعض المال ، فيخلو لهم الجو ، ويسيطروا على اغنى بلاد نفطية احتكر ذلك الامتياز حق استثمارها

وكان دارسي قد شاخ وشعر بحاجة الى الراحة فسافر راجعاً الى بلاده ، وما بلغ مرفأ الاسكندرية حتى وجد المساومين بانتظاره ، وكان هؤلاء المساومون يمثلون شركات اميركية وهولاندية وانكليزية ويعلمون من نص امتيازه ان بنده الاول يخول صاحبه حق البحث والتنقيب عن المواد اللاهبة وفروعها في « جميع انحاء المملكة

(١) — ايمار ص ١٢٣ .

الايرانية ، الا الولايات الشمالية الخمس ، وان بنده التاسع يخول صاحبه « حق تأسيس شركة او شركات لاستثماره » ، فهل تعجب من تزاحم الرأسماليين عليه ، وليس انسان في الدنيا — ولا سيما اذا كان غنياً — يعف عن ان يكون هو صاحب هذا الامتياز السماوي

ابى الشيخ البيع ، وقيل انه كان يرغب في الاحتفاظ بورقة الامتياز على انها ذكرى مستحبة لنفسه ، لا على انها دستور ثروة طائلة تشتري مملكة باسرها ، فهي تعيد الى ذاكرته خيال السنين الخوالي في الصحراء ، والعذاب والتعب والغرث ، ولانها رفيقة صليبه وتوراته وخرائطه فيود أن تنزل ورفيقاتها معه الى القبر

وأعاد المساومون الكرة وأغروه بالملايين فرفض : انه سكسوني و ... عجوز . ويقول الكاتب النمساوي انطون زيشكا (١) ، وهو اول مؤلف اسهب في سرد تلك الحوادث ، ان بعض « هم » — ...؟ — بذلوا جهداً غالياً في اقناع العجوز ببيع امتيازه فلم ينجحوا ، فصارت حياته عرضة للـ ... موت ، اي ان اولئك الـ « هم » ، حاولوا اغتياله .

وقد يتساءل القارىء : مافائدة محاولي اغتيال دارسي من قتله مادام امتيازه قائماً باسمه ، لم يحوله الى شركة او شخص يوم كان في

(١) ص ١٨

قيد الحياة فلا يستطيع احد الانتفاع به ؟

وهذا الواقع هو « الفائدة » التي ينصرف الناقمون عندئذ اليها ، هي فائدة سلبية : انهم يحرمون غيرهم من الحصول على الامتياز كما حرمهم منه صاحبه — « عليَّ وعلى اعدائك يارب » يقول شمشون الجبار ، وقديماً انشد ابو فراس : « اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر »!

فجبر دارسي من الحاح الملحين عليه ببيع امتيازه ، وافاقت فيه روحه المسيحية فتألم من تكالب الاغنياء على زيادة ثرواتهم ، تالم من صيرورة الحياة البشرية هزة الطمع والجشع ، واستحلال رجال المال وحلفائهم وعمالهم قتل الابرياء وارهاق الضعاف في سبيل الاثراء ، تألم من هذه الذهنية المادية التي تسيطر على العالم وتكتسح مبادىء الاخاء والمساواة والحرية ، وتخضع الحق للقوة وتضع العدل تحت رحمة المصلحة الفردية ، وتسخر ملايين البشر لخدمة مئات الافراد!..
ثارت مسيحيته على الظلم المسربل بوشاح القانون . واحزنه ان تصبح تعاليم سيده المسيح مورفيناً لتخدير الشعوب ، ولاستهوائها في الطاعة العمياء ، وان يكون العالم المسيحي اسبق من العالم اليهودي الى الظلم المالي واجرامه ، فعزم على تمزيق تلك « الورقة » الشريرة التي تساعد ذوي المطامع على جعل ايران مسرحاً لدسائس المتمولين الاغراب ، وملعباً لدسائس السياسة الاجنبية !

كان دارسي صادقاً في شعوره ذاك ، ولكنه لم يصدق الشاه « جميع » مراميه من الحصول على امتياز النفط ، ولم يظهر امامه بانه سكسوني قح من الطراز الاول : اي انه يريد أن يسكسن العالم باسره — اذا استطاع ! — فقد شرح لصاحب الجلالة منافع ايران من النفط ، وأخفى منافع ارباب النفط ، من سكسنة ايران

وللانكليز ، لابطال السكسنة في مراميهم ابواب وسبل شتى ، ولهم ذهنية فذة في فتح تلك الابواب والسير على تلك السبل ، فليس من « الواجب » في نظر مستعمرهم ان يدوخ بلداً ما بالنار والمدفع ، ويحصد شيوخه واطفاله ونساءه بالرشاشات وقذائف الطيارات ، ليحملهم على حب انكلترة ، ان المسكسن الاستعماري لا يستند الى الحراب دائماً في انسلاله الى البلدان التي يرغب في بسط نفوذه عليها ، بل يكتفي بسقي الشعب الذي « يرغب فيه » ملعقةصغيرة من السكسنة توافقوقابليته: انه — مثلاً — يرتدي لباس الراهب الورع العفيف ، ويعيش السنين الطوال في القرى النائية ، يعلم صغارها مبادىء القراءة والكتابة الانكليزية ، ولا يعرض لدينهم او مذهبهم بشر ، ولكنه « يبردخ » جاذبية الاعتقاد في اولئك الصغار بتؤدة وحكمة ونفاذ بصيرة ، ويعلمهم حب الوطن ، اذا كان في هذا الوطن مسيطر اجنبي غيره ، ويعلمهم تاريخ بلادهم وعظمتها ، ويعرض عليهم من حين الى آخر صوراً من مظاهر الامبراطورية البريطانية ، فما هي غير بضع

سنوات حتى يشعر التلاميذ ، وقد شبوا، بعطف ـــ ان لم نقل بميل ـــ الى اعتقاد معلمهم الطيب القلب ، ويشعروا باعجاب يرافقه شيء من الجاذبية بمظاهر امبراطورية استاذهم . ـــ ان للانكليز ابواباً منوعة لادخال السكسنة في البلدان التي يطمعون ببسط نفوذهم عليها ، ورسلهم في هذه المهمة فريقان : احدهما « بريء النية » في عمله ، يسعى ويشقى ويجاهد على اعتقاد منه بان تربيته وثقافته ومعتقداته هي افضل صلة بين الارض والسماء ، فمن الواجب عليه ان ينشرها ويبشر بها في شعوب الدنيا جميعها ... والفريق الثاني خبيث عن قصد وسابق تصور وتصميم ، وهو يمثل بطبقات اكثر التجار والموظفين الذين نعرفهم في الشرق العربي . ولقد كان شيخنا دارسي من الفريق الاول ، وأحب سكسنة ايران بواسطة امتيازه ، وعلى هذا الامل ودع صديقه جلالة الشاه مظفر الدين !

***

تبرم دارسي بمزعجيه والملحين عليه ببيع امتيازه ، فهرب من مصر .

وكانت الباخرة تنقل من الشرق اشخاصاً لايستطيع مخالطتهم ، فهم مزيج من الموظفين المتغطرسين الشامخين بانوفهم ، المعتقدين بانهم يستمدون سلطانهم من الالهة ، في حين انهم عبيد ينفذون اوامر الرأسماليين في البلاد التي يسيطرون عليها ، ومزيج من اصحاب

الاعمال الذين يقضون الليل والنهار في النقاش والحديث عن التجارة وارباحها ، ومن الارستوقراطيين الذين حردوا على الله لانه خلق اناساً من طينة غير طينتهم البضة ، مع هذا « الشحن » المتنافر دماً وفكراً سافر دارسي من الاسكندرية فقضى يوميه الاول والثاني لا يكلم احداً . ولكن العناية التي رافقته في مغامرات شبابه، ووفقته بمنابع النفط ، « وفقته » في عزلتـه البحرية بالتعرف الى راهب انكليكاني ، قبع مثله في زاوية منعزلاً عن المسافرين لايبالي بسوى كتاب صلاته ، وسرعان مانشأت بينهما صداقة بل قرابة روحية ! وطفق العجوز يشكو الى الراهب حمق الناس وابتعادهم عن الله تعالى وتكالبهم على النعم الدنيوية الزائلة ، فرد عليه الكاهن الورع بفصل من الزبور ، وآخر من رسائل القديس بولس . ووصلت الباخرة الى مرسيليا ولم يشعرا بزوال الوقت

وسافرا معاً على باخرة ثانية الى نيويورك ، وسكنا مقصورة واحدة ، وتابعا حياتهما الاولى : الكاهن التقي يقرأ في الكتب المقدسة والمهندس العجوز يصغي الى قراءتـه والدموع تهمل من عينيه ، واستقبح هذه الدنيا الزائلة فقال في نفسه : ماهو وزن العالم باسره مقابل كلمة واحدة من فم هذا الراهب القديس ؟

ووجد دارسي وجهاً للشبه بين حياته في صحارى ايرانه وحياة رفيقه في مجاهل افريقيا ، غير انه غص في التشبيه وغبط الراهب على

خسرانه الصحة والشباب في خدمة السيد المسيح والتبشير بتعاليمه السماوية ، وهو اذاب الصحة والشباب في الحصول على امتياز النفط وأخيراً ... باح لرفيقه بما يخالج قلبه من آلام

وكانت الباخرة على بعد ساعات من مرفأ نيويورك ، والرفيقان على وشك الافتراق ، فطلب الشيخ من صديقه نصحاً يبنيه على فكرة خدمة السيد المسيح ، فاظهر الكاهن اضطراباً ، وفكر ملياً ، ثم لمعت عيناه كأن وحياً سماوياً هبط عليه ، وقال له : « حول امتيازك الى احدى بعثات المبشرين ، فيذهب هؤلاء الى ايران على انهم موظفو شركة صناعية لاستخراج النفط ولكنهم يكونون في الواقع مبشرين بتعاليم الدين المسيحي ، اي منفذين الهدف الذي تصبو اليه ! »

وقبل ان ترسو الباخرة في مرفأ نيويورك، حول دارسي امتيازه باسم رفيقه (١)

ونزلا الى البر ، فأسرع الكاهن الى دائرة البرق وطير هذه البرقية :

« لندن ــ دوتنغ ستريت رقم ١٠
« لاجل الامير . تم التوفيق ــ سيدني »

وشرح البرقية : « لندرة ــ دائرة الانتلجانس سرفيس ــ بلغوا الاميرال ان امتياز دارسي اصبح في حوزة الحكومة البريطانية
سيدني »

---

(١) يذهب دافنبورت و كوك في كتابهما مذهباً آخر في انتقال

ولم يكن سيدني ، الراهب الورع ، الا موظفا يهودياً في دائرة التجسس البريطانية !

الامتياز من دارسي الى الشركة التي خلفته ، لم يشيرا فيه الى حادثة التجسس بل يقولان ما معناه : (الفصل ١ و ٢ و٣)

« ... وفي سنة ١٩٠٠ كان احد الانكليز واسمه وليم نوكس دارسي يبحث عن النفط في صحراء ايران الجنوبية فاكتشف في مكان قصي — في منطقة قصر شيرين في ولاية كرمنشاه — اباراً غزيرة ولكنه وجد انه لا يستطيع الانتفاع منها تجاريا لبعد المسافة بينها وبين العالم فادركه اليأس وكاد ينقطع عن العمل لو لم يتداركه حسن الطالع ويجمعه بزميل له اعلمه انه قد عثر على ينابيع نفطية في اكام البختياريين .

« وفي نوار (مايس) من سنة ١٩٠١ حصل دارسي على امتياز عجيب من الشاه يخوله حق استغلال منطقة شاسعة تقدر مساحتها بخمسماية الف ميل مربع من المملكة الفارسية طيلة ستين سنة ، وقد استثني خمس مناطق لا يحق له استغلالها وهي ولايات ازربيجان وجيلان ومازندان واستراباد وخراسان ، واحتفظت حكومة الشاه لنفسها بحصة من الارباح ، ثم تألفت بعدسنتين شركة ثانية لاستغلال ميل واحد يسمى اليوم بميدان النفط . ولما كانت تلك الاراضي واقعة بين املاك القبائل البختيارية فقد رأت الشركة من الحكمة تخصيص

ثلاثة من المئة من الارباح توزعها على رجال تلك العشيرة ليضمنوا لها الهدوء اللازم ... وكان ذلك الامتياز فاتحة قضية النفط في الشرق

« وفي ٢١ ت ١ (اكتوبر) ١٩٠٤ اسندت وزارة البحر الى اللورد فيشر فصرف الوزير الجديد عنايته الى ترويج فكرته التي كان ينادي بها منذ سنة ١٨٨٠ (ارجع الى التعليق ص ٤٠) وحصر اهتمامه في تأييدها وتوسيعها . ويؤثر عنه انه كان يبدي نشاطاً عظيما واستعداداً قوياً لمحاربة المانيا ويقول : « ان استخدام النفط قد زاد على قوة الملاحة البريطانية ٣٣ في المئة ، وباستطاعتنا ان نخزن منه ملايين الاطنان ولا نخشى عليه التلف او فقدان ميزاته ، وما نحصل علية من البخار بوقد طن من النفط لا نحصل عليه الا بوقد طنين من الفحم »

« وبدأ اللورد فيشر عهده بمقارعة شيوخ الملاحة ورجال السياسة المتعصبين للفحم وحملهم على احترام دعاوته القوية التي كان شعارها : « استعدوا لحرب النفط ! » وكان يردد دائماً : « ابنوا الاحواض لخزن النفط ! »

« وما زال اللورد في جهاده ، وسيعده التاريخ اول محرض لبريطانيا على وضع سياسة خاصة بالنفط ، حتى استقال في ١٠ ك ٢ (يناير) ١٩١٠ من الوزارة ولكنه ظل « لحسن الحظ ! » كما يقول المؤلفان محتفظاً بعضويته في « لجنة الدفاع الامبراطورية » وهو يروي

في مذكراته كيف هبط عليه في شهر نوار (مايو) سنة ١٩١٢ في مدينة نابولي رئيس الوزارة الانكليزية المستر اسكويث ووزير البحر المستر تشرشل ، ليحدثاه عن سياسة الحكومة النفطيـة ووجوب تأليف لجنة ملكية يطلق عليها اسم : « لجنة النفط لتموين الاسطول» ، وانهما « رشواه » برئاسة تلك اللجنة بعـد ان كان قد اعتزم اعتزال السياسة ، فقبل بالمهمة الجديدة لانه يشارك زائريه رأيهما في ان الحرب المقبلة ستقع بسبب النفط

« وقد وضـع المستر تشرشل برنامج العمل للجنة الجديدة ، طالباً منها ان تبحث عن امكنة النفط وتبين للحكومة وسائل خزنه باقل النفقات وشرائه بطريقة منتظمة واسعـار بخسة في ايام السلم ، وبطريقة مضمونة ضماناً كافياً في ساعات الحرب . وتكون اللجنة استشارية لا تنفيذية ، تحصر مهمتها في جمع الحقائق والادلاء بالاراء ولكن لا يطلب من اعضائها تنفيـذ شيء ولا التحكم في السياسة الانكليزية التي ترى الحكومة اتباعها في هذا الصدد ... » الخ

وهذه اللجنة ألفت شركة انكليزية بحت ، لشراء امتياز دارسي

ويميل ايمار (ص ١٩٨) الى تأييد رواية دافنبورت و كوك ولكنه يقول ان دارسي طلب من اللورد فيشر رأساً مساعـدته في استغلال امتيازه « اذ يئس من مساعدة الجمعيات التي أمدته بالمال في تجاربه الاولى التي فشل فيها فعرض عليه بعض الاميركيين شراء

امتيازه وكان ذلك في سنة ١٩٠٨

ولم يكن له بد من القبول ليخرج من مأزقه الحرج ولكنه رأى ان يراجع اللورد فيشر الذي كان يسنده ويحميه فقابله واتفق الاثنان على وجوب الاحتفاظ بالامتياز ليظل نفط ايران تحت الرقابة البريطانية واوعز اللورد فيشر الى شركة بورماه اويل التي كان يسيطر عليها بان تهتم بامتياز دارسي فارصدت المال المطلوب . وانشئت شركة جديدة على الاثر لهذه الغاية دعيت شركة النفط الانكليزية الفارسية « انكلوبرشيان اويل كومباني » فبدأت الشركة عملها بنشاط ورافقها التوفيق ولكن النفقات الباهظة التي بذلتها في انشاء الاحواض ومد الانابيب وحفر الابار والتفتيش عن المنابع اضطرها لان تنفق رأسمالها . وكان المستر تشرشل في تلك الاثناء وزير الملاحة البريطانية وهو من افذاذ الامبراطورية في نهضتها البحرية فعطف على الشركة واوفد لجنة من الخبيرين لدرس طبقات الارض المشمولة بامتياز دارسي فكان الجواب بان الارض تغطي اعظم منابع نفطية في العالم فقرر الوزير منح الشركة جميع المساعدات المادية والادبية وعقد معها اتفاقاً لقاء ذلك تعهدت الشركة بموجبه بتموين الملاحة البريطانية بالنفط والاعتراف لها بحق الافضلية في الشراء . » اه

نقول : بل ان امارة البحر اشترت اكثر من نصف اسهم الشركة فاصبحت ملكاً لها وسنفصل ذلك في الصفحات الاتية .

سيرة العالم

في قلب لندن عاصمة الانكليز ، في شارع دوننغ (دوننغ ستريت (١)) ، تقوم بناية ضخمة الجدران ، عالية الاركان ، يدل

(١) اطلق هذا الاسم على الشارع المذكور تخليداً لاسم الوزير والسياسي الانكليزي النبيه ، السير جورج دوننغ (١٦٢٣ - ١٦٨٤) ، الذي كان من ابطال الثورة على الملك كارلوس الاول ومن قواد جيش كرمويل . وقد عينته حكومة الثورة سفيراً في لاهاي عاصمة هولندا ، وانتدبته ليعمل على توحيد صفوف خصوم الكثلكة وان يراقب حركات الملكيين الهاربين من انكلترة الى تلك العاصمة ، ويكشف عن اهل الريبة منهم ويتجسس بواطن التجارة الهولندية التي كانت تزاحم تجارة بلاده . وبعد رجوعه اقطعته حكومته ارضاً في محلة هويتهول ، حيث يقوم اليوم الشارع المعروف باسمه والموجود فيه مركز التجسس البريطاني . ولعل تسمية ذاك الطريق باسم دوننغ ، وتشييد بناية « الانتلجانس سرفيس » فيه ، هو من باب « اذكروا موتاكم بالخير » و « ان آثارنا تدل علينا » !...

مظهرها على مركز شركة من شركات التامين على الحياة . وهي في الواقع شركة تأمين ، ولكن على حياة الجماهير والشعوب والبلدان والقارات ، لا على حياة الافراد ... تلك البناية هي مقر سيدة العالم ، المعروفة باسم « الانتلجانس سرفيس » ، او دائرة التجسس البريطاني .

هي مستقلة كل الاستقلال عن الحكومة الانكليزية باعمالها وسياستها وموظفيها ، لها موازنة خاصة واملاك خاصة ، وتملك اسهماً في مشاريع رأسمالية دولية ضخمة ... وتسيطر على مصارف ومصانع ومزارع وشركات عظيمة في سائر انحاء المعمور ، وتملك في المستعمرات الانكليزية اراضي شاسعة ، ويقال ان نصف المستعمرات هي ملكها الخاص ، فليس من العجب ان نراها تدير سياسة الامبراطورية وتضع خطط حكوماتها ومناهجها ، وان تكون صاحبة القول الفصل في اي اصطدام بين سياستها وسياسة احدى الدوائر الوزارية .

وعمال « الانتلجانس سرفيس » مجهولون من الحكومة ، بل مجهولون بعضهم من بعض لايعرف احدهم الآخر . وقد يكون لها موظف في بيروت فيقضي عشر سنوات فيها ويظل مجهولا من القنصلية الانكليزية لايقترب منها الا عند مسيس الحاجة « الرسمية » اليها ، كالتأشير على جواز سفر ، او تسجيل عقد ، او غير ذلك ، وتعتقد القنصلية انه سائح ، او عالم من علماء الآثار ، او مهندس شركة ميكانيكية ، او تاجر سيارات ، او ممثل مصنع جوخ ، او ... راهب

من رهابين البعثات التبشيرية، ويكون في الواقع احد عمـال دائرة التجسس !

ولقد اجمع الكتاب السياسيون في اوروبا واميركا على القول بان « الانتلجانس سرفيس » هي اعظم مؤسسة عالمية في قوتها ونفوذها وتنظيمها وتحقيق اهدافها، لانها تضم إليها ادهى رجال الدنيا واوسعهم ثروة واشدهم عزيمة . وكتب الكثيرون الفصول المدهشة والكتب التاريخية والروايات المستغربة عن اعمـالها ، وذهبوا في القول بان ارادتها هي الفعالة في توجيه مرامي السياسة البريطانية الى حيث تشاء ، لان لها فروعاً في كل وزارة ، وفي هـذه الفروع رجال اخصائيون ملمون بكل شاردة وواردة من شؤونها : ففي وزارة الخارجية دائرة خاصة بالتجسس ، وفي وزارة المستعمرات دائرة ثانية ، وفي وزارة الداخلية دائرة ثالثة ، وفي وزارة الحرب دائرة رابعة ، وفي وزارات البحر والطيران والتجارة والمال والعـدل دوائر خاصة ، وفي كل دائرة حكومية اثر منها ... وجميع هذه الفروع متصلة اتصالا وثيقاً بالوزارات القائمة فيها ، فلا يقوم وزير بعمل ما قبل استشارة فرع التجسس في وزارته ، — هي المستشار « المعهود » ايهـا القارىء الشرقي !... — ولكنها جميعها مربوطة بادارة التجسس العليا، ترجع اليها في كل امر، وتستوحيها كل عمل ، مما يؤدي حتما الى « تمركز »

سياسة الحكومة كلها في قبضة الدائرة العليا ، وقل المفوضية العليا ، فلا عجب ان تكون الطور مبعث الوحي ، وان تكون ارادتها الاولى والاخيرة في تسيير دفة الامبراطورية البريطانية .

ولا ريب بأن لازدهار جزيرة انكلترة ونموها علاقة محكمة الارتباط بدائرة دوتنغ ستريت (١) . اذ انهما مشيا جنباً الى جنب في العظمة والتبسط ، فصارت انكلترة ، وهي الجزيرة الصغيرة ، اعظم دولة في العالم بمساعي تلك الدائرة واعمالها ، واصبحت هي اعظم مؤسسة في العالم بفضل ماوصلت اليه انكلترة من سمو الشأن والسلطان . وقد عرفت الدول اهمية التجسس وفضله على كيان الامم ، فاعتنت به وارصدت الثروات الطائلة لتنظيمه وتعزيزه ، ولكنها قصرت جميعها

---

(١) اعتاد الكتاب السياسيون في اوربا ان يشيروا الى وزارة الخارجية الانكليزية بكلمة « دوتنغ ستريت » ، لانها قائمة في هذا الشارع ، كما يشيرون الى وزارة الخارجية الافرنسية بكلمة « كي دورسي » لانها كائنة في الرصيف المسمى بهذا الاسم . وقد حذا الكتاب الاميركيون والشرقيون حذو الاوربين في هذه التسمية ، وبما اننا نكتب هذا الفصل عن دائرة « الانتلجانس سرفيس » ، فقد اشرنا اليها مراراً بكلمة « دوتنغ ستريت » لانها هي ايضاً موجودة في هذا الشارع — رقم ١٠ — ولانها احق بهذه التسمية « النسبية » واولى من وزارة الخارجية

عن استظهار الصفحة الاولى من مجلد الانتلجانس سرفيس . لان للانكليز ذهنية فريدة في فهم الحياة ، وليس منهم من يستنكف عن القيام باية مهمة تنتدبه اليها تلك الدائرة التي جعلت شعارها هذا القول : « ان الجاسوس الذي يموت في سبيل بلاده لهو جندي يصرعه العدو في ميدان الشرف » ! (١)

يقول المؤرخون ان الملك هنريكوس السابع هو الذي اسس في القرن السادس عشر دائرة التجسس ، وحذا حلفاؤه حذوه في تنميتها والعناية بها الى ان كانت الثورة الشعبية التي هزت انكلترا وقلبتها راساً على عقب ، وكان بطلها المقدام اوليفيه كروموبل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) في قطع رأس الملك كارلوس الاول ، فبذل زعيم الثورة جهداً عظيما لتنظيم التجسس ورصد حركات الاعداء في داخل المملكة وخارجها ، وصرف عنايته الى جعل الانتلجانس سرفيس ركن الدولة الركين ، فعظم شأنها وسما نفوذها ، وصارت سيدة البلاد تدين لها الرقاب .

ويؤكد العالمون بالامر أن لدائرة التجسس البريطانية عمالا من الاجانب في الحكومات الاجنبية وسفاراتها ودور قناصلها ، في كل بقعة من بقاع الدنيا ، مما جعل حكومة لندره اعلم الحكومات بشؤون العالم واسرار الدول ، لأن رسلها موجودون في كل زاوية ،

(١) بوكار .

يراقبون مجرى الحوادث العالمية وتطور الحركات الشعبية والوطنية والقومية ، ويسهرون على الازمات السياسية والاقتصادية والنفسية في كل بلد ، حتى قيل ان بناية دوتنغ ستريت تعرف حوادث العالم قبل وقوعها !... (١)

اما الصحف التي تملكها سلطانة الدنيا في البلدان الاجنبية فتعد بعشرات الالوف ، وكل منها مؤسسة لهدف خاص . وبعض هذه الصحف تجهل انها تخدم التجسس البريطاني ، بل تجهل ان المساعدات التي تأتيها من ذلك المصرف او الحزب ، او تلك الشركة والجمعية ، انما هي من اموال بناية دوتنغ ستريت . وما هذه المؤسسات الاقتصادية والسياسية ، اكانت مصرفاً او حزباً او شركة او جمعية خيرية ، الا واسطة لعمال الانتلجانس سرفيس ليمدوا نفوذهم وخططهم الى كل مكان .

ويشترط في هؤلاء العمال ان يعيشوا لمهنتهم ، اي ان يكونوا «فنيين» و «هواة» معاً ، بل كما نقول في لبنان باللغة العامية : «ارباب كار»

---

(١) يبلغ عدد موظفيها ثلاثمائة الف عامل في انحاء العالم . وقد ذكرت جريدة «التيمس» ان دائرة الانتلجانس سرفيس «تسحب» من موازنة الحكومة الانكليزية اكثر من ثلاثة مليارات فرنك سنوياً . وبالرغم من وجود خمسة ملايين عامل باهل (بلا عمل) ، لم يرتفع صوت بالاحتجاج على ذلك التصرف — لابورت : ص ٥١ و ٩٥ .

ولا يقبل للتجسس الا من كان شديد الذكاء ، دقيق الملاحظة ، ثبت الجنان ، جريئاً ، صبوراً ، قوي البنيـة ، يحتمل الاوصاب والمكاره ويجالد الاخطار والمماكسات. ويمتـاز عمال التجسس السياسي في الخارج ، ارجالا كانوا ام نساء ، بنصيب وفير من الجمال الفتان وقوة الاغواء واناقة اللباس وفصاحة النطق، لانهم يرتادون القصور ويخالطون الطبقات « العالية ! » ، ويراقصون السفيرات والوزيرات والرئيسات ، واعكس : فأنث الفاعل وذكر المفعول به ، كما عكست آية الطبيعة في هـذه الايام ! ... وقل : يرتدن ويخالطن ويراقصن السفراء والوزراء والرؤساء !

الصق بعض الكتاب الاوروبيين والاميركيين اشنع التهم بالانتلجانس سرفيس ، ونسبوا اليها كل فرية ، وقالوا عنها انها كانت في الجزيرة البشرية الاخيرة تبيع الالمان الذخائر الحربية وتموّنهم بالنفط والاغذية مما سبب اطالة ايام الحرب الفظيعة . ولو لم تتعمد التجارة وربح الذهب واكتساب الثروات الطائلة لكانت المجزرة قد انتهت منذ السنة الاولى. ويقول امير البحر الانكليزي و.ب. كونست في هذا الصدد : « ان تجارتنا الحقيرة ، المخجلة ، كانت من الاهمية بمكان في اطالة الحرب ، وها هو العالم اليوم ، وقد مضت خمس سنوات على خروجه منها ، يئن من نتائج تلك البلية » (١) .

(١) W. P. Consett — رواه بوكار ، ص ٢٦٥ .

والشرق يعرف من سيدة العالم ما لم يعرفه سواه ، فعمالها المحترمون سيطرون على كل قطر من اقطاره ، وفي جميع النواحي ، ولكن خططهم متناقضة المظاهر والنزعات ، متفقة النتائج والغايات في خدمة لامبراطورية البريطانية . هذا عمنا الحاج فيلبي ، نفعنا الله بصلواته بركاته ، يقارع الهاشميين احفاد رسول الله في الحجاز ، ويقدح زناد الدعاوة الجمهورية في العراق ، ثم يؤمن بالوهابية ويظاهر سيدها في نجد ، ويكتب المقالات العنيفة في التيمس مهاجماً سياسة فيصل بن الحسين ، عاطفاً على سياسة عبد العزيز بن سعود . وذاك لورنس يخاصم زميله فيلبي ويؤيد الهاشميين ويدافع عنهم ، وينزع من صدره وسام فكتوريا ثائراً باكياً ، لان حكومته تريد نكث عهدها لابطال الثورة القومية . وفي الحالين تبرم العهد بينها وبين العرب المتعادين ، لتمد اصابعها وتبسط نفوذها في اقطارهم !

ولقد كان للانتلجانس سرفيس شأن — ولا يزال ؟ — في سوريا ، نشر بعض فصوله الكاتب الفرنسي بيار بنوا في روايته « سيدة قصر لبنان » ، وشكا من لواذعه دي غونتو بيرون في كتابه المسمى « كيف استقرت فرنسا في سوريا » ، وردد النواب صداه في مجلسهم بباريس . لكن الثاقفة ظلت وتظل ماشية . وها انت ترى اولئك العمال يحاربون الاحتلال الافرنسي في بلادنا ويضربونه على رأسه الضرب المميت ، وفي الوقت عينه يمدون اليه يد التحالف والتضامن ، فيمنعون —

اي تمنع حكومتهم — الثوار السوريين من ورود الماء في واد تحت نفوذهم ، او الالتجاء الى مستشفى للمعالجة في بلد مشمول بانتدابهم وحمايتهم !!

ومما يروى عنهم في مصر انه كانت لهم يد في انشاء الجمعيات السرية التي كانت تقوم باعمال فوضوية بين وقت وآخر ، فتقتل بعض الاشخاص البارزين لخلق الازمات السياسية ، وترمي القنابل على القصور لاشغال الرأي العام في حوادث الارهاب عند ماتكون « السياسة ... » بحاجة الى العمل باطمئنان وراحة بال . ولست اذكر اي كاتب اتهمهم بانهم كانوا يغذون عصابات الارهاب السرية بالمال والتشجيع ، وان احدى هذه العصابات هي التي قتلت السردار لي ستاك باشا ، حاكم السودان ، اذ كان في القاهرة ، في ١٩ ت٢ (نوفمبر) ١٩٢٤ ، مما ادى الى الانذار البريطاني القاسي الذي رفضه رئيس الحكومة الوطنية سعد زغلول فاستقال وتعطلت الحياة النيابية في مصر (١)

(١) يقول ذلك الكاتب ان عمال الانتلجانس سرفيس كانوا يسعون لخلق الفوضى وتعكير الامن في مصر ، بعد استلام الوفد زمام الحكم ومحاولته تحرير الدوائر الحكومية من جيش الموظفين الانكليز ، فغذوا الجمعيات السرية بالمال لاحداث الارهاب الفوضوي مما يشوه سمعة الحكم الوطني المصري في اوربا ، وقال ان غاية الجمعية التي اغتالت السردار كانت محصورة في التعدي على الاجانب عموما

ولعمال الانتلجانس سرفيس في العراق وايران واليمن والافغان والحجاز حوادث تاريخية لم يكشف القناع عنها كلها حتى اليوم. ولكن الثابت منها يؤكد انهم لم يكونوا اغراباً عن سلوك الشاه احمد قاجار

لحمل قناصل الدول على الاحتجاج والاشمئزاز من حكم الوفد ولكن انضمام وطني متطرف مثقف، كالنائب شفيق منصور، الى تلك الجمعية اخرجها من الغاية التي شجعها عليها عمال الانتلجانس سرفيس الى اهداف وطنية متطرفة » ... وفي قول ذلك الكاتب ان « السياسة... تشغل الرأي العام وتلهيه عنها بحوادث طارئة عندما تكون بحاجة الى العمل براحة بال واطمئنان » حقيقة مؤلمة ايدتها الايام حتى في هذه « الجمهورية » اللبنانية البائسة . وليذكر اللبنانيون « اعظم » الاعمال التي قام بها الخواجا شارل الدباس يجد انهـا تمت في فترة « الفضائح » التي اقامت البلاد واقعدتهـا وملاءت سجن الرملة من الموظفين « البلديين » واشغلت الرأي العام والهته عن الاعمال التي كانت تقوم بتنفيذها « حكومة الاصلاح ! » في هدؤ جزويتي ، ولمـا سكنت عاصفة الفضائح واطلق اللبنانيون من سكوتها ، وخرج المتهمون من سجونهم ابرياء ، كان « رسول الاصلاح ! » قـد تصرف بموازنة الحكومة على ما تشتهي الشركات الاجنبية ، وهيأ طبخة تعديـل الدستور بجعل الدولة في قبضة المستشارين ، والطعن بالحكم الوطني وتشويه سمعته في جنيف !...

و خلع الملك المصلح ، امان الله ، وتنزل الملك حسين ، زعيم الثورة القومية عن العرش العربي . بل كانوا في تلك الحوادث بمظاهر منوعة ، فنهم من كان يشغل منصب مستشار لاحد الملوك المخلوعين، ومنهم من كان مدير مصرف ، وآخر تاجر سيارات ، وآخر مهندساً زراعياً او عالماً أثرياً يحفر في النهار بطن الارض، ويمهد في الليل لتنفيذ مؤامرته ...

ولقد كان صاحبنا الراهب الورع ، الذي ظهر على الباخرة في رفقة العجوز وليم دارسي بثوب القديس ، العامل في حقل السيد المسيح، موظفاً في الانتلجانس سرفيس ويهودياً يدعى روزن بلوم ، ثم اشتهر باسم سيدني ريلي . ويروي عنه الكاتب النمساوي انطون زيخكا مطوحات تشبه الروايات الخيالية : فقد فتح امتياز دارسي امامه ابواب الحكومات الامبراطورية البريطانية ، وصار مكمن ثقة الوزراء والحكام والزعماء ، وبطل المهمات السرية والمغامرات الخطيرة واصبح الساعد الايمن للوزير ونستن تشرشل في تحقيق سياسته النفطية التي خلقت عظمة الملاحة الانكليزية الحديثة وجعلته اعظم الاخصائيين بشؤون النفط بين كبار الوزراء في العالم. وللجاسوس ريلي تاريخ في انشاء الامبراطورية البريطانية وفي سنوات المجزرة البشرية ، يصفه زيخكا بالرهيب ... وقد كان مع الكابتن هيل على رأس بعثة التجسس في روسيا يوم اندلعت الثورة الشيوعية فيها، ومن

ادهش الامور التي لم يكشف القناع عنها حتى الان ، « وفاة » هذا الداهية سنة ١٩٢٦ او اختفاؤه باسباب غامضة . وتوارى ، كما ظهر يوم سافر مع دارسي، بسكون !

ومما يذكر في هذا الصدد ان سيدني ريلي او روزن بلوم او الراهب الورع ، لم يكن كثير النزاهة والامانة في تلك المهمة ، لانه فاوض في نيويورك شركة النفط الاميركية، « ستاندارد اويل » ، ليبيع منها الامتياز ، فلم يوفق . وقد فضحت هذه المفاوضة في سنة ١٩٠٨ عند ما بدأت الحملة لانتخاب رئيس الولايات المتحدة ، فأثار الصحفي الاميركي الاشهر هيرست حرباً على الحزب الجمهوري، واتهم شركة ستنداود بانها تسخر سياسة الحكومة في الداخل والخارج لتأمين احتكارها ومطامعها . وكان هيرست قد حصل على بعض المكاتبات السرية بين وكيل مدير الشركة يومئذ ، المستر جوهن د. ارشبولد، وبين اعضاء من مجلس الشيوخ الاعلى تثبت سيطرة الشركة على المحاكم والقضاة والنواب والوزراء وندوة التشريع . فنشر الصحفي صوراً فوتوغرافية عنها اسخطت الرأي العام الاميركي واثارت اهتمام الصحافة في العالم . اما حصول هيرست على تلك الرسائل فكان بواسطة خادمين من حجاب الشركة اخذا يبيتان في الادارة، ويفتحان ادراج المدير ليلا وينسخان او يصوران الكتب السرية الموجودة فيها.

وكان بين تلك الرسائل كتاب بتوقيع روزن بلوم يعلم فيه شركة

ستتداركه ما كان من المساعي لطرد دارسي من ايران ومنعه من استغلال امتيازه. ويذكر لها اسماء معينة وارقاما وتواريخ وتفاصيل مستفيضة عن تأسيس الحكومة الانكليزية لشركة « انكلو برشيان » التي سيطرت على امتياز دارسي. ولما شاهد الخادمان ما كان لنشر تلك الرسائل من وقع شديد في اميركا ، طمعا بنوال اجزل في بيع كتاب روزن باوم من الحكومة الانكليزية لانه يتعلق بها وبسياستها النفطية مباشرة ، فلم ينشراه في صحف هيرست ، بل حاولا مفاوضة لندره فكتبا الى امارة البحر ، ثم الى الانتلجانس سرفيس ، ثم الى شركة الانكلو برشيان ، ولكنهما لم ينجحا في ما كانا يصبوان اليه من ثمن عظيم.

ويروى ان روزن باوم ، او سيدني ريلي ، او كاهن دارسي قد « سافر... » من هذه الدنيا كما يسافر كل زميل له يخون الانتلجانس سرفيس ، ولم يقل له رؤساؤه كلمة عن خيانته ...

ولكن مهما قيل في هذه الدائرة الجبارة ، ونسب الى موظفيها من اعمال خارجة على القوانين ومبادىء الحق والعدل ، فانها تستطيع الزعم بانها دعامة متينة في انشاء الامبراطورية البريطانية التي لا تغرب الشمس عن املاكها.

وقد علمتنا الحوادث والتجاريب ان دول الغرب الاستعمارية واحدة الهدف في السيطرة والاستعمار ، وان اختلفت الاساليب في تحقيق

تلك السيطرة وهذا الاستعمار، وانها جميعها تقتل الابرياء وتدمر المدن المفتوحة (غير المحصنة) ، وتعلن احكام الارهاب والتفظيع عندما يهدد الضعاف استعمارها بالتفكيك، فاذا سمعنا الكتاب الغربيين يتهمون دائرة التجسس البريطاني بارتكاب افظع الجرائم وموبقات الغدر ، فقد نجاريهم في تصديق اقوالهم . ولكننا لا نصدق ان مصدر انتقادهم هو الاحتجاج والاشمئزاز والتبرؤ من تلك الجرائم والموبقات، بل نعلم انه تشهير وحسد ، وانهم لو استطاعوا ان يأتوا باعمال الانتلجانس سرفيس — حتى في الجرائم التي ينسبونها اليها — لما عفوا !



وباء النزل للاجنبي

لنرجع بالذاكرة قليلا الى ايران، الى مهد الفنون الخالدة، وبلاد المجوس والاكاسرة التي امتد سلطانها على اكثر الشرق : من الهند الى الحبشة — لنرجع الى البلاد التي تعد اغنى بلدان العالم بتربتها الذهبية ، اذ جرت وتجري انهار النفط تحت ارضها بغزارة لا يتخيلها العقل البشري :

تدنت «معنويات» الايرانيين ، كشعب مستقل ، في القرن الاخير حتى الاسفاف ، وفقدوا «الحيوية» الانسانية بعد ان كانوا ورثة اعظم مدنيــة وحضارة في التاريخ القديم. ولسيرة الشاهات وسلوكهم اكبر تأثير في ذلك الانحطاط فقد اهملوا شأن المملكة ، منصرفين الى ملاذهم ،وعم الجهل وانتشرت الفوضى في الاخلاق والضمائر والتربية فدان الشعب المسكين بخطة الشاه واكثر الوزراء والزعماء من رؤساء الدين — والناس على دين ملوكهم — واجاز القائمون بالامر للاجانب حريات وحقوقاً حرموها على الرعية فباتت البلاد ملعباً للدسائس ومسرحاً للمطامع، واستباحها الاقوياء وجعلوها مناطق لنفوذهم على المكشوف

وتقع ايران بين الاستعمارين الاجشعين: استعمار الانكليز الاسود في الهند، واستعمار القيصر الوحشي في القوقاس وكان الاثنان يتطاحنان

في كل مكان تطاحن المستميت : في الشرق والغرب ، في الارض وعلى الماء ، ولا سبيل لهما الى السماء ، ولو وجدا في الجحيم منفذاً الى الاستعمار لتسابقا اليها وازعجا « اصدقاءهما » فيها !

وكان التطاحن بين الدب الابيض والاسد الانكليزي على اشده في الشرق — لا يغضبن أحد لتفاضل « متواضع » في اللقب بين الدب والاسد ، فكلاهما من ... غير ذرية آدم ! — وكان طبيعياً ان يصطدما في ايران ، لان على حدودها الجنوبية تربض طلائع الجيش الانكليزي ، وعلى الشمالية تتأهب طلائع جيش القيصر ، وغاية الانكليز الاولى لن « يراقبوا » تلك البلاد ويمدوا سلطانهم اليها ليمنعوا الروس من التبسط في آسيا الوسطى خوفاً على الهند منهم — والهند خبز الانكليز وماؤهم وهواؤهم — وليقربوا من القوقاس ويستولوا على اغنى بقاع الدنيا . وكان الروس « يراقبون » هم ايضاً بلاد الفرس ليبعدوا خطر الانكليز عن القوقاس وليحتفظوا بسلطانهم في آسيا الوسطى . ولسنا الان لنعرض لذلك التاريخ « النزيه » في حياة الاستعمار ، ولكننا نطل عليه سراعاً لنصل الى ما يهم موضوعنا منه :

طال التطاحن بين الانكليز والروس في ايران سنوات كثيرة ، وكانت البلاد وازحة تحت ظلم العرش باسم القانون ، وتحت نير المستعمرين الاجانب بالقوة ، فشرد الاحرار من وطنهم ، وطوردوا في كل مكان ، وباتت الكرامة القومية عرضة الارهاق والتنكيل .

وخنقت الحريات جميعها ، ومات القانون والحق ، وتولت الرشوة القضاء في الناس ، واصبح الحكم المطلق لعصبة البلاط في الشؤون العادية التافهة ، ولممثلي الاستعمارين الانكليزي والروسي في الشؤون الجدية الخطيرة . وكان التطاحن بين الاستعمارين يزداد شأناً كلما ازدادت حيوية البلاد الوطنية ضعفاً ، الى ان كانت سنة ١٩٠٤ فتبدل الاتجاه السياسي في اوروبا تبدلا ظاهراً ، وكانت فرنسا تسعى اليه بحنكة ودهاء فتمكنت من التقريب بين مطامح الانكليز والروس لرد خطر التبسط الجرماني عن الجميع ، واعلنت حكومتا لندره وبطرسبرج « هدنة » في الشرق اذ صارت بريطانيا بحاجة الى مساعدة روسيا على المانيا التي بدأت تهدد سيدة البحار ، وكانت حكومة القيصر قلقة من امتداد نفوذ النمسا والمجر في البلقان ، خائرة القوى مما اضنتها به حرب اليابان ، فانشىء التفاهم المثلث بين الروس والفرنسيس والانكليز ، وفي سنة ١٩٠٧ تم الاتفاق والتعاهد بين حكومتي لندره وبطرسبرج على تجزئة ايران الى « مناطق نفوذ » : احداهـا في الشمال تخضع لحكومة القيصر ، والثانية في الجنوب تخضع للملك الانكليز ، والثالثة حيادية بين الاثنتين ... وقـد جعلوها حيادية لا رحمة بشعبها واحتراماً لكرامتها ، بل خوفاً من الاصطدام المباشر بين الاستعمارين المتكالبين ، فدانت ايران للحكم الاجنبي علناً ، يمتص دماءها ويبتلع خيراتها ، وكشف الظلم عن وجهه فاذا الاجرام

الوحشي يدوخ تلك البلاد ، وحسبنا ان نذكر من حوادثه المخجلة اعدام الزعيم الديني الشهير ثقة الاسلام مع بعض اخوانه في تبريز يوم عاشوراء بلا محاكمة قانونية ، وسلخ ولاية ازربيجان الغنية بمعادن النفط عن ايران، واطلاق القنابل على مدينة مشهد ، وهي مكان مقدس عند الشيعة لان فيها ضريح الامام الرضا (ع) لتعلم اي توحش ساد ايران في ذلك العهد ! وتعلم اية سلطة كانت للانكليز والروس(١) ليستولوا على خيرات البلاد (٢) ويحتكروا امتيازات استغلالها

---

(١) وضعت تلك المعاهدة في ٣١ آب (اغوسطوس) ١٩٠٧ في بطرسبرج ووقع عليها السير ارثور نيكولسون سفير الملك ادوار السابع لدى بلاط القيصر والمسيو ايسفولسكي وزير الخارجية الروسية، ومن بنودها اعتراف الفريقين المتعاهدين بان ليس لاحدهما حق ما في بلاد « التيبت» واعتراف روسيا بالحماية الانكليزية على الافغان . ويقول ادوار غراي في هذا الصدد : (مذكراته : ص ١٦٠) ان الغاية الاساسية من المعاهدة تأمين حدود الهند ... وان الروس فسروا بنودها على ما تشتهي اهواؤهم ومطامعهم !

(٢) لويس فيشر الفصل الثامن

ما كاد امتياز دارسي يصل لى دوائر الحكومة البريطانيـة ، سواء أكانت دوائر التجسس ام امارة البحر ، حتى كشفت شركة « بورماه اويل » القناع عن وجهها (١) وانقلبت الى شركة جديدة باسم « انكلو برشيان اويل كومباني ليمتد ــ شركة النفط الانكليزية الايرانية المحدودة » تسعى الى تحقيق سياسة بريطانيـا النفطية ، وامتلاك الابار الخاصة وفقاً لمنهاج امارة البحر (٢) وقد تمكنت من

(١) راجع ص ٤١ (٢) يقول دافنبورت و كوك : ان لجنة النفط الملكية لتموين الاسطول (ارجع الى التعليق في ص ٥٠) بذلت جهداً عظيماً في تأسيس سياسة الحكومة النفطية ، وقد استشارت ، مع الذين استشارتهم في ذلك ، السير هنري ديتردينغ ـــ نابوليون النفط في العالم ـــ فادلى اليها باراء قيمة ومعلومات هامة عن وجود هذه المادة في رومانيا وروسيا وكليفورنيا واميركا الوسطى والمكسيك وايران والعراق ، ثم استطرد ديتردينغ كلامه الى اللجنة بقوله ناصحاً: « ولا ريب بان النفط هو اعجب السلع التي تعرض للبيع في اسواق العالم التجارية ، والشيء الوحيد الذي يعيقها هو الانتاج ، اذ ليس من سلعة لا ينقطع عنها الطلب في العالم كالنفط ، فانتجوه تجدوا من يستهلكه دوماً ... ولن تحتاجوا الى التفكير في قضية الاستهلاك لان النفط

الحصول على موافقة حكومة الشاه لاستثمار النفط والتفتيش عنه في الاراضي الايرانية الواقعة تحت النفوذ البريطاني ، ووافقت حكومة الشاه على ذلك بناء على رغبة حكومة لندن وتدخل سفيرها والحاحه في طهران (١) — وقد عرفت في الفصل السابق ما كانت عليه حقيقة الحال في ايران — وليس عجباً ان يظهر السفير الانكليزي تلك الرغبة باسم حكومته ما دامت الشركة تخص الانكليز ، ولكن العجب المدهش ان احداً لم يعرف بمصير اسمها ومقرها وحامليها ، لان المؤسسين ابقوا الاسهم بمعزل من البورصة وتسعيراتها الرسمية

يبيع ذاته دون حاجة الى تعاقد سابق ، ولكن جل ما انتم بحاجة اليه هو ان تقولوا لمن يرفض شراءه منكم انكم ستنفقون ملايين عديدة من الدنانير لبناء احواض جديدة تخزنون فيها النفط الجديد ، وان المعرضين عن الشراء سيضطرون في المستقبل الى دفع اثمان اغلى من الاثمان التي تطلبونها منهم الان لانهم بحاجة قصوى اليه ...»

وقد عمل اللورد فيشر ولجنته بنصيحة ديتردينغ ، وحضوا الانكليز على بناء الاحواض وشراء السائل الذهبي باسعار بخسة ، وخزنه فكانت نصيحة نابوليون النفط من امتن الدعائم التي اسس عليها اتفاق الحكومة الانكليزية وشركة الانكلو برشيان

(١) ابو ستول وميشلسون ص ٢٦

ولم يعلنوا حقيقتها الا قبيل الحرب ، اذ كان جو السياسة الاوروبية ملبداً بالغيوم السوداء ، وعاصفة المجزرة تنذر بالهبوب ، فاضطر وزير الملاحة ونستن تشرشل لان يطلب من النواب في مجلس العموم (٢) ان يقروا عمل الحكومة في شرائها الاسهم من الشركة ، بعد ان بسط لهم السياسة الجديدة التي عزمت الوزارة اتباعها في شؤون النفط لتأمين حاجات الامبراطورية والدفاع عن اراضيها في حالة الحرب . ولم يبح تشرشل يومئذ بانه ساعد تلك الشركة بمليوني دينار انكليزي حتى يبلغ رأسمالها اربعة ملايين وثمانماية الف دينار (٣) ولكن تطاحن شركات النفط بعد الحرب واضطرار حكومة صاحب الجلالة البريطانية لان تشد ازر « الانكلو برشيان » في مغامراتها ومطوحاتها ثم دفاعها عنها في جميع قضاياها العالمية والدولية ، كشف القناع عن حقيقتها ، وعرف الناس ان ستة وخمسين من المئة من اسهمها هي في حوزة امارة البحر ودائرة التجسس القابضتين على امتياز دارسي (٤)

---

(٢) في نوار (مايو) سنة ١٩١٤ (٣) زيخكا ص ٢٢ — (٤) في سنة ١٩٣٠ تناقش مجلس النواب الافرنسي في اتفاق نفط الموصل وقد كتب النائب شارلو مقرر لجنة المعادن في المجلس تقريراً مسهباً عن سياسة فرنسا النفطية وعلاقة الانكليز بها وقد اتى المقرر على ذكر الانكلو برشيان فقال : « ان خزانة الحكومة البريطانية هي اكبر

وكانت النتيجة المنطقية لهذه السياسة الجديدة التي اتبعتها الحكومة البريطانية ان اصبحت شركة الانكلوبرشيان مؤسسة حكومية «حرة» تؤثر في سياسة الدولة الداخلية والخارجية تأثيراً شديداً، مع احتفاظها بثوبها التجاري ونزعاتها المستقلة، فصارت ركناً ركيناً في تأسيس عظمة الامبراطورية «النفطية»، وانضمت اليها اموال ومؤسسات اجنبية كثيرة، وظلت تسعى الى هدفيها التجاري والحكومي معاً، وموظفو التاج البريطاني من اكبر امير الى اصغر صعلوك مسخرون في خدمتها الى ان اتخذت شكل دولة مستقلة (١) ... واذا كان كتاب الفرنجة ينسبون اليها الفضل العاطر في سد حاجات

مساهم في هذه الشركة فهي تحمل سبعة ملايين وخمساية الف سهم من مجموع ثلاثة عشر مليونا واربعماية وخمسة وعشرين الف سهم، اي انها تملك ٥٦ و ٠ من رأسمالها عدا الف سهم ذات تفضيل الخ ... ـ ايمار ص ١٩٦

(١) تأسست الانكلوبرشيان في ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ برأسمال قدره مليونا دينار وتم الاتفاق بينها وبين الحكومة الانكليزية على ان تمدها الثانية بمبلغ جديد قدره مليونان وثمانماية الف دينار انكليزي لقاء احتفاظ امارة البحر بمليون سهم من الاسهم الممتازة ولم يمض على تأسيسها ربع قرن حتى صار رأسمالها ثلاثة وعشرين مليوناً وتسعماية وخمسة وعشرين الف دينار انكليزي : اي انها كانت

بريطانيا الى المواد اللاهبة في سنوات المجزرة الرهيبة ، وانشاءعظمتها النفطية ، فان من واجبنا ان نشير الى « فضلها » الاعطر في المصير الذي وصل اليه العرب في بلدانهم المجزأة وسيادتهم الممزقة ، فقد كانت هذه الشركة «الكريمة» صاحبة اليد الفعالة والمشورة العليا في تقسيم الانتدابات على الاقطار العربية مما سنفصله في الصفحات الاتية



تزيد رأسمالها بما يقرب من مليون دينار سنوياً (فقط !...) ولما سيطرت الحكومة على اكثر اسهمها طلب اللورد فيشر ان يكون للحكومةحق الاشراف على سياستها ، وما زال يلح في الطلب حتى اضطرت للقبول ، فعينت الوزارة ثلاثةمن كبار الاخصائيين في شؤون النفطوالملاحة والاستعمار وهم المستر ستراثكوما واللورد انكاب وامير البحر سليد كمندوبين لها يمثلون امارة البحرفي مجلس أدارتها : واعطي لهؤلاء الثلاثة حق الاشراف على سياسة الانكلوبرشيان ورفض اي اقتراح يعرضه مجلس المديرين ويرونه لا يلائم سياسة الحكومةالعامة ، واحتفظت الشركة لنفسها بحق الاستقلال في شؤونها التجاريةالعادية دون مراجعة المندوبين الثلاثة

نفط العراق

عظم شأن النفط بعد ان احدث في الصناعة ثورة خطيرة قلبت انظمة العمل ، وبدلت شروط الحياة البشرية ، فاصيبت الدول ، ولا سيما الاستعمارية البحرية منها ، بظمأ اليه ، واضطرت جميعها لتأمين حاجاتها منه ، وهذه الحاجات حيوية لا يستغنى عنها ، سواءاً كانت في ميادين الاقتصاد ، ام الدفاع الوطني ، ام التبسط والاستعمار وراء البحار . فالفت الشركات بعثات للتفتيش عنه . واخذت كل دولة تمد شركاتها بالمال والنفوذ ، وتمهد لها السبل بالمفاوضات الدبلوماسية للحصول على امتيازاته ، وانبث المهندسون في الصحارى والجبال والاودية والشعاب ، وفي كل بقعة من بقاع الارض ، يدرسون انواع تربها ، ويستشمون روائحها لعلهم يفوزون باكسير الحياة . وكانت المانيا في مقدمة تلك الدول اهتماما للذهب الاسود لانها بلاد صناعية ولان غليوم‌ها المزدهي بالعظمة الجرمانية اعلن عزمه على تحدي بريطانيا في التبسط التجاري والتفوق البحري ، وقد قال في هذا الموضوع عبارة خالدة ، كانت السبب الاساسي للمجزرة البشرية الرهيبة: « ان مستقبل المانيا هو فوق البحار ! »

في تلك الاثناء ، وكانت السلطنة العثمانية الشامخة الذرى ، قد بدأت بالانهيار ، وسلخت عنها اكثر مقاطعاتها الاوربية والافريقية ، وبعض الاسيوية ، وامتد النفوذ الاجنبي الى قلبها يتأكل سيادتها

وينخر في استقلالها ، وتوغل المبشرون والتجار ، وجميع انواع « السماة » ، في بلدانها تحميهم « الامتيازات » ويشجعهم الحكم الاوتوقراطي المسيطر على الولايات العثمانية بجيوش الفوضى والارهاب والرشوة — في تلك الاثناء كان رسل النفطيين يجوبون ميادين الشرق ، في العراق وايران ، وسماسرتهم يتقربون من العرشين في الاستانة وطهران ، وسفراء الدول يؤيد كل منهم السمسار الذي ينتمي الى حكومته ، ويراقبه في مساعيه مستخدما نفوذ دولته للحصول على امتياز ، فاحتاط الداهية عبد الحميد للمستقبل . وقد فهم قبل غيره من « الهة » الشرق اهمية السائل الاسود ، فوضع يده على الاراضي النفطية في ولاية الموصل وحولها الى املاكه الخاصة بحجة « الاحتفاظ بها ومنع استملاكها من الاجانب ، وبقائها عثمانية للانتفاع بها في ترقية حالة البلاد » ، وقد دفع عبد الحميد يومئذ بعض المال لخزانة الدولة ثمناً لتلك الاراضي وبعث المهندسين والعمال للحفر فيها

وفي ٥ رجب سنة ١٣٠٦ (١٨٨٩) اصدر السلطان فرمانا شاهانياً حصر بموجبه منح الامتياز بالتفتيش عن النفط باسم الخزانة الخاصة ، اي بشخصه الخاص ، لان التشريع العثماني يحصر حق استثمار المعادن والمناجم على اختلاف انواعها باصحابها وحدهم ، وقد نص الفرمان المذكور على ما يأتي :

« بما ان بعض ينابيع النفط قد اكتشفت في املاكي الشاهانية
« الخاصة الموجودة في ولاية الموصل ، وسواء أكانت الينابيع
« في املاكي المذكورة ام في اراض غيرها في تلك الولاية ،
« فان اجازات التفتيش وامتيازات استثمار معادن النفط
« ينحصر حق منحها حصراً باتاً باسم الخزانة الشاهانية
« الخاصة » اه .

ظهر النفط في اراضي الموصل فظهر المتنافسون في ميدان السياسة وكان اول الذين سعوا رسمياً للحصول على امتياز باستثماره رجل اميركي يدعى الاميرال شستر ، موظف في وزارة البحر الاميركية، اوفدته حكومته في سنة ١٨٩٩ ليطلب من حكومة الاستانة تعويضاً للمرسلين الاميركيين الذين اعتدي عليهم في اثناء مذابح ارمينيا سنة ١٨٩٦ فوفق في مهمته ... ولكنه لم يلبث ان رجع الى تركيا ثانية وقد رجع هذه المرة بثوب التاجر ، لا بثوب الموظف ، موفداً من شركة مالية اميركية لشراء امتيازات من الباب العالي (١) فلم يوفق

---

(١) دافنبورت وكوك (ص ٢٤) ويقول المؤلفان في هذا الصدد ان الاميرال شستر ، وكان بحاراً وسياسياً وتاجراً في وقت واحد ، « ظن ان في وسعه تحقيق بعض آماله باجتماعه بالباب العالي فقابل السلطان ورجال المعية مراراً غير انه لم يوفق توفيقاً عظيما كما كان يحلم ، فقد وعد وعوداً كثيرة منوعة : وعد بامتيازات بمد الخطوط

لان عبد الحميد كان شديد الطمع ، كثير الحذر ، يجاري السياسة ظاهراً ويدس عليها باطناً ... وينتهز الفرص للايقاع بالدول الطامعة في سلطنته، وللتفريق بينها ، واثارة احداها على الاخرى، و«اكتساب» اقصى ما يستطيع كسبه من تنافسها وتطاحنها

وكان ملك السلطان يجتاز في تلك الاونة ازمة النزع الاخير ، فقد اظهرت دول الغرب ، وفي مقدمتها روسيا وانكلترة وفرنسا نزعتها جلية للقضاء على « الرجل المريض » واقتسام ارثه، فوجدت المانيا في تلك المؤامرة خطراً على نفوذها ورأى غليوم ان من الحكمة مظاهرة خليفة المسلمين لحفظ التوازن بين الدول ، ثم لاجتذاب الاتراك الى سياسته واتمانهم اليه فيستطيع بعدئذ ان يتبسط في بلادهم ويكتسب ولاء المسلمين في العالم، ولا سيما في المستعمرات الانكليزية والافرنسية فيتمكن عماله من اثارتهم على مستعمريهم

ونجحت المانيا في سياستها تلك ، وصار اسم غليومها محبباً الى

الحديدية ... وبامتيازات بالبحث عن المعادن في آسيا الصغرى ... وبامتيازات بالبحث عن النفط في ارمينيا والعراق ... ولكن المفاوضات مع اتراك ذلك العهد كانت طويلة ، كمفاوضاتهم بعد سنين عديدة في لوزان ! »

نفوس الشرقيين عامة والمسلمين خاصة (١) وبدأت حكومة برلين تسعى لتحقيق مشروع جبار يقلب عالي الارض سافلها ، وهو انشاء خط حديدي يصل برلين ببغداد في طريق الاستانة وينتهي الى الخليج الفارسي ، فتستولي بواسطته على ناصية البلقان وتركيا وتهدد الانكليز على ابواب الهند !

(١) بل صار ملجأ يفزع اليه المسلمون في ملماتهم ، واننا نذكر حادثة واحدة تدل على مكانة غليوم في الشرق على اثر تلك السياسة فقد انزل الانكليز في خريف ١٩١٠ جندهم في مرفأ بو شهر الفارسي بحجة حماية القوافل الانكليزية ، فاضطرب الايرانيون لذلك التعدي على سيادتهم وقاموا وقعدوا في كل مكان ، وظاهرهم المسلمون في تركيا فعقدت الجمعية الفارسية في الاستانة اجتماعاً حضره « جم غفير من المسلمين على اختلاف اجناسهم ولهجاتهم » والقيت الخطب الحماسية وابرقت الجمعية في ختام الاجتماع الى الامبراطور « تستغيث به باسم المسلمين من جور الانكليز » وهذا نص البرقية :

« ان الايرانيين الذين يناضلون منذ خمس سنوات في سبيل حريتهم قد اصيبوا في قلوبهم من تهديد الانكليز باحتلال بلادهم ، وهم بصفتهم اعضاء في العائلة الاسلامية التي وجدت دائماً في شخص جلالتكم الامبراطورية ساعداً وحامياً عظيماً في كل المواقف الحرجة لهم الامل بان جلالتكم تساعد ايران المهددة ، لاننا نذكر كلام جلالتكم على

مشى التبسط الجرماني في الشرق يوطد نفوذه وينتشر ، وكان الرأسمال الالماني يمشي معه ، او يتبعه ، خطوة خطوة ، ويجوز الترجيح في القول بان السياسة كانت تمهد السبل للمال ، وكانت مسخرة له لاكتساح المقاطعات العثمانية ، اقتصادياً وثقافياً ، وقد اعد رجال التبسط الجرماني لتحقيق هذه الغاية برنامجاً منظما تنظيما دقيقاً وعهدوا الى مؤسسة مالية باسم « دويتش بنك » — المصرف الالماني — ادارة العمل في السلطنة . ولم يكن عسيراً على رسل هذه المؤسسة ، وقد كشفت الدول القناع عن مطامعها في اقتسام تركيا واعلنت سياستها الاستعمارية « على المكشوف » ، ان يغتنموا هذه الفرصة ليتقربوا من الباب العالي ويحملوه على الاطمئنان الى سياستهم وعطفهم .

قبر صلاح الدين بخصوص صيانة حقوق المسلمين ، الامر الذي خفقت له قلوب الثلاثماية والخمسين مليون مسلم ، كما اننا نذكر عملكم الشريف الذي اكسبكم في مسألة مقدونيا ومسألة مراكش امتنان العالم الاسلامي

«وقد كلفنا الوف من المسلمين المجتمعين في هذه المظاهرة ان نعرب لجلالتكم عن املنا هذا وعن عواطف اخلاصنا وشكرنا . والشعب الاسلامي يضرع لجلالتكم وللامبراطورة وللشعب الالماني » اهـ (مجلة «المنتقد» البيروتية – ج ٩ ص ٥٤١، في ١٥ ت ٢ سنة ١٩١٠)

واحب غليوم ان ينشط بنفسه هذه السياسة «الولائية»(١) ، واولئك

---

(١) — لم يكتف الالمان بمزاحمة النفوذ الافرنسي والانكليزي والروسي المنتشر في بعض الولايات العثمانية ، بل كانوا يرغبون في القضاء عليه قضاء مبرماً ليخلو لهم الميدان ، وذهبت مجلة « الدنتشي ريفو » الالمانية الى ابعد من تلك الرغبة في التبسط الجرماني فقالت: « ... وان المصلحة الالمانية تقضي على الاقل — على الاقل !!! — بوضع تركية اسيا تحت حمايتنا ، على انه يكون خيراً لنا ان نستولي على سورية والعراق استيلاء كاملا ... وان نحصل على حق حماية آسيا الصغرى ! ... (مجلة الدنتشي ريفو في ٨ ك ١ (ديسمبر) سنة ١٨٩٥ — رواه جان لوكه ص ١٨٩) — ولا ريب بان المقام البطريركي الماروني يذكر ان ليس من علاقات قديمة تربطه بالمانيا ، فاحتلال هذه البلاد اذن لا علاقة له بالحب والغرام ! ...

ومن احب الاطلاع على برنامج الالمان للاستيلاء على الشرق فليقرأ مؤلفات شارل اندلر الاستاذ في جامعة باريس عن « الجامعة الجرمانية الاستعمارية » وكتاب « المانيا المسيطرة » بقلم غرمباخ ، وكتاب « سياسة المانيا الاستعمارية » بقلم الاستاذ ارنست هاس رئيس عصبة « الجامعة الجرمانية » ففيها فوائد قيمة ، لا سيما وان اكثر الخطط المشروحة فيها تضيء على الاهداف التي يرمي اليها الاستعمار الافرنسي والانكليزي في هذه البقاع ...

الرسل ، فزار السلطنة (١) وكان له في الشام والقدس خطبتان عن مظاهرته حكومة السلطان والاسلام هزتا الشرق والغرب ، وما ان رجع الى عاصمته حتى اذاع الالمان مشروعهم الجبار «خط برلين - بغداد» فمادت له دول اوروبا ، واضطربت الامبراطورية البريطانية ، وعرف الجميع انه مشروع تجاري وحربي معاً ، ولكنهم جهلوا ، او جهل اكثرهم انه «مبلول» بالنفط : فالالمان ، كما قلنا ، هم ايضاً بحاجة الى الى هذه المادة الحيوية ، بل هم اكثر الامم فقراً بها ، لان اراضيهم خالية منها ، فانشأوا سنة ١٩٠٣ (في ٥ ت ١ — اكتوبر) شركة الخطوط الحديدية الانضولية لتحقيق غايتهم وحصلوا من السلطان عبد الحميد على امتياز باستثمار جميع انواع المعادن في الارض التي يمر بها الخط الحديدي ، على عرض عشرين كيلو متراً من كل جانب ..

ويقول الاستاذ نيكوليسكو (٢) ان تلك الشركة «انشئت بمساعدة عبد الحميد» ، وقد يظن انه كان مساهماً فيها ... فما لبثت ان منحت سنة ١٩٠٤ مهلة سنتين لدرس الاراضي النفطية في ولايتي الموصل وبغداد !

---

(١) سنة ١٨٩٨ (٢) ص ١٤٣

نباح في القاهرة ...

اشتد التزاحم بين الالمان والانكليز للتبسط في العراق ، وكان عبد الحميد يساند الاولين فعلا ويجامل الاخرين قولا ، لكنه رأى ان ليس باستطاعته اقصاء جميع الدول عن سلطنته ، ولا اباحتها للجميع ، فصار يعد السفراء الاوروبيين كلا على حدة بما ترغب فيه دولهم ، ثم يثير الخلاف بينهم زاعماً انه لا يجرؤ على منح احدهم الامتياز الذي يطلبه ، خوفاً من غضب الدولة الاخرى التي تطمع هي ايضاً في ذلك الامتياز

وبينما الالمان والانكليز متفاهمون في اوروبا ، وافريقيا ، وفي كل مكان ، وقد كان هذا التفاهم ضرورياً لحكومة لندره لاسكات فرنسا عن « الدس » عليها في وادي النيل ، اذا ببرقية من لورد كرومر في القاهرة تهبط على اللورد روزبري وزير الخارجية البريطانية تنبئه بخطر عظيم !

خيراً ، ان شاء الله !

قال اللورد غراي في مذكراته : « .. وبينما السفير الانكليزي يسعى في الاستانة لتحصل الشركات الانكليزية على امتيازات بمد الخطوط الحديدية في تركيا ، وكان السفير الالماني يسعى السعي عينه لاجل الشركات الالمانية ، اذا بنا نفاجأ بانذار من برلين يأمرنا بأن

فكف كل مزاحمة في الحصول على امتيازات بمد الخطوط الحديدية التي يسعى الالمان للحصول عليها في تركيا ، ويقول الانذار بأننا اذا لم نمتثل لهذا الطلب ، فان القنصل الالماني في القاهرة يسحب تأييده للادارة البريطانية في مصر . وقد بعثت برلين بمثل هـذا الامر الى ممثلها في القاهرة ، وما كدنا نتلقى الانذار الالماني حتى تلقينا برقية استنجاد من اللورد كرومر يقول فيها انه يستحيل عليه ، بوجود المعارضة الافرنسية والروسيـة ، أن يحسن ادارة عمله في مصر ما لم يكن حائزاً على تأييد المانيا » (١)

وقد أثمر انذار برلين و« اقلع اللورد روزبري عن اية مزاحمـة للالمان في تركيا » (١) فعادت المياه الى مجاريهـا في وادي النيل ...

---

(١) ادوار غراي ص ٢٦و٢٧ ــ وقد كتب فيتز موريس في « حياة اللورد غرانفيل » فصلا مسهباً عن علاقات المانيا وبريطانيا في مصر قال فيه : « عند ما سقطت وزارة غلادستون الثالثة ورجع اللورد سالسبوري للحكم رأى الوزير الجـديد ان من الضرورة القصوى التفاهم مع المانيا ، فكان من جراء ذلك ان مركز بريطانيا العظمى في مصر صار متعلقاً الى سنوات طويلة بمشيئة التحالف المثلث (المانيا والنمسا وايطاليا) وبمشيئة المانيا على الاخص ، لانها كانت صاحبة الصوت النافذ في ذلك التحالف

وكان ذلك كله نتيجة الدهاء الحميدي في تحريش الاوروبيين بعضهم على بعض

ولكن الانكليز لم ينموا تحت تلك الصفعة ، فقد انقض امتياز النفط في الموصل وبغداد مضجعهم ، وصدم امانيهم صدمة عنيفة ، وقضى على مساعيهم ومداوراتهم التي قاموا بها طوال السنين ، وكانوا قد شعروا بان السكوت عن التهديد الالماني في مصر مضر بهم ، « لان بوسع برلين التذرع به في كل مناسبة لاقصائهم عن ميادين التبسط والتجارة التي يطمعون فيها » (١) ، فاتجهوا بسياستهم الخارجية شطراً جديداً ، وكان الاتفاق الانكليزي الفرنسي سنة ١٩٠٤ وليد ذلك الاتجاه ، فاطلقت بموجبه يد الانكليز في مصر ، ويد الفرنسيين في مراكش ، وتعاهد الفريقان على ان يظاهر احدهما الاخر في تأييد موقف كل منهما في القطرين العثمانيين اللذين يحتلانهما

وكانت صفعة على قذال الغطرسة الجرمانية ، ظلت تحز قلب غليوم عشر سنوات ، وذكرها تحت اسوار المارن !...

وكانت عبرة للمصريين الذين اسكرهم الامل بعطف فرنسا ، محررة الشعوب ، وغذتهم وعود سياسييها بانهم لن يسمحوا للانكليز باستعباد مصر !... وكانت عبرة للشرقيين — اواه لو تفهم العبر !

---

(١) غراي ص ٢٧

طرابيش عثمانية على رؤوس غربية

مضى عبدالحميد في وعوده بمنح امتيازات النفط شأواً بعيداً، فقد وعد شركة الانكلو برشيان الانكليزية ، ويقال انه وعد المهندس دارسي قبلها ، باستثمار النفط في العراق ، وان هذه الشركة «ورثت» الوعد المذكور من دارسي . ووعد عصبة المصرف الالماني « دويتش بنك » ، وهي التي كانت تنشىء المؤسسات الالمانية في السلطنة العثمانية ، وتدير اعمالها ، وتقوم بالمشاريع الاقتصادية في الانضول ، واليها تنتسب شركة الخطوط الحديدية الانضولية التي حصلت على امتياز ۱۹۰۳ ، وعلى اجازة درس الاراضي النفطية في ولايتي الموصل وبغداد سنة ١٩٠٤ — وعد السلطان الداهية تلك المؤسسات ووعد غيرها ، ولكنه لم يبر بوعده مع احد ، فما كاد يخلع عبد الحميد حتى تسابق الموعودون الى المطالبة بـ«حقوقهم » — حقوقهم !! — وكان اول عمل قامت به الحكومة الدستورية في هذا الصدد أن استصدرت ارادة شاهانية من السلطان الجديد محمد رشاد باسترجاع الاراضي التي ضمها السلطان المخلوع الى خزانته الخاصة ، الى املاك الدولة(١)

---

(١) صدرت هذه الارادة في ٢١ ابريل ١٣٢٥ الموافق ٤ نوار

واسقط في يد المتنافسين ، المتزاحمين ، ووجدوا نفوسهم امام « وجوه » جديدة ، وسياسة جديدة — في البدء ، على الاقل — فسلكوا طريقاً جديداً : ذلك ان الاتحاديين ظهروا على مسرح سياسة السلطنة ، وظهر معهم عطف جديد من ... الانكليز على ورثة « الرجل المريض » ، وبدت سياسة لندرة في ثوب من الولاء والعطف على الاستانة لم يكن ليخطر ببال انسان (١) فكان من المنطق ان يكون لسان طلاب الامتيازات انكليزياً مقرباً من رجال العهد الجديد .

وكان بطل هذه المهمة الخطيرة السير ارنست كاسل (٢) ، ملك المال الانكليزي ، مؤسس « المصرف التركي الوطني » في الاستانة وممول الحكومة الجديدة ، وصديق الاتحاديين الصميم ، وهو قبل ذلك كله « كريم المحتدين ! » اي الماني الاصل ، انكليزي التبعة .

(١) يقال ان لعمال الانتلجانس سرفيس يداً في ثورة الاتحاديين ووصولهم الى الحكم !...

(٢) Sir Ernest Cassel

(مايو) ١٩٠٩ وكانت حكومة كامل باشا قد استصدرت مثل هذه الارادة من السلطان عبد الحميد نفسه في اول سبتمبر ١٣٢٤ الموافق ١٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ تحت تأثير اعلان الدستور

وقد «ساء» — على ما كان يصرح به — ان تصطدم سياسة وطنيه الاول والثاني في الشرق فرأى من واجبه أن يسعى للتوفيق بينهما وان خير واسطة لذلك جمع منافعهما الاقتصادية في صعيد واحد فيتضامنان بدل التخاذل والتطاحن ... وقد ساعدته ظروفه الخاصة على تحقيق فكرته فكانت ثمرة مساعيه الاولى انشاء مؤسسة جديدة في ٣١ك٢(يناير) ١٩١١ باسم « شركة الامتيازات الافريقية الشرقية المحدودة » ضمت مصالح مصرفه « الوطني التركي !» ومصالح المصرف الالماني «دويتش بنك» صاحب الامتيازات الكثيرة في السلطنة العثمانية ومرجع شركة الخطوط الحديدية الانضولية التي ذكرنا اعمالها في الفصل السابق. وعهد برئاسة المؤسسة الجديدة الى السير هنري بانغتون سميث (١) صاحب النفوذ العظيم بين رجال الاتحاديين.

ولما يمض عشرون شهراً على انشاء هذه الشركة حتى بدلت عنوانها (في تشرين الاول — اكتوبر ١٩١٢) باسم « شركة النفط التركية المحدودة — توركيش بتروليوم كومباني ليمتد » اذ انضمت اليها شركة نفطية جديدة اسمها « انكلوسكون بتروليوم كومباني ليمتد » هي فرع للشركة الهولاندية الانكليزية المعروفة باسم « رويال دوتش شل » التي يرأسها ديتردينغ والتي هي شريكة

Sir Henry Banington Smith (١)

الانكلو برشيان

وقد جرى هذا التطور كله برقابة السير لويس مالت (١) السفير الانكليزي في الاستانة، وبتدخله ومساعيه، وكان على اتصال مستمر بحكومته في لندره يستشيرها في كل شأن من شؤون هذا العمل!

وفي ١٩ اذار (مارس) ١٩١٤ اماطت السياسة الدولية اللثام عن وجهها ومثلت رواية «وهمية» في وزارة الخارجية في لندره، شبيهة بالرواية التي مثلت قبلها في القنصلية البريطانية في طهران سنة ١٩٠١ فاجتمع ممثلو الشركات التي ذكرناها، وانضمت اليهم شركة الانكلو برشيان، وارثة امتياز دارسي، وسجلوا اتفاقهم «بروتوكولهم» بحضور السير اري كرو (٢)، الوزير المفوض، باسم الحكومة البريطانية، والهر دي كوهلمان (٣) مستشار سفارة المانيا في لندره باسم حكومته، وتعاهدوا على انه لا يجوز لاي مساهم في الشركة الجديدة «توركيش بترولوم» ان يتنزل عن حصته او يبيع من اسهمه لشخص غريب عن الشركة، ووقع الممثلون التجاريون

---

(١) Sir Louis Mallet

(٢) Sir Eyre Crowe

(٣) M. de Kuhlmann

والممثلان الرسميان على البروتوكول ، ووزعت اسهم الشركة على الشكل الآتي :

٢٥ من المئة	للمصرف الالماني « دويتش بنك » (١)
٢٥ من المئة	لشركة « الانكلوساكسون بتروليوم »(فرع شركة رويال دوتش شل) (٢)
٥٠ من المئة	لشركة الانكلوبرشيان(وارثة امتياز دارسي)

وتعهدت شركتا الانكلوساكسون والانكلوبرشيان بان تحفظ كل منهما سهمين ونصف السهم من المئة (المجموع خمسة من المئة) للخواجا خ. س. غولبنكيان الذي كان يسعى للشركة الجديدة باخذ امتياز استثمار النفط في العراق من الحكومة العثمانية

ويلاحظ القارىء انضمام « الانكلوبرشيان » الى هذه العصبة الجبارة ، واستيلاءها على نصف رأسمال الشركة ، وذلك لان مصرف السير كاسل تخلى لها عن حصته (بايعاز من الحكومة الانكليزية ...) ولانها تعهدت بان تحصل من حكومة الاستانة على الامتياز المنشود ، بواسطة المثري الارمني الشهير خولوتس غولبنكيان

(١) Deutsche Bank

(٢) Anglo-Saxon Petroleum Cy. Ltd. (filiale de la Royale Dutc-Shell)

الذي كان موظفاً في الوزارة الخارجية العثمانية ، ثم في السفارة العثمانية في لندره !! وهو ، في هذا الباب ، « اخو » مشير الدولة بيرينا وزير الخارجية الايرانية ، وكلا الاخوين نال اجره المعهود ، على مسعاه « المحمود » ...

وفي ١٦ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٤ كتب سفير فرنسا في لندره الى حكومة باريس يعلمها بهذا الاتفاق ، وكان قد كتب اليها في ١٠ شباط (فبراير) عن مجرى المفاوضات بين ممثلي الشركات المنوعة وممثلي الحكومتين الانكليزية والالمانية

وشمر السير ماليت عن ساعد الجد ، واستخدم نفوذه كسفير بريطانيا العظمى لدى الباب العالي ، واخذ يسعى للحصول على الامتياز من الحكومة التركية ، يظاهره ويسانده السفير الالماني ، حتى حصل على «جواز» في أواخر شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩١٤ يسمح للشركة التركية باستثمار النفط في ولايتي الموصل وبغداد فقط . وكان العالم على أبواب الحرب !

وقد عبرنا عن الامتياز بكلمة «جواز» لاننا نسرد الحوادث على حقيقة وقوعها ، ونتتبع مجراها تدريجاً ، فان كلمة « امتياز » الشركة أثارت ضجة في الاندية السياسية العالمية بعد الحرب ، واحدثت صداماً عنيفاً بين الدول ، تبودلت بسببه العبارات الجارحة بين الرؤساء والوزراء .

« الرسميين » وتطاحنت شركات الاحتكار تطاحن المتكالب المستميت، وكان ذلك على اثر اعلان عهدة سان ريمو ١٩٢٠ ، فانبرى جهابذة القانون في اوروبا ، وفطاحل التشريع في الولايات المتحدة، يتناقشون في «قانونية» الامتياز ، وأخذ قسم يؤيد «القانونية» وقسم ثان يدحضها بحجة ان ما تسميه الشركة التركية امتيازاً ، ان هو الا «وعد» من حكومة الاستانة بمنح الرخصة المطلوبة ... وكان الاميركان من مؤلفي القسم الثاني ، يحاربون « الامتياز » بغامراتهم (١) الاميركية المعهودة ، وقد حملوا حكومة واشنطن على الاستنكاف عن الموافقة على صكوك الانتدابات في الشرق العربي طيلة سنتين كاملتين وحملوا الرئيس ويلسن نفسه على التدخل في الخلاف لتأييد وجهة نظرهم ، مما كهرب جو الولاء بين العلاقات الانكليزية الاميركية وسنفصل ذلك كله في موضعه ، فقال الكثيرون بان الحرب واقعة بين

---

(١) نشرنا في الصفحة الرابعة من هذا الكتاب بعض فقرات من خطاب القاه المستر تايغل في نيويورك في اثناء المفاوضات التي كانت جارية بين الانكليز والفرنسيس قبل عهدة سان ريمو لاقتسام نفط العراق ، فليرجع اليه القراء ليلمسوا بعض الغضب الذي استولى بسببها على الاميركيين في تلك الفترة ، ولم يكن الاتفاق على اقتسام النفط العربي قد تم بعد ...

الدولتين بسبب ... النفط

ولكن الازمة انتهت على ان الامتياز «قانوني» ! (١)

وستعرف نهاية الرواية ، ايها العربي المسكين ، في خاتمة هذا الكتاب ، فتعلم ان ليس للقانون .. رائحة ، كما ان ليس للنفط ... رائحة ، وتعلم ان اصحابنا الاميركيين يعطفون على الشرق العربي عندما تقصي السياسة مصالحهم عنه ، او عندما تزاحمهم فيه ، ويغضبون لكرامة القانون عندما يحرمون فوائده ، ويرون في تصرف الحكومات المنتدبة عملا ظالماً مهيناً ، مخالفاً للصواب ، كما رآه تايغل في خطابه المنشور في الصفحة الرابعة من هذا الكتاب ، عندما تستقل الدول المسيطرة ، باستغلال الشعوب الضعيفة ، وحدها ، ولا تسمح لهم بمقاسمتها الدم المستنزف !

(١) لقد اختلفت الروايات حتى في تاريخ الامتياز وفي السلطة التي منحته ، فالمسيو اندره تارديو ، رئيس الوزارة الفرنسية الاسبق يقول في مجلة « الاولستراسيون » في ١٩ حزيران (يونيو) ١٩٢٠ (ص٣٨٠) « ان السير ماليت السفير البريطاني حصل على الامتياز من السلطان في ٢٨ حزيران ١٩١٤ » ويقول نيكوليسكو (ص١٤٧) ان الشركة حصلت « على ارادة من الامير سعيد حليم (الصدر الاعظم) في ٢٤ من ذلك الشهر» ولكن « النتيجة » واحدة!

وهذا حال كل قوي ، وكل مسيطر !

وبعد ، فقد تم تأليف « شركة النفط التركيـة » وحصلت على جوازها ، او امتيازها ، فماذا كان منها لمصلحة تركيا ؟

كان لها منها الاسم فقط ، الطربوش ، فقـد تطربشت عنواناً ، ولكنها لم تكن لتمت الى المصالح العثمانية الا بنسب ... الطمع والبغضاء والعداء ، بل كانت صاحبة اليد الفعـالة في مصير السلطنة بعد الحرب ، والسيدة المحترمة القول ، وهي ابنة الانكلوبرشيان ، في أحوال الاقطار العربية اليوم .

وتألف رأسمالها من الشركات الهولاندية والانكليزية والالمانية اسماً وعنواناً ، ولكنها جمعت في ذلك الراسمال أموالا أجنبية عن جنسية تلك الشركات ، مثال ذلك : ان « الانكلوبرشيان » التي تملك نصف راسمال هذه الشركة توظف ثلاثة وعشرين في المئة من مجموع اسهمها العادية في...فرنسا ! وهذا حال الحصة الفرنسية ، التي خلفت الحصة الالمانية بعد عهدة سان ريمو ، فان فيها اموالا بلجيكية واميركية و....المانية !

وانت ترى في هذا التحالف المالي ان سياسة المـادة تعلو سياسة الاخلاق والصراحة و....الوطنية ! وان الذي قال ان « المال لا رائحة له » هو اصدق فيلسوف فضح الذهنيـة الغربيـة في القرن العشرين

ولكن ، هل يخلص ملوك المال بعضهم لبعض في تحالفهم ؟

نعم ، ولا !

نعم : عندما يكون من وراء ذلك التحالف منفعة عامة للجميع ، وعندما يكون لتحالفهم تأثير في رد الخطر «العام» عن الجميع

ولا يخلصون : عندما تتباين المصالح الفردية ، او عندما يكون الخطر «فرديا» ويكون الاخرون بمأمن منه ، بل كثيراً ما تراهم ينقلبون عندئذ على ذاك الحليف ، ويظاهرون خصمه اذ يأنسون من الخطر مصلحة «سلبية» لهم . والمصلحة السلبية هي في اضعاف حليفهم خارج دائرة العمل الذي كان سبب التحالف ، «فيربحون» من اضعافه الاطمئنان الى ان حليفهم — وهو في الوقت نفسه مزاحم لهم — قد تبلبل موقفه وضعف نفوذه ، فاصبحوا بمأمن من خطره وظلوا وحدهم اقوياء !

المصلحة السلبية !... هي ايضاً من العناصر القوية التي تأسست عليها سياسة النفط في العالم عامة ، وفي الشرق الادنى خاصة ، وفي البلاد العربية على الاخص ، وقد رأينا قرنها يذر في مصر ، يوم حاولوا اغتيال المهندس المجوز دارسي للقضاء على امتيازه !

الاراضي المحولة

انشئت شركة « الانكلوبرشيان » بعد عهدة بطرسبرج التي عقدت المدنة في صيف ١٩٠٧ بين الروس والانكليز في الشرق، فصار من السهل على رجال الشركة ، وقد كانت سياسة الدول الغربية — ولا تزال — مسخرة في هذه البلاد لمصالح رجال المال، ان يبدلوا الاوضاع والحدود الايرانية ، ويتصرفوا بها تصرف المالك بملكه ، ويعيش الشعب الايراني المظلوم بتلك العهدة لا رأي له في مصير بلاده ، ولا طاقة له برد الاذى عنها ... فلما بدأ السير ارنست كاسل مساعيه لعقد « هدنة ثانية » للتنافس بين الالمان والانكليز في السلطنة العثمانية ، احتاطت شركة الانكلوبرشيان للمستقبل — والشركة هي امارة البحر البريطانية كما عرفت ، وامارة البحر هي الامبراطورية ... — فسعت بتحويل بعض اراض من المملكة الايرانية الى الحكم العثماني ، واقعة على حدود الدولتين ،ويشملها امتياز دارسي الذي انتقل اليها ، و« تطوع » بتحقيق هذه الفكرة السير لويس مالت السفير البريطاني في الاستانة ، فتم للشركة ما رغبت فيه ، وحولت بعض الاراضي من ايران الى تركيا بموجب بروتوكول مؤرخ في ٤-١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٣ وقع عليه الصدر الاعظم الامير سعيد حليم بصفة كونه وزير الخارجية العثمانية ، والميرزا محمود خان احتشام السلطنة (سفير ايران) والسير

لويس مالت سفير بريطانيا ، والمسيو ميشال دي غيارس سفير روسيا».
والسفراء الثلاثة يمثلون دولهم في الاستانة

وبموجب هذا البروتوكول « امتدت » شركة الانكلوبرشيان من ايران الى تركيا ، اي الى العراق ، لان الاراضي المحولة واقعة في البلاد العراقية التي سلخت عن السلطنة ، فما هي الاسباب «الرسمية» التي تذرعت بها الدول الاربع لوضع ذلك البروتوكول ؟

اعترف صراحة باني لم اتمكن حتى كتابة هذه السطور من معرفة الحوادث « الرسمية » او الاطلاع على المفاوضات التي جرت بين الحكومات المذكورة لتحويل تلك الاراضي النفطية . ولم يكشف كاتب —على ما اعلم— عن اسرار هذا الحدث الخطير الذي طبخه الدهاء الانكليزي تمهيداً للمستقبل ... المستقبل المجهول من الناس والمعروف من دوائر « دوننغ ستريت » وحدها ! وسيرى القارىء اي اثر بعيد كان لذلك الحدث في مجرى الحرب الكونية ، في الساحات الشرقية ، وفي مصير الاقطار العربية . ولكن الاعجب من ذلك ان رجالات المملكتين ، وفيهم « الرسميون » لم يفهموا حقيقة ذلك الحدث ، وما يزالون يجهلون سببه (١) ....

---

(١) نشر المؤلف مقالا في شهر شباط الماضي في جريدة «صوت الاحرار» الغراء عن « الاراضي المحولة » ذهب فيه الى

والاغرب من ذلك كله ان البروتوكول عينه — وقد نشرناه في خاتمة هذا الكتاب — خلا من ذكر الاسباب الدبلوماسية التي تمهد بها البروتوكولات ، فكان صريح العبارة بانه وضع لتثبيت

القول بأن الانكليز « نظروا بعيداً » في ذلك العمل ، وكان قصدهم ان يسيطروا من ذلك الحين على العراق ، فجعلوا تحويل الاراضي الايرانية الى الحكم العثماني مقدمة ، لتصبح البلاد العراقية ، وهي محيطة بها ، تحت متناول يدهم في الساعة التي تسنح بها الظروف للاستيلاء عليها .

وقد ختم الكاتب مقاله راجياً أن يتكرم عليه رجالات العرب بما يعرفونه عن ذلك الحادث التاريخي ، فلم يتلق جواباً من أحد... الا من احد السفراء العراقيين ، ولا نسميه لانه يشغل الان منصباً رسمياً ، أيده في ما ذهب اليه من استنتاج

ومرت الاسابيع ، وكان المؤلف يكتب الى جهات كثيرة ويكلف اصدقاءه أن يسألوا له رجال العهد العثماني من وزراء ونواب وولاة عن ذلك الحادث فكان الجواب واحداً : « لا علم لنا بتحويل الاراضي المذكورة » — واخيراً سألنا احد السفراء الايرانيين السابقين عنه فايد مقالنا . فهل تعجب لان تضمحل تلك السلطنة المترامية الاطراف ، وهذا حال « رجالها » ؟

امتياز دارسي ، اي لتحقيق مصالح تجارية اجنبية !.. وهذا ما جاء في مقدمته :

« بما ان كلا من الحكومة العثمانية وحكومة جلالة شاه ايران ترغبان في المحافظة على الحقوق والتعهدات المتنوعة المعطاة لشركة النفط « الانكليزية - الفارسية المحدودة » في الاراضي المحولة من ايران الى تركيا ، مع تنفيذ هذه الحقوق والتعهدات التي منحتها اياها الحكومة الايرانية بموجب الاتفاق المؤرخ في ٢٨ نوار (مايس) سنة ١٩٠١ (امتياز دارسي) فقد اتفقت الحكومتان على ما يأتي :

(ا) - يعترف الباب العالي بان الامتياز نافذ ومعمول به في الاراضي المحولة ، وان الحق الممنوح في البند الاول من ذلك الاتفاق يكون انحصاراً مطلقاً للحقوق الممنوحة به في جميع انحاء الاراضي المحولة ، ولا يمنح اي شخص او اية شركة او مؤسسة كانت اي امتياز من هذا النوع مما يسبب ضرراً لامتيازه شركة النفط الانكليزية - الفارسية المحدودة » او اجحافاً بحقوقها

(ب) - جميع الحقوق والميزات والاعفاء وغيرها من الفوائد الممنوحة لشركة النفط الانكليزية - الفارسية المحدودة من قبل الحكومة الايرانية ، وفقاً للاتفاق المذكور ، او التي تتمتع الشركة

بها الان فعلا ، يجب ان تكون محترمة ومعتبرة من قبل البـاب العالي في الاراضي المحولة طبقاً لاحكام ذلك الاتفاق » ــ الخ ... الخ ...

ولا يتضح لنا من مقدمة البروتوكول ، ولا من الفقرتين « ا » و«ب» . ولا من الفقرات اللاحقة ، اي شيء يتعلق بالاسبـاب التي حملت حكومة طهران على تحويل جزء من اراضيها الى السلطنة العثمانية او يتعلق « بكيفية » ذلك التحويل ، أعني : أهو بيع ام مبادلة اراض ام ثمن ميثاق حب وحسن جوار ، ام غير ذلك مما لم تذعه المصادر الرسمية ، ولكن الحوادث والاوضاع الحالية تدلنا على ان السيـاسة الانـكليزية فكرت ، منذ زمن بعيد ، في ان يكون العراق من حصتها الصغرى في ارث الرجل المريض ، لا سيما وانه في طريق الهند وفيه ابار ... النفط ! ولم تكن البعثات « العلمية ! » التي اوفدتهـا الحكومة البريطانية ومؤسساتها الرسمية للاستقصاء الاثري بين انقاض نينوى وبابل واشور الا من قبيل طليعة العمل لتحقيق ذلك الحلم ، وليرجع القراء الى ما كتبه علماء الاثار الانـكليز ، والمتأنكلزون ، عن مهمتهم في العراق ، واخص منهم بالذكر السير اوستن هنري لايارد وهرمز انطون رسام (١) « فيشتم » رائحة التجسس السيـاسي ،

(١) هو موصلي الاصل ، وابوه قس نسطوري يدعى انطون

والتمهيد للاستعمار ، تحت ستار الفن والعلم ! وقد صرت تعلم ايها

وقد اشتهرت عائلة رسام باتمائها للانكليز وخدمتهم ، وكان عيسى رسام اخو هرمز هذا ، « وكيل الحكومة البريطانية في الموصل » ، ومهمة الوكلاء يومئذ جمع « الاخبار ... » وكتابة التقارير عن البلاد الموجودين فيها ، ونقل مايتسمعونه من انباء وحوادث الى الحكومة التي يعيشون منها ...

وكان هرمز رسام عالماً بالفنون الاثرية ، وقد تخرج من جامعة اكسفورد ، وارسلته الحكومة البريطانية بمهمات « سياسية » كثيرة الى الشرق ، وله في عدن « أثر » خالد على اثر « الفتنة » الشهيرة سنة ١٨٦١ بين امام مسقط واخيه سلطان زنجبار ، وبعد نجاحه في مهمته تلك اوفدته حكومة لندره الى الحبشة ، ثم الى العراق حيث اجرى الحفر في الانقاض الاثورية والبابلية ، واغنى المتحف البريطاني في لندره ، بالآثار الثمينة التي وجدها في هذه العواصم القديمة ، وقد توفي سنة ١٩١١ » — (مقتبسة عن تاريخ الموصل ، ج ٢ ، ص ٢٧٦)

والكابتن رسام ، الموظف القديم في الجيش البريطاني ، والذي يدير اليوم الحركة « الاثورية ! » لفصل شمالي العراق عن المملكة العربية وجعله مملكة اثورية ، هو من هذه الاسرة المشهورة بخدمة الانكليز !..

القارىء العزيز ، ان الذهنية الانكليزية هي نسيج وحدها في الاستعمار ، فالعمل الذي يبدأ به الانكليز اليوم يكون مقدمة لغاية ينشدونها بعد خمسين سنة ، والعمل الذي قاموا به منذ ربع قرن كان تمهيداً للحالات التي وصلوا اليها الان . ولقد ظهرت — اليوم — نزعات الانكليز المستغربة — يومئذ — في الحرب العالمية ، ومداوراتهم المدهشة في اشد ساعات الخطر على الحلفاء لتحقيق مطامعهم في نفط العراق !

وكان تحويل الاراضي من ايران الى تركيا مقدمة للتبسط البريطاني في البلاد العربية ، اذ تمكنوا بسبب ذلك التحويل من الاشتراك في شركة النفط التركية « تورکیش بتروليوم كومباني » الالمانية الاصل في امتيازها ، وقد رأوا ان تلك الاراضي التي يشملها امتياز دارسي بعيدة عن البحر ، ونقل نفطها الى الخليج الفارسي يكلفهم نفقات باهظة جداً ، وتعتوره صعوبات جغرافية وفنية خطيرة ، فسعوا بتحويلها الى الاراضي العثمانية ليخلط نفطها بنفط الشركة التركية فيسهل نقله الى البحر المتوسط ، وقد كانوا على ثقة من ان مساعي السفير البريطاني السير مالت في الاستانة مكللة حتما بالنجاح للحصول على امتياز الشركة التركية ...

وكان تحويل الاراضي الايرانية الى الحكم العثماني ، بمساعي السفير البريطاني السير مالت في الاستانة ، مقدمة لتنزل مصرف

السير ارنست كاسل ـ ولا تنس ان اسمه «المصرف التركي الوطني» ـ الوطني !!! ــ عن حصته في شركة النفط التركية الجديدة لشركة الانكلوبرشيان ، اي لامارة البحر البريطانية ، أي للامبراطورية !

انهم الانكليز ، ايها القارىء العزيز ، رجال الدهاء الحكيم والفكر الثاقب ، والجشع « الشبعان ! » ، ينزعون ثيابك عن جسمك وانت تشعر بانهم هم الاغنياء الاقوياء الجبابرة « الكبار » ، وانك انت الفقير الضعيف الصعلوك « الصغير » ـــ انهم الانكليز ، يدفعون في النهار مواطنهم السير ارنست كاسل ، الالماني الاصل ، ليضع برنامج المدنية بينهم وبين مزاحميهم الالمان ، تأميناً على مصالح الفريقين وحباً بالفريقين ، ويعملون في الليل لاحتكار منافع تلك المدنية ، وحدهم !

ليس للنفط ... رائحة!

انصفت سنة ١٩١٤ ، وباتت اوروبا على أبواب الحرب ، فلا باس بان نلقي نظرة عامة على السياسة النفطية قبل المجزرة :

لقدشاهدنا الاستعمارين، الروسي والانكليزي يتطاحنان في الشرق، وفي صدر كل منهما حقد وحشي على الاخر ، ثم شاهدنا ذلك البغض الكريه والعداء التاريخي ينقلب الى هدنة، ثم الى «تحالف ودي»

وشاهدنا الانكليز يكشرون عن انيابهم اذ لمسوا التبسط الجرماني ينتشر في انحاء السلطنة العثمانية ويمتد الى اسيا ، وهم يتمنون لو أن باستطاعتهم تقويض الامبراطورية الالمانية التي صارحتهم الزحام ، وصارحتهم عزمها الوطيد على ان تجعل لنفسها «مكاناً تحت الشمس» (١) اسوة بهم وبغيرهم من الشعوب التي اكلت البيضة و... القشور ، فما بال الانكليز الغاضبين المزمجرين ، الناقمين المهددين ، ينقلبون بين ليلة وضحاها الى حمل وديع ، ويشتركون مع خصومهم ومزاحميهم – مع اعدائهم الالمان – في تأسيس شركة « توركيش بتروليوم» لاستخراج النفط من الموصل وبغداد ؟ وما بال الالمان الذين عزموا في اقصى قرارة ضمائرهم على ان يطحنوا الانكليز ، ويقضوا عليهم القضاء المبرم ، فقام غليوم الثاني يخطب مهدداً « بان مستقبل المانيا هو فوق البحار»

---

(١) غراي – الفصل السابع

«وهو محمد علي لبريطانيا سيدة البحار - ما بال هؤلاء الناقين على الذين اكلوا البيضة والقشور يتقلبون بين ليلة وضحاها الى عقلاء وحكماء ويشتركون مع مزاحميهم - مع أعدائهم الانكليز - في تأسيس « التوركيش بتروليوم » ؟

وسمعنا الساسة البريطانيين يصرحون علناً بان تحالفهم مع روسيا وفرنسا انما هو تتمة للهدنة التي اعلنتها حكومتنا بطرسبرج ولندرة في عهدة ١٩٠٧ ، وان تلك الهدنة انما وضعت لابعاد الخطر الالماني عن طريق الهند : عن العراق

وصرح ساسة برلين مراراً وعلناً بان تحالفهم مع تركيا انما هو لايقاف مطامع بريطانيا في الشرق عند حد ... « معقول » ، بمعنى ان لا يأكل اولئك الجشمون الانكليز البيضة و... قشورها ، فاذا طرأ على تلك النيات حتى يتحالف العدوان في الميدان نفسه الذي كان كل منهما يطمع بالاستيلاء عليه ! كيف جمعت الموصل ، وهي بيت القصيد في التزاحم الالماني البريطاني ، بين الخصمين اللدودين ؟

في اللغة الافرنسية تعبير يدل على نفسية اوروبا وأميركا باجلى وضوح ، وهذا التعبير هو قولهم : « ليس للمال رائحة » L'A rgent n'a Pas d'o deur ويقصدون من ذلك ان مصدر المال، وطريقة كسبه ، «وحالة حامله لا تؤثر في قيمته لانه يظل مالا ، وهو ينتقل من جيب

الى جيب ، ومن يد الى يد ومن بلد الى بلد ، ويبقى على « وزنه » ، لا ينظر أحد الى « أخلاق » دافعه... فالقس يقبض المال من يد الزانية ويخزنه في جيبه ، والامام يقبض المال من يد السارق ويخزنه في جيبه ، ولا يزهد واحد منهما فيه ، ومصدره في الحالين حرام ، قد نهت الاديان عنه !

والافرنسيون يميلون الى النكتة ، وقد اشتهروا عموماً بخفة الروح – في بلادهم ... – وهم في هذه الذهنية على نقيض والانكليز ، فلما عرض على مجلس نوابهم مشروع تحويل شركة النفط الافرنسية حق استثمار حصة الحكومة الافرنسية من زيوت الموصل ، كانت اراء النواب متضاربة فيه ، والاهواء تتنازع الاحزاب والافراد ، وشركات الاحتكار العالمية ترتقب موقف الندوة منه باهتمام شديد ، لانه يقرر مبدأ رسمياً عاماً للحكومة الافرنسية في سياسة النفط ، فظهر من النواب تناقض حزبي ، وانشق افراد الحزب الواحد بعضهم على بعض ، فكانت جماعة من أحزاب اليمين تؤيد أقوال جماعة من أحزاب اليسار ، وقامت جماعة من أحزاب اليسار تؤيد معارضة أحزاب اليمين ، أي ان الحابل اختلط بالنابل ووقف الرأسمالي يظاهر معارضة الشيوعي ، والماسوني يساند الكاثوليكي ، وكان مقرر المشروع النائب شارلو ، وهو من أقدر الاخصائيين بشؤون النفط ، قد لاحظ هذا

التناقض عينه في سياسة الحكومة الافرنسية ، وأشار اليه مستغربا تقلب الوزارة في مواقف متناقضة ، فقاطعه وزير التجارة الذي قدم المشروع للمجلس ، وكان يومئذ موريس بوكانوفسكي الذي قتل في حادثة الطيارة المشهورة ، وقال للخطيب مبتسما : « ليس للنفط.. رائحة» Le Petrole n»a Pas d، odeur فابتسم المؤيدون وصفق المعارضون. والنكتة في جواب الوزير اليهودي تدل هي أيضاً باجلى وضوح على ان النفط وله أ كره رائحة يحلل ... الحرام !

***

ولا بد للمفكر من التساؤل عن موقف فرنسا حيال ذلك التحالف الجديد بين الانكليز والالمان في جزء من السلطنة العثمانية « حساس الوتر » ، وعما اذا كان ساسة الفرنسيس قد رضوا به . والجواب : ان الدهاء الانكليزي كان يلعب كما شاهدناه على الف حبلة وحبلة في آن واحد ، ففي الساعة التي كان المال البريطاني يعد العدة لتأسيس شركة تور كيش بتروليوم ومحالفة المال الالماني ، كانت السياسة الانكليزية تفاوض حكومة باريس في الامور التي تحمل السياسة الافرنسية على الاطمئنان الى مساعي حليفتها البريطانية . يؤكد لك صحة وقوع تلك المفاوضة : التصريح الخطير الذي ادلى به المسيو ريمون بوانكاره في مجلس النواب بصفة انه وزير خارجية فرنسا سنة ١٩١٢ اذ قال : « ... ان لنا في لبنان وسوريا مصالح

تقليدية نحن عازمون على جعلها محترمة من الغير . ولقد صرحت لنا الحكومة الانكليزية بلهجة قاطعة ان ليس لها في تينك القاطعتين اية نية أو تصميم أو أمان سياسية من أي نوع كان (١) ... » اهـ .

ومضى اسبوع على ذلك التصريح فادلى السير ادوار غراي وزير خارجية بريطانيا بمثله في مجلس العموم مؤيداً قول زميله بوانكاره !.. فكان جلياً ان الوزيرين اتفقا على ذلك التصريح (٢) بعد ان وضعت حكومتاهما اتفاقاً (سرياً ، بالطبع !) على اقتسام النفوذ السياسي في بعض الاجزاء العربية من مملكة الرجل المريض

اذن ، فالدهاء البريطاني يستطيع كما رأيت ان يقتل الفريسة ويمشي في المأتم ، وان يداعب بيمناه عنق المانيا ويخاصر فرنسا بيسراه . ناهيك بان في الانكلوبرشيان ـ شركة امارة البحر البريطانية ـ التي تملك نصف رأسمال الشركة التركية الجديدة ، أموالا افرنسية ... فان ثلاثة وعشرين من المئة ، من أسهم رأسمال الانكلوبرشيان العادية مباعة في ... فرنسا ! ولدى احتكاك المصلحة المادية بالسياسة تتلاشى

---

(١) ـ رواه لوكه (ص١٨٣) عن كتاب ندره مطران: «سورية الغد»

(٢) ـ وهذا رأي الاستاذ جان لوكه في كتابه عن « سياسة الانتدابات في الشرق » ـ ص ١٨٣

احلام الوطنية ومورفينها من قلوب رجال المال . فالمال هو كل شيء في سياسة النفط ـ وفي غير سياسة النفط ـ وهو لا رائحة له ، وجعل النفط بلا ... رائحة !



ليتدبر القراء النظر في الفصول التالية ، فانها ذات صلة وثيقة ببلادهم وتاريخها الحديث ، بل هي عرض الاسباب والعوامل التي ساعدت على اعلان الثورة القومية في الحجاز ، و « سلخ » الاقطار العربية عن السلطنة العثمانية ، وتقسيمها الى مناطق نفوذ بين الحلفاء ، ثم الباسها اشكالا منوعة من مظاهر الحكم الاجنبي المباشر ، او المستور بالحكم البلدي «الوطني»

-٢-

ويل يومئذ للمكذبين!

— صدق الله العظيم —

قالوا :

« ... ولقد كانت فرنسا نصيرة العالم ، وهذا من دواعي افتخارها وسيظل شرفاً لها ، فهبت الى الوغى والسيف في يدها تحارب لاجل المدنية واستقلال الشعوب ، فهي لا تغمد سيفها الا عندما تكون قد نالت جميع الضمانات لتوطيد صلح ثابت مكين ، وعندما تقدم فرنسا وحلفاؤها هذا الصلح الثابت للدنيا تكون النيات المستورة لاجل السيطرة الظالمة قد توارت ، وافسح المجال لفكرة الازدهار والمدنية في ظل حرية الشعوب المتمتعة بكامل استقلالها ! »

(من خطاب ارستيد بريان امام مجلس النواب الافرنسي في ٣ ت ٢ (نوفمبر) سنة ١٩١٥)

* * *

« ... ان هذه الحرب انما هي النضال في سبيل الحرية وتآخي الشعوب ، والاشتراكية الانسانية ، فيجب اذن خوضها لاجل السلام ، لاجل السلام دون استملاك أراض جديدة أو طلب تعويض حربي . ولكن سلماً كهذا السلم ليس ممكناً الا بشرط القضاء على كل فكرة ترمي الى سلب الشعوب حقوقها وحرياتها . ولا يجوز أن يؤدي الى احتلال بلدان ، سواء أكان الاحتلال كاملا

(*) خيرالله (الفصل الاول ، القسم الثاني) وماندلستام (الفصل الثاني ، القسم الرابع) وجريدة « الطان »

أم جزئياً . ويجب ان لا يبنى الصلح على اسس استملاك أراض جديدة ، سواء أكان الاستملاك احتلالا ظاهراً أم مستوراً ، ولا اخضاع بلد لنفوذ اقتصادي يؤدي الى القضاء على الاستقلال السياسي فيكون أشد ارهاقاً. واخيراً يجب أن يكون حق الشعوب في حكم نفسها بنفسها هو وحده الدعامة الراسخة في نظام علاقة الامم بعضها ببعض . »

(من البيان الذي أذاعه الاشتراكيون الاوروبيون في ١٢ ت ٢ ١٩١٥ في المؤتمر الذي عقدوه في مدينة زيمروالد السويسرية)

* * *

« ... وسنحارب حتى نشيّد سلطة الحق على القوة ، ونضمن للدول جميعها ، الصغيرة والكبيرة ، حرية الازدهار في ظل اسس المساواة التامة ، وطبقاً لقابلية تلك الدول الخاصة »

(من خطبة للسير ادوار غراي في ٢٣ ت ١ (اكتوبر) ١٩١٦ في المأدبة التي أولمتها وزارة الخارجية البريطانية لجمعية الصحف الاجنبية في لندره)

* * *

« ... وقد علمنا من مصدر يوثق بصحة أنبائه ان فرنسا وبريطانيا وروسيا قد تقاسمت في السنة الماضية (١٩١٥) أملاك السلطنة العثمانية في اسيا الصغرى ... وسياسة الفتح هذه تنقض المبادىء الانسانية

السامية التي يستوحيها اللورد غراي في خطبه ، وتنقض أقواله وأقوال المستر اسكويث الزاعمين ان الحلفاء يحاربون لجعل الحق فوق القوة ، ولتمكين الدول الصغيرة والكبيرة التي تتألف منها الانسانية المتمدنة من ان تعيش حرة مستقلة وتزدهر طبقاً لقابلياتها الخاصة ... اذا كان الحلفاء يريدون تحقيق ما يزعمون فعلا لا قولا فعليهم أن ينتقلوا الى الميدان العملي ، والا فتظل الكلمات الجميلة التي ينطقون بها عن الحرية والمساواة كلمات جوفاء »

من خطبة للمستشار دي بتمان هولويغ في مجلس النواب الالماني في ٩ ت٢ سنة ١٩١٦ يرد بها على خطبة اللورد غراي السابقة)

* * *

« ... اننا نرغب جميعاً في الصلح والسلام ، ولكننا نريد سلاماً وطيد الاركان يبنى على التوازن العادل بين الدول ، وعلى احترام المبادىء القومية ، والقواعد الحقوقية للناس ، واصول الانسانية والحضارة ، لا على القوة التي تصهر حديد السلاسل في نير شعب لاخضاعه لشعب آخر »

(من خطبة للسنيور سونينو وزير خارجية ايطاليا في مجلس النواب الايطالي في ١٩ ك١ (ديسمبر) ١٩١٦

* * *

« ... ويؤكد الحلفاء ، مرة ثانية ، انه لا يمكن ان يتم الصلح اذا

لم يكن من ضمان لاعادة الحقوق والحريات التي اغتصبت في هذه الحرب ، واذا لم يعترف بمبدأ القوميات وبحقوق الدول الصغيرة في الحياة الحرة المستقلة ، واذا لم يبن هذا الصلح على اسس تقضي على روح السيطرة والقوة التي كانت خطراً يهدد الامم منذ القديم.»

(من البيان الذي كتبه الحلفاء وسلمه المسيو بريان في ٣٠ ك ١ ١٩١٦ باسمهم الى سفير الولايات المتحدة في باريس رداً على مذكرة الرئيس ويلسن التي توسط فيها لانهاء الحرب)

* * *

«... وان الحلفاء يوجهون نظر الرئيس ويلسن وحكومة الولايات المتحدة الاميركية الى ان التعدي قد بدأ من المانيا والنمسا لتضمنا السيطرة الاقتصادية على العالم . ولقد اظهر الالمان في اعلانهم الحرب وخرقهم حياد بلجيكا ولوكسمبرج احتقارهم لكل مبدا انساني ولكل دولة صغيرة . ولسنا بحاجة الى التذكير بالفظائع التي ارتكبوها في أثناء اجتياحهم الاراضي البلجيكية والصربية ، والاحكام القاسية التي أعلنوها فيها ، والمذابح التي أودت بمئات الالوف من الارمن الابرياء ، والوحشية البربرية التي عومل بها سكان سوريا ، والقنابل التي أطلقتها طيارات زبلين على المدن غير المحصنة ، واغراق البواخر الحيادية ، والقسوة التي عومل بها اسرى الحرب ، ونفي السكان واستعبادهم ، فهذه الجرائم التي

ارتكبها الالمان والنمساويون والاتراك تشرح احتجاج الحلفاء على اتهامهم بما هم براء منه ...

« ... ان العالم المتمدن صار يعلم ان الحلفاء يحاربون لتحرير الشعوب الصغيرة من سيطرة القوة والبطش ، وتقرير حق كل شعب بحكم نفسه بنفسه ... وخلع نير الظلم الدامي عن عنق الشعوب الخاضعة للحكم التركي ... وتأمين السلام في ظل مبادىء الحرية والمساواة ... »

(من مذكرة الحلفاء الثانية الى الرئيس ويلسن في ١٠ ك٢ (يناير) ١٩١٧)

***

« ... واقترح على جميع الامم ان تتبنى ، بالاتفاق ، مبدأ الرئيس مونرو (١) كتشريع جديد للعالم ، وان لا تسعى اية امة الى اخضاع اي بلد آخر لسياستها ، بل يجب ان يكون كل شعب حراً في انتهاج سياسته الخاصة وان يختار بنفسه السبيل الذي يراه لخير ازدهاره ، دون ان يعتوره ما يرغمه او يرهقه او يخيفه ، حتى يتمكن

---

(١) الرئيس جايمس مونرو (١٧٥٩ـــ١٨٤٣) احد رؤساء الولايات المتحدة ويقول تشريعه المعروف باسمه بمنع تدخل الاوربيين والاجانب في اميركا :(اميركا للاميركيين)

۱۱۸

الصغير من السير الى جنب الكبير او القوي باطمئنان »

(من بيان الرئيس ويلسن الى مجلس الشيوخ الاميركي في ۲۲ ك ۲ ۱۹۱۷ عن الخطة التي يجب على حكومة الولايات المتحدة اتباعها في توسطها لانهاء الحرب)



رصاصة سيراجيفو

انطلقت رصاصة سيراجيفو ممهدة للحرب العالميـة — للمجزرة البشرية التي سعت اليها الدول سعياً ... — ولو لم يطلقها الفتى غافريلو برنسيب على فرنسوا فرديناند ولي عهد النمسا وعلى زوجته ، لاطلقها سواه على امير او وزير آخر ، ولو لم تنطلق تلك الرصاصة لتذرعت الدول بسبب آخر لاعلان الحرب ، لان سياسة « الترقيع » مع العهود السرية ، وسياسة المجاملات الكاذبة مع انتفاخ الصدور حقداً ، كانت قد بلغت حدها الاقصى . وكان رجال المال : أصحاب مصانع السلاح ، ومناجم الفحم ، ومعادن النفط ، والمطابخ الكيمية ، ومعامل القطن ، وحلفاءهم — وهم رجال الحل والعقد الحقيقيون في العـالم — قد سلكوا جميع السبل في تنافسهم ، ولم يبق أمامهم الا سبيل الحرب لتأمين تبسطهم ، فأعدوا لها الاذهان ، وهيأوا الاسباب ينتظرون ، وقضوا عشر سنوات كاملة في استنضاجها ، عاشت اوروبا في اثنائها في غليان ، كالقدر فوق النار ، ظمأى الى الدماء ... حتى رفع غافريلو يده في سيراجيفو قائلا لها : خذيها ... « رصاصة » تروي الغليل !

وبدت الذريعة التي كان رجال الحرب ينتظرونهـا ، فهبوا الى مجزرة لم يرو تاريخ « البشر » حوادث أفظع هولاً من جرائمها ، وساقوا اليها الجماهير بعد أن اسكروها بخمرة « الخيال القومي »

و« نداء الثأر » ، واصيبت الشعوب بمرض يشبه الكلب للقتل والتدمير، والتمثيل والتفظيع ،وكأني بالعالم ، وقد« شبع ! » من حياة الهدوء العذب ، والفن السامي ، والاحلام الانسانية الهائمة ، يلبي صوت الغريزة البهيمية الراسبة في دمه ، فيحن الى عهد التوحش الاول !؟

اندلعت لسان الحرب في اوروبا اولا ، فاعلن رجالها ، في كل ساحة ، انهم مدفوعون الى امتشاق الحسام لاجل الثأر لكرامة الوطن، والراية والعهود

وتوالت الاسابيع ، فشعروا بانهم في حاجة الى عطف العالم المتحايد فاعلنوا جميعهم ، من الجانبين ، انهم في حالة الدفاع عن تربة الجدود، لم يدخلوا الحرب الا مكرهين لصد غارة الاعداء عن الحدود

وتوالت الاشهر ، وكان الداء قد بدأ يفتك بالجميع ،من الجانبين، فاعلنوا انهم يحاربون لاجل تحرير الانسانية من مبادىء الظلم والتوحش والارهاق ، ولتحرير الشعوب الصغيرة المستعبدة من نير الحكومات الجائرة . وكان وزير كل دولة من دول المتحاربين يصرح بان حكومته لا تطمع باي فتح او تبسط او نفوذ ، وانما هي تضحي بابنائها وافلاذ اكبادها لراحة الانسانية ، بعون الاله المعبود !!

* * *

وتأزم الموقف واكفهر الجو ، وبلغ عدد الضحايا مليوناً من

البشر ، وهو « يشر » بالازدياد ، فوقف المسيو ارستيد بريان رئيس الوزارة الافرنسية يخطب في النواب ، في جلستهم المنعقدة في ٣ ت ٢ (نوفمبر) سنة ١٩١٥ ، فعرض لفكرة الصلح التي كانت تتوسط لها بعض الجماعات والدول ، وصرح بان فرنسا لن تفكر في طمع أو جشع ، او منفعة شخصية ، لقبول الصلح ، لان فرنسا ـــ وهنا يتكلم رئيسها بريان ـ : « كانت في الحرب نصيرة العالم ، وهذا من دواعي افتخارها وسيظل شرفاً لها ، ولقد هبت والسيف في يدها تحارب لاجل المدنية واستقلال الشعوب ، فهي لا تغمد سيفها الا عندما تكون قد نالت جميع الضمانات لتوطيد صلح ثابت مكين ، وعندما تقدم فرنسا وحلفاؤها هذا الصلح الثابت للدنيا تكون النيات المستورة لاجل السيطرة الظالمة قد توارت ، وافسحت المجال لفكرة الازدهار والمدنية في ظل حرية الشعوب المتمتعة بكامل استقلالها الذاتي ، هذا هو الصلح ، ايها السادة ، الذي يمشي اليه جنود فرنسا ، وهو وحده الخليق بنا ، والذي يجوز ان نفكر فيه ! » اهـ

ومضى اسبوع على تلك الخطبة التاريخية فعقدت الاحزاب الاشتراكية الاوربية مؤتمراً في زيمروالد (سويسره) وكان المؤتمرون من جميع الجنسيات ، المتحاربة والمحايدة ، يمثلون تمثيلا رسمياً ، اكثر من عشرة ملايين عامل يملأون ميادين القتال ، فبحث المؤتمر في

حالة الحرب بحثا مسهباً من جميع الوجوه ،الايجابية والسلبية ،واصدر في ١٢ ت٢ (نوفمبر) القرار التاريخي الآتي نصه :

« ان هذه الحرب انما هي النضال في سبيل الحرية ، وتآخي الشعوب ، والاشتراكية الانسانية ، فيجب اذن خوضها لاجل الصلح ، لاجل الصلح دون ضم أراض جديدة (استعمار أو حماية أو ... أو انتداب) ودون طلب تعويض حربي . ولكن صلحاً كهذا الصلح ليس ممكناً الا بشرط القضاء على كل فكرة ترمي الى سلب الشعوب حقوقها وحرياتها . ولا يجوز أن يؤدي الى احتلال بلدان سواء أكان الاحتلال كاملا أم جزئياً . يجب ان لا يبنى الصلح على اسس احتلال (ضم) أرض سواء أكان الاحتلال ظاهراً أم مستوراً ، ولا اخضاع بلد لنفوذ اقتصادي يؤدي الى القضاء على الاستقلال السياسي فيكون أكثر ارهاقاً . وأخيراً يجب ان يكون حق الشعوب في حكم نفسها بنفسها هو وحده الدعامة الراسخة في نظام علاقة الامم بعضها ببعض . » اهـ

***

اقتطفنا هذه الفقرات من مصدرين رسميين ، كان يحق لكل منهما — بموجب القوانين الرسمية والتقاليد المعمول بها — ان ينطق باسم الملايين التي خاضت غمار المجزرة ، ليعرب عن رأي تلك الملايين

في الاسباب التي حملتها على اقتبال الموت ، وفي الشرائط التي تراهـا لازمة لتوطيد السلام في العالم والقضاء على مسببات الحرب !

وواالله ، انه لـكلام عذب ونبيل : عذب في تذوقه ، يوم القائه ، ونبيل في مظهره ، قبل الوصول الى النتيجة

ولما تكمل السنة الواحـدة بعد ، على ذلك الـكلام المعسول ، فاقلب الصفحة واسمع :

دعا اللورد ادورد غراي في ٢٣ ت ١ (اكتوبر) سنة ١٩١٦ ، وكان وزير خارجية بريطانيا ، جمعية ممثلي الصحافة الاجنبية في لندن الى مأدبة عشاء ، تعودت اكثر الحكومات الاوربية والاميركية ان تقيم مثلها في كل سنة لممثلي الصحف الاجنبية ، فخطب اللورد الكريم ، في ذلك المساء ، خطبة سياسية عن الجزيرة الانكليزية ، وطلب الى مدعويه ان يبعثوا الى صحفهم في العالم بتصريحه الآتي نصه :

« .. اننا سنظل نكافح في هذه الحرب الضروس حتى تتم بناء اعـلاء الحق على القوة ، ونضمن ، في ظل المساواة وشرائطهـا ، حرية نمو جميع الحكومات ، الصغـيرة والكبيرة على السواء ،

التي تؤلف الانسانية المتمدنة » اهـ .

وواالله ، وبالله ، وتالله ، ان هـذا الـكلام حري بان يتسامى الى الـكلام المنزل ! فان « لسان » هؤلاء الاولياء الاطهار ، انما هو لسان

الحق وصوت الله على الارض :

ا ـ انهم يحاربون لاجل المدنية واستقلال الشعوب

ب ـ انهم لا يقبلون بالصلح الا بعد القضاء على فكرة التبسط والاستعمار ، وانشاء بشرية جديدة تعيش في ظل حرية الشعوب المتمتعة بكامل استقلالها الذاتي

ج ـ انهم لا يرضون باي صلح يبنى على احتلال بلد ما ، سواء أكان الاحتلال ظاهراً أم مستوراً ، كاملا أم جزئياً ، أو اخضاع بلد ما لنفوذ اقتصادي يؤدي الى القضاء على استقلاله السياسي

د ـ انهم لا يرضون الا بان يكون للشعوب حقها في حكم نفسها بنفسها ـ اي بالاستقلال ـ وان يكون ذلك الحق وحده الدعامة الراسخة بين الامم في علاقاتها ، بعضها بالبعض الاخر

هـ ـ وانهم ، أخيراً ، لا يغمدون ذلك السيف الذي شهروه ، لاجل المبادىء التي أعلنوها ، الا عندما يضمنون نمو جميع الحكومات الصغيرة والكبيرة ، على السواء ، في ظل المساواة !

واقلب الصفحة :

في ١٩ شباط (فبراير) ١٩١٦ وهو تاريخ سبقه بعض ذلك الكلام ، وسمع الناس بعده كلاماً آخر يؤيده معنى ومبنى ، في ذلك اليوم تم الاتفاق ... السري ... بين حكومات فرنسا وروسيا

وبريطانيا على ...

على ماذا ؟

على ... اقتسام السلطنة العثمانية !



لاجل النفط

وسمع المظلومون والمرهقون ، السائلون والمحرومون ، تلك الاصوات النبيلة ترتفع من خلال لعلعة الرصاص وأزيزه ، ودوي المدفع وهديره ، صارخة مؤكدة : انها حرب في سبيل الحق ، بريئة من كل طمع ، فغمرتهم نشوة الامل ، ولبوا النداء « السماوي » مثات والوفاً ، تركوا متاجرهم واهملوا مصالحهم وهجروا عيشهم الرغيد ، وقطعوا البحار من أميركا وافريقيا ، منخرطين في صفوف الحلفاء لتحرير بلدانهم (١) البائسة ، وليكون لهم شرف الاشتراك في تلك المهمة الانسانية المقدسة : مهمة القضاء على الظلم والارهاق ، واعلان مبدأ تقرير المصير !

وحمي الوطيس ، وبدأت المجاعة تفتك في بلدان كثيرة ، والامراض الوبائية تميت الالوف في اليوم الواحد : فسد الجو ، وفسد الهواء ، وكانت القنابل تحصد الافواج ، والطيارات تدمر القرى والمدن ، والغازات السامة تخنق المئات ، وملايين الاطفال والنساء والشيوخ يبيتون على الطوى ، ينتظرون الردى ، والعالم باسره مشحوب الضمير ،

---

(١) كان عقد التطوع في الجيش الافرنسي ينص على « ان المتطوع لا يستخدم الا في سبيل انقاذ delivrance بلاده » — غوتتوبيرون (ص٥٣)

من سوء المصير : في تلك الايام السوداء التي باتت فيها الساحة الغربية حائرة المستقبل ، لا الحلفاء يطمئنون الى فجره ولا هو يبتسم للالمان وانصارهم ، كانت ... شركات احتكار النفط تتابع مساعيها بحنكة واطمئنان لتأمين مطامعها ومراميها :

في مساء ٣ آب (اغوسطوس) ١٩١٤ ألقى السيرادوار غراي، في مجلس العموم ، خطابه التاريخي الذي حمل نواب الامة على اعلان الحرب « لان الالمان قد خرقوا حياد بلجيكا ، ونكثوا العهود الدولية » . وفي اليوم الثاني ، وكانت لندره في سكرة النفير العام ، احتجزت الحكومة الانكليزية الحصة الالمانية من رأسمال شركة « التوركيش بتروليوم » ، وحولتها الى الخزانة العامة على انها « ملك عدو » . (١) فصارت الانكلو برشيان ، أي أمارة البحر ، أي الامبراطورية البريطانية ، طليقة اليد في امتياز نفط العراق ، وأخذت تضع الخطط الحربية المنظمة ، يساعدها فيها بعض رجال الحكم ، للاستيلاء على منابع النفط في الشرق بقوة الفتح والاغتصاب : فخلقت « حملة الدردنيل » و« حملة العراق » !

يظن بعض متتبعي تاريخ الحرب الكونية ان الاتفاق السري

---

(١) نيكوليسكو (ص ١٤٤) — وتارديو في مجلة « الاولستراسيون » (ص ٣٨٠)

الذي وقع عليه ممثلو حكومات لندره وباريس وبطرسبرج ، في العاصمة الروسية ، سنة ١٩١٦ ، لاقتسام أجزاء السلطنة العثمانية ، والذي اشرنا اليه في صفحة سابقة ، لم يتم الا بعد حملة الدردنيل ، وهذا الظن يتخذه كتاب الاستعمار « لباساً » قانونياً لستر «وجوههم» به عندما يضطرون الى بحث هذا الموضوع ، فيحتجون ان دول الحلفاء الكبيرة — الطمع المثلث الاقانيم : روسيا وفرنسا وبريطانيا — قد لجأت اليه من جراء المواقع الحربية ، اذ كان لزاماً عليها ان تقضي على المساعدة العثمانية التي تستند اليها المانيا ، ولا يتم ذلك القضاء الا باحتلال العاصمة العثمانية ..

وهب ان في هذا القول بعض الصواب ، في حين ان الكتاب الحربيين قد انتقدوه من جميع الوجوه الفنية ، فاين الاستانة من البصرة ، و كوت العمارة ، وبغداد ؟ واية فائدة تكون للحلفاء من اضعاف الجبهة التركية ما داموا يقطعون المدد عن جيوشهم في الجبهة الغربية ، وهي قلب الحرب ، ليرسلوه للحملة الشرقية ؟

ان للحلفاء من تلك الحملة فائدة لا تقدر ، وهي الفائدة التي كانت من اشد العناصر الحاحاً في اعلان الحرب ، اعني بها فائدة الاستيلاء على النفط ، ولكن ليس من الانصاف في شيء ان ننسبها الى شعوب الحلفاء ، بل يجب ان نقول انها لفائدة امارة البحر البريطانية ، أي

الحملة اسم الانكلوبرشيان ، وقد ثبت الان — « رسمياً » — ان سياسة النفط هي التي خلقت فكرة الحملة على الدردنيل وعلى العراق ، وكادت تقضي على الحلفاء في الجبهة الغربية ، ولولا دخول الولايات المتحدة الاميركية غمرة القتال الى جانب الحلفاء ، لكان وجه الارض اليوم غير الذي يعرفه البشر !

وللسيد ل . م . فيننغ ، احد مديري ادارة النفط الاميركيـة ، وهي مؤسسة حكومية ، تقرير « رسمي ... » عن سياسة النفط التي خلقت فكرة الحملة الشرقية ، قال فيه : « ... اما الاعمال الحربيـة الانكليزية سنة ١٩١٤ في العراق ، فكان ظاهرها درء الخطر عن الهند ، ولكنها كانت في الحقيقة تدبيراً احتياطياً لمنع الالمان والاتراك من الاستيلاء على النفط في ايران ، ثم تطور ذلك «التدبير الاحتياطي» الى منهاج جديد ، يرمي الى التقدم الى الامام ... *أي الى تهيئة امر منتظر* ... وبينما القوات الانكليزية تمد خطاً حديدياً من مصر الى فلسطين ، كانت قوات غيرهـا ، من الجيش الانكليزي ، تمشي نحو الشمال ، نحو بلاد ما بين النهرين (العراق) ، ولم يكن ذلك المشي لحراسة الاراضي النفطية في ايران ، كما يظن ، بل ... للاستيلاء ... على ... الاراضي النفطية في ... الموصل !... (١)

(١) — فيشر (ص ٣١)

وقد صدق السيد فيتنتر في تقريره الرسمي ، لان الاحوال التي وصلنا اليها تثبت صحة قوله ، ولان الاشخاص « الاجانب » الذين ظهروا على مسرح الثورة العربية ، والذين تولوا شؤون الحملة الشرقية ، ووضعوا الاتفاقات والعهود المتعلقة بلادنا ، ظهروا الان في ... دور شركات النفط ، مؤسسين ، ومديرين ، ومساهمين !

وللسير ادوار غراي ، وزير الخارجية البريطانية يومئذ ، مقال مسهب في هذا الصدد ، خص به فصلاً كاملاً (الفصل العشرين) من مذكراته ، ووصف فيه بلبلة الاراء التي سادت وزراء انكلترة في تصميم الخطط الحربية ، اذ كان بعضهم يقول بوجوب حصر جهود الدولة في الجبهة الغربية ، لانها نقطة الحرب الاساسية ، واقل اهمال منهم في تلك الجبهة يؤدي حتماً الى تقوية موقف الالمان فيها : لان خلو بعض الميادين من الحلفاء يفسح المجال للجيش الغليومي لان يستولي عليها و « يتمركز » فيها . وكان بعض الوزراء يقول بوجوب احتلال المناطق الحربية الثانية ، في الشرق ، كالاستيلاء على الدردنيل و... بغداد ، لاضعاف الجبهة التركية ومنعها من مساندة الالمان . يصف السير غراي في مذكراته تلك البلبلة ، ولا يشير بصراحة الى سياسة الطمع في النفط العربي ، ولكنه يتألم من « تدخل الاشخاص المدنيين في شؤون حربية » ، وينصح لهم « بان لا يتدخلوا » في المستقبل ،

في الاعمال العسكرية الفنية ، ويعني الوزير في نصحه هذا ، المطبوع بقالب سكسوني ناعم ، لا تأتيه الشبهات من جانب ، ان طمع شركات النفط ، الذي حمل الجيش البريطاني على تلك انغامرات الخطيرة في الشرق ، كاد يقضي على مركز الحلفاء في الغرب !...

ولكنها سياسة الاستيلاء على النفط ، وسترى ان محتكريه ، وتجاره ، وقد كانوا في ظمأ الى سفك الدماء للحصول عليه ، سيطروا على الدول المتحاربة جميعها ، لتحقيق مطامعهم ، وحملوا حكومات الحلفاء على الخضوع لارادتهم ، لخدمة مراميهم ، فبلبلوا الصفوف المتحدة هدفاً ومصيراً ، وزادوا في اشباع الموت من ازهار الشباب ، واضطرت الدول المتحالفة ، بتأثير نفوذهم الفعال ، لان تعاكس احداها خطط الثانية ، في حين ان الخطر كان يهدد جميع الرؤوس على السواء ، وصارت كل حكومة تنجر « خازوقاً » لحليفتها ، وترغمها على مجاراتها ومسايرتها في كثير من الاعمال الخطيرة ، مغتنمة خوفها من تشتت الكلمة وتصدع الرأي في ذلك الموقف الرهيب . فكان الخائف يخضع لسياسة حليفه مكرهاً ، اذ يرى نفسه امام الامر الواقع !

ولقد كان الدهاء الانكليزي هو المغتنم غالباً ، فكانت فرنسا وروسيا الخائفتين الطائعتين . وذلك لان الانكليزي حكيم ، يعرف الهدف الذي يرمي اليه ، ويهيء عدته له من قبل خمسين سنة . وقد

كان يطمع في نفط العراق قبل الحرب ، فاسرع اليه منذ نشوب المعركة الاولى ليستولي عليه !..

ان الملم بتاريخ المجزرة البشرية يعرف في أي موقف حرج كانت فرنسا في الساحة الغربية ، واي خطر رهيب كان يحيط بها من جوانبها ، ويهددها في كل صباح ومساء ، اذ كانت نقطة الدائرة في موقف الحلفاء ، بل كانت قلب الحرب . ومن الحق ان نقول ان الشعب الافرنسي كان سخياً في تقدمة الارواح ، بطلا في الاستبسال ، وهو لا ناقة له في اسباب الحرب ولا جمل له من نتائجها ، وما اظن اني بحاجة الى تنبيه القراء الى اني أتكلم عن شعب لا عن حكومة....

كانت فرنسا قلب الحلفاء في الساحة الغربية ، وكانت نتيجة المجزرة مرهونة على قدر التضحية والاستبسال ، فماذا كان موقف الحلفاء من قلبهم ، وأي اتجاه سلك الانكليز اليه ؟

انهم كانوا في ... ميدان آخر ، يفكرون بأمر آخر :

كان الافرنسيون يطحنون تحت أسوار فردون والمارن ، وقنابل الالمان تدق عظامهم وتحصد أرواحهم الوفاً والوفاً في تغذية الموت ، وكان الانكليز — حلفاؤهم وشركاؤهم واخوانهم — يعدون الحملة الشرقية لاحتلال ... العراق !

ما هذا يا جماعة الـ... «خير» ؟

أتتركون بلجيكا وفرنسا تحت رحمة الالمان المزنحين بامل دك

حليفتيكما الى الحضيض ، وتتطون باسرع من البرق الى العراق ؟

أوما كان يكفيكم ان تحتلوا البصرة وتحصنوها تحصيناً قوياً ، وعندئذ تصبح الهند امنع من عقاب الجو ؟

لا !..

ان في العراق أبار النفط ، في الموصل انهار النفط !

والى ذلك يشير الشاعر العراقي الملهم ، بل الشاعر الانساني الصادق الاستاذ احمد الصافي :

جاءته حوت البحر ظامئة له … او ما كفاها بحرها العجاج

قد شب فيها نفطنا ناراً فهل … يطفي لظاها ماؤنا الثجاج ؟

سوريا الجغرافية

بدأت المجزرة البشرية في اوروبا ، فاتجهت انظار الانكليز الى الاستانة ، مفتاح البلاد النفطية الى البحرين الاسود والازرق ، والى البصرة ، مفتاحها الى البحر الاحمر ، فسيروا الى كل منهما حملة :

وما أن عرفت حكومة الدب الابيض بمشروع الحملة على الدردنيل حتى ابرقت وارعدت ، لان المضائق هي المنفذ البحري الذي تطمع فيه منذ عشرات السنين ، واستيلاء الانكليز عليه يجعلهم السادة المطلقين في البحر المتوسط ، من جوانبه الاربع ، ويحصر الروس وراء جبالهم الثانية عن المواصلات . فكتبت وزارة القيصر الى باريس ولندره في ٤ اذار (مارس) ١٩١٥ مهددة ، مزمجرة ، تقول بانها وحدها صاحبة الحق في احتلال الاستانة والمضائق ، والا فانها تستقل في ادارة وجهة الحرب على الطريق الذي تراه مفيداً لها . ولم يكن تهديد بطرسبرج بالصدمة الاولى التي أحدثت دوياً وجرجرة في صفوف الحلفاء ، فاضطر الفرنسيس والانكليز الى الملاينة والمسايرة ، والى الوعد والاغراء ، وجرت مفاوضات بين العواصم الثلاث ، وسافرت الرسل ، فوضع التمهيد الاول لحل تلك المشكلة بان قبلت فرنسا وانكلترا بمطالب روسيا على شرط أن تظل الاستانة مرفأ حراً ، وان تعترف حكومة القيصر بـ... «حقوق» الفرنسيس والانكليز في سوريا والعراق ! وعلى ذلك التمهيد جرت المفاوضات الثانية التي أدت الى

الاتفاق السري في ١٩ شباط (فبراير) من السنة التالية على اقتسام أرث الرجل المريض ، قبل وفاته !

ولعلنا « نخدم !... » مصالح الفرنسيس بتذكيرهم ذلك العهد ، ورجال السياسة « الصغيرة » منهم ، رجال السياسة الاقليمية ، يدركون أخطاءهم من اصرارهم على خطة التجزئة التي يرغمون البلاد السورية على الخضوع لها ، ولعل السيد بونسو معطل الدستور الذي وضعته الجمعية التأسيسية يقرأ هذه السطور فيعلم ان سوريا كانت « بلاداً سياسية واحدة لا تتجزأ ، ولا عبرة لكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب » (١) — لعلنا « نخدم !.. » مصالح الفرنسيس اذ نذكرهم هذه الحقيقة وذلك العهد ، ونذكرهم ان سوريا التي تكلموا عنها في الاتفاق السري ، لم تكن سوريا الحالية بل سوريا الطبيعية ، السياسية ، الكاملة ، ولقد حددها هذا التحديد الصحيح السيد جورج ليغ احد رؤساء الوزارة الافرنسية سابقاً ومن مشاهير وزراء البحر ، اذ ألقى في شهر أيار (مايو) من سنة ١٩١٥ خطبة ضافية في الجمعية الجغرافية بباريس عن مصالح فرنسا في الشرق ، وقد « مشت » تلك الخطبة

---

(١) نص البند الثاني من الدستور السوري الذي وضعته الجمعية المؤسسة وعطلها السيد بونسو الممثل السابق للجمهورية الافرنسية في سوريا

ومشروع الحملة على الدردنيل خطوة فخطوة ، فقال الوزير ليغ :
« ... ولن يكون البحر المتوسط حراً في نظرنا ، لن نظل سادته ،
الا اذا بقيت سوريا في منطقة نفوذنا ، ويجب ان يفهم من ذلك اننا
لا نعني سوريا المشوهة المجزأة ، بل سوريا الكاملة التي تعيش سياسياً
واقتصادياً وجغرافياً ، سوريا الحقيقية التي تمتد من العريش الى
طوروس ، ومن الموصل الشرقية الى شواطىء البحر » اهـ

وسبق الرئيس ليغ في هذا التحديد ، قائد من كبار رجال
الجيش الافرنسي هو الجنرال دي تورسي(١) في كتابه «مفكرات عن
سوريا » الذي وضعه قبل الحرب العامة ، قال « ... ومهما قيل بعض
الاحيان عن ان بعض اجزاء سوريا ، ولا سيما فلسطين ، قد سلخت
عنها مراراً ومدات طويلة ، فان الحقيقة التي لا ريب فيها هي ان هذه
البلاد — سوريا — واحدة ، جغرافياً وعسكرياً ، تؤلف منطقة
حددتها الطبيعة تحديداً منظماً كاملاً ، اما الاسباب التي تتخذ ذريعة
للقول بان سورية قد جزئت في تنظيمها السابق ، فهي اسباب سياسية
بحت ، وطابعها الاصطناعي كاف لازالتها ... » اهـ

هذا هو تحديد سوريا الحقيقي ، والسياسة الافرنسية « كانت »
تعرف هذه الحقيقة ، لانها كانت ما تزال امام امر لم يقع ، فهي اذن
تجهر بها ، وتتشبث بها ، ويعلنها رجالها الرسميون في خطبهم وكتاباتهم ،

---

(١) Gl. de Torcy

بل كان من المعقول ان يهددوا لاجل المحافظة على تلك الوحدة ، ولكن حملة الدردنيل جرتهم الى القبول بما كانوا ينتقدون ، لان سياسة النفط تريد ذلك !

سياسة النفط في العراق ، يا اخواننا السوريين المفصولين عنا ، العائشين تحت سيف الصهيونية ورقاعة المتزعمين منا ومنكم ، المتاجرين باسمنا واسمكم ، انها سياسة النفط في العراق يا احبابنا هي التي فرقت بيننا ، والدهاء الانكليزي لم يسلم بان يجري النفط في انابيب مدفونة تحت تربة يخيم عليها علم فرنسا .

كان الانكليز ، الحكماء في الحرب ، والدهاة في السلم ، يطبقون برنامج شركة « الانكلوبرشيان » ، منذ كانت الاقطار العربية ماتزال تحت السيطرة العثمانية ، وشركة النفط الانكليزية الفارسية التي وضعت خرائط الحرب في الشرق منذ انطلقت رصاصة سراجيفو — وربما قبل ذلك التاريخ — هي التي غذت بمالها الحملة الشرقية ، وهي التي أجرت ، من وراء الستار ، مفاوضات الاتفاق السري لاقتسام السلطنة العثمانية بين الروس والفرنسيس والانكليز ، وهي التي وضعت بعدئذ اسس اتفاق سيكس بيكو ، وهي التي جعلت مرفأ حيفا في منطقة النفوذ الانكليزي ليمتد الخط الحديدي من بغداد اليه ، فهل يكفي مقال للقائد دي تورسي ، وخطبة للشيخ جورج ليغ ، و « احتجاجات » صبيانية من مرتزقي السياسة ، لمنع الدهاء الانكليزي من متابعة عمله ،

و تحقيق غرضه ؟ وهل تصلح السياسة الهوجاء ، وهي كريشة في مهب الريح ، لا تستقر على حال ، لان تمنع اصحاب الرزانة الخبيثة من الحصول على النفط ؟

لا !... ان سياسة الانكلوبرشيان ، اي سياسة امارة البحر البريطانية ، التي حاربت الروس ثم هادنتهم ، وخاصمت الالمان ثم حالفتهم ، وقاومت الفرنسيس ثم اتفقت معهم ، وحاولت الغدر بالروس بعد مهادنتهم ، ولكنها اضطرت الى ملاينتهم ، ثم حاربت الالمان وغدرت بالروس فالفرنسيس ...! وبكل من وقف حجر عثرة في سبيل حصولها على النفط — ان تلك السياسة « لا كبر » من أن يؤثر فيها مقال ، وخطاب ، واحتجاج !

فاسمع الغرائب من حوادثها :

الاقوياء الصادقون

انتهينا من المرحلة الاولى التي مرت فيها سياسة الاستيلاء على النفط في الشرق العربي ، وهي مرحلة النزاع الصريح ، العلني ، قبيل اشتعال المجزرة البشرية ، بين الدول عامة ، وبين الانكليز والالمان خاصة ، فشاهدنا العنجهية الغليومية ، والغطرسة الجرمانيـة ، أقل خبثاً في اظهار مطامعها من المكيافيلية الانكليزية . وهـا نحن الان في المرحلة الثانية ، في ابان المجزرة ، في الايام العصيبة التي كانت فيها الدول الاوروبية غرقى في محيط من الدماء ، فانتقل النزاع على ابار النفط الى ميدان جديد : اذ صار بين الحلفاء من جهة وبين الدول المركزية من جهة ثانية ، ثم بين الحلفـاء انفسهم ، وبين الانكليز والفرنسيس على الاخص . فلينتبه القارىء – « العربي » – الى فصول هذه المرحلة ، وليحفظ التواريخ التي سنذكرها :

في اي يوم وقف المسيو بريان ، رئيس الوزارة الافرنسية ، يخطب في مجلس النواب عن « السيف الذي شهرته فرنسا لاجل المدنيـة ، ولاجل استقلال الشعوب » ؟ وفي أي يوم قال ذلك الخطيب المصقع « ان السلام الذي تسعى اليه فرنسا وحلفاؤهـا لا يتم ، الا عندمـا تتوارى النيات المستورة لاجل السيطرة على العالم » ؟

خطب المسيو بريان ذلك الخطاب باسم الحكومـة الفرنسية التي كان رئيسها ، في ٣ ت٢ (نوفمبر) ١٩١٥

تشرفنا !

فاسمع الان ماذا يقول السير ادوار غراي ، وزير الخارجية البريطانية ، في ذلك العهد ، في مذكراته : (١)

« ان الاتفاق السري بين فرنسا وانكلترا وروسيا ، المتعلق بمناطق النفوذ في اسيا الصغرى ، كان بتدبير فرنسي ، ولكي يعرف القراء بدء مرحلته انشر لهم البرقية التالية ففيها الكفاية :

« وزارة الخارجية في ٢٣ اذار (مارس) ١٩١٥

« من السير ادوار غراي الى السير فرنسيس برتي (سفير بريطانيا في باريس)

« لقد اعلمني المسيو كامبون (سفير فرنسا في لندرة) في هذا اليوم ان المسيو دلكاسه (وزير خارجية فرنسا) بعث يوجه نظر السفير الى ان قضية الاستانة والمضايق التي تهم روسيا بوجه خاص ، قد سويت منذ الان ، فكان لفرنسا وبريطانيا العظمى، على الاخص ، ان تدرسا القضايا الاخرى المتعلقة باسيا الصغرى. واذن ، فالمسيو دلكاسه يقترح اجراء مفاوضة شبه رسمية ، ان كتابةً ، وان في شكل رسالة شخصية ، تبحث في الرغائب الافرنسية والبريطانية . ويمكن اجراء تلك المفاوضة مع فخامتكم في باريس ، أو هنا في لندرة بين المسيو

(١) — الترجمة الفرنسية ، طبعة بايو في باريس ، سنة ١٩٢٧ ص ٢٥٠ و٥٢١

كامبون وبيني

« ولقد قبلت بهذا الاقتراح مرجحاً ان تجري المفاوضة هنا ، لان مجلس الحكومة لم يتسع له الوقت حتى الان ليفكر في رغائبنا التي يجب ان يتناقش فيها مجلس الوزراء ، اذ يجب ان تحال اليه في اثناء المفاوضات . ولقد زدت على ذلك بقولي للمسيو كامبون اننا كنا قد اشترطنا انه عندما يتوارى الحكم التركي عن الاستانة والمضايق ، يجب ان يكون في مكان آخر ، وذلك لفائدة الاسلام ، دولة سياسية ، اسلامية ، مستقلة ، يكون مركزها طبعاً في الاماكن الاسلامية المقدسة ، وتشمل البلاد العربية ، ولكن يجب التروي في تقرير ما يوافقنا من الحاق بعض البلدان بهذه المملكة ، لاننا لم نبت حتى الان في ما اذا كانت البلاد العراقية ستكون جزءاً منها (من المملكة العربية السياسية المستقلة) ام اننا نطالب بها لتكون لنا وحدنا (!...)

« فاجابني المسيو كامبون انه يعتقد ، في الواقع ، انه من الافضل النظر في جميع فروع هذه القضية بطريقة شبه رسمية ، كما اقترحت وتفضلوا بقبول الخ ... الامضاء : ادوار غراي » اهـ

في ٢٣ اذار ١٩١٥ تبدأ المفاوضات « السرية » الرسمية للبحث في الرغائب الفرنسية والانكليزية في اسيا الصغرى ، وبعد سبعة اشهر وعشرة ايام ، على التمام ، يقف المسيو بريان متغزلاً بسيف

قرنسا المشهور لاجل ... المدنية و... استقلال الشعوب ! وبعد سنة وستة ايام كاملة من تلك الخطبة يعلن السير ادوار غراي ، باسم الحكومة البريطانية ، لصحافة العالم ، ان الحلفاء « سيتابعون النضال حتى يضمنوا للدول جميعها ، الصغيرة والكبيرة ، حرية الازدهار في ظل اسس المساواة التامة »

تشرفنا !

فاسمع بعد :

في ١٦ نوار (مايو) ١٩١٦ — قبل خطبة السير ادوار غراي — تم الاتفاق بين السير مارك سيكس باسم الحكومة البريطانية ، والمسيو جورج بيكو باسم الحكومة الفرنسية ، على اقتسام البلاد ... العربية ، التي وعد الحلفاء « حليفهم » الشريف حسين بالاعتراف باستقلالها !

وقد اشتهر ذلك الاتفاق باسم واضعيه

اتفاق سيكس بيكو

ليس المجال متسعاً لتحليل اتفاق سيكس بيكو بنداً بنداً ،وشرح مراميه وتناقضاته جملة جملة ، فانه يحتاج الى مجلد مستقل ، ولكننا نكتفي منه الان بالاضاءة على ما نحن في صدده ، من شرح سياسة النفط التي كانت العنصر الاول في تسيير دفة الحرب في الساحة الشرقية :

نص البند الاول من ذلك الاتفاق « المبارك... » على ان حكومتي فرنسا وبريطانيا « مستعدتان... » لان تعترفا بحكومة عربية في مقاطعتي الف وباء ، ولان تحمياها . وهاتان المقاطعتان تشملان في الخارطة الملحقة بالاتفاق ، ولايات دمشق وحلب والموصل (مقاطعة الف) وحكومة شرقي الاردن الحالية (مقاطعة باء)

ولينتبه القارىء الى نية الحكومتين في قولهما انهما « مستعدتان... » Disposes ولا نعلم السبب الذي منعهما من الاعتراف الصريح ، وكان الشريف حسين ، ابو الثورة القومية ، قد اعلن انفصال الاقطار العربية عن حكم السلطنة العثمانية وانضم الى صفوف الحلفاء ، بل الى صفي فرنسا وبريطانيا على الاصح .

على ان استعداد الحليفتين الكريمتين للاعتراف بحكومة عربية في مقاطعتي « ا » و « ب » لم يكن ليعني ان هذه الحكومة ، الموقوفة حياتها على « استعدادهما » للاعتراف بها ، ستكون مستقلة ! فقد نص

البند الاول عينه ، الذي اوجد تلك الحكومة ، على ان تكون فرنسا صاحبة الاولية (الافضلية) في المشاريع والقروض المحلية في المقاطعة الاولى (ولايات دمشق وحلب والموصل) وتكون بريطانيا صاحبة الافضلية في المشاريع والقروض المحلية في مقاطعة « ب » المعروفة اليوم ببلاد شرقي الاردن . وعلى ان يكون لفرنسا وحدها في مقاطعة « ا » ولبريطانيا وحدها في مقاطعة « ب » حق تقديم المستشارين، او الموظفين الاجانب ، عندما تطلبهم الحكومة العربية

أما استقلال ... ما شاء الله !

ولا يجفلن القاريء فالمهزلة لما تبدأ :

ماذا فعلت حكومتا باريس ولندره بالاقطار العربية الباقية التي « سلخت » عن السلطنة العثمانية ، وبالاقطار الاخرى التي ليست تركية اللحم والدم مئة في المئة ؟

قسموا بعضها الى قسمين ، واطلقوا على القسم الاول اسم « المنطقة الزرقاء » وعلى الثاني اسم « المنطقة الحمراء » — والعياذ بالله من اللون الاحمر فهو نذير الشرور والحرب والدم !

اما « المنطقة الزرقاء » فهي السواحل السورية جميعها من حدود عكا حتى الاسكندرونة — ولبنان منها يا غبطة البطريرك الماروني ! — ثم تمتد الى كيليكيا كلها وسيواس و كردستان وخربوط وديار بكر . واما المنطقة الحمراء فهي العراق الحالي ... الا ولاية الموصل ، حتى

الخليج الفارسي مع خط « صغير » يمتد الى ... عكاء وحيفا

ونص البند الثاني على ان تكون فرنسا صاحبة الحق المطلق في ادارة المنطقة الزرقاء بالحكم المباشر ، او غير المباشر ، كما تشاء ويشاء لها الهو « ا » والظروف ، والطقس الجميل ، وعلى ان تكون بريطانيا صاحبة ذلك الحق عينه في ادارة المنطقة الحمراء

وجعلوا القسم الجنوبي من سوريا الطبيعية ، الكاملة ، التي سمعنا تحديدها من فم الوزير الافرنسي الكبير جورج ليغ ، ومن القائد دي تورسي، جعلوا القسم الجنوبي من سورية (اي فلسطين) منطقة « رمادية » يؤسس فيها حكم دولي ... يقرر شكله فيما بعد بالاتفاق مع الحلفاء الاخرين ومع ممثلي شريف مكة ! . (وكان اليهود يومئذ ما تزال صناديقهم مقفلة في وجه الحلفاء)

ونص البند الرابع على ان « تمنح »Accordes بريطانيا مرفأ عكاء ومرفأ حيفا

ونص البند الخامس على ان « تكون » مدينة الاسكندرونة مرفأ حراً بما يتعلق بالتجارة البريطانية ، ولن ينشأ فيها اي فرق في المعاملة المختصة برسوم الميناء ، ولا ان تمنح فرنسا افضليات خاصة تحرم منها الملاحة البريطانية والبضائع البريطانية . ويكون للبضائع المذكورة (الانكليزية) حق المرور الحر (ترانزيت) من الاسكندرونة ،وبواسطة الخط الحديدي في المنطقة الزرقاء (السواحل)

سواءً أكانت تلك البضائع واردة الى المنطقة الحمراء او الى منطقة «ب» او الى منطقة «ا» ام صادرة منها ، ولن يكون اي فرق في المعاملة يضر بالبضائع الانكليزية سواء أكان مباشراً أم غير مباشر، في اي خط حديدي ، او يضر بالبواخر الانكليزية في اي مرفأ من مرافىء المناطق المذكورة

ونص البند السادس على وقف تمديد الخط الحديدي في منطقتي «ا» و «ب» الا باشتراك الحكومتين وحدها

. ونص البندالسابع على ان يكون لبريطانيا حق بناء خطحديدي من حيفا الى العراق وان تديره وتملكه «وحدها ...» وقد تدارك الدهاء الانكليزي تعذر بناء هذا الخط فاشترط في البند السابع ان فرنسا تسمح عندئذ بمد الخط المذكور في اراض تابعة لمنطقة «ا»

ونص البند الثامن على ان تظل المكوس (الرسوم الجمركية) التي وضعتها الحكومة التركية قبل انسحابها من البلاد ، معمولا بها في جميع هذه المناطق الملونة ، لمدة عشرين سنة ، ولا يجوز زيادة اي رسم ، او تعديله ، الا باتفاق الحكومتين . وعلى عدم ايجاد جمارك داخلية بين المناطق المذكورة ، ودفع الرسوم التي تستوفى عن البضائع الواردة الى الداخل للادارة التي تخضع لها البلاد المستوردة . (وهذه هي فكرة المصالح المشتركة)

ونص البند التاسع على ان لا تتخلى احدى الدولتين عن اي

« حق ... » من هذه الحقوق لدولة اجنبيـة ــ الا اذا كان التخلي للحكومة العربية القائمة في منطقتي « ا » و « ب » ــ ما لم تتفقا على ذلك

ونص البند العاشر على تعهد الدولتين بالمحافظة على الحالة الراهنة في جزيرة العرب ، ومنع اية دولة من بناء حصن بحري في جزر الجهة الشرقية من البحر الاحمر

ونص البند الحادي عشر على ان تظل المفاوضات مع العرب لتحديد اراض الحكومة العربية المنوي الاعتراف بها في منطقتي « ا » و « ب » جارية كالسابق باسم الحكومتين

ونص البند الثاني عشر ، والاخير ، على ان الحكومتين تتفقان على اجراء تدابير تتعلق بمراقبـة السلاح الذي يـدخل الاراضي العربية ! » اهـ

هذا موجز اتفـاق سيكس بيكو الذي وقعت عليه حكومتـا لندرة وباريس في ١٦ ايار ١٩١٦ فماذا نرى فيه ؟

نرى ان الحكومة البريطانية لم تبر بوعدها لحليفتها فرنسا ، في ان تكون سوريا الطبيعية ، الكاملة ، تحت النفوذ الفرنسي ، وقد اشار المسيو بوانكاره صراحة الى ذلك الوعد في خطبته عن علاقات فرنسا بسوريا ، في ٢١ ك ١ (ديسمبر) سنة ١٩١٢ في مجلس النواب

ونرى ان رجال الحكومتين ، بريان وغراي ، وغير بريان وغراي ،

كانوا يظهرون ان الحلفاء لم يمتشقوا الحسام الا لاعـلاء كلمة الحق ، وتحرير الشعوب المستعبدة من نير الظالمين ، وانشاء حكومات مستقلة تعيش جميعها ، الكبيرة والصغيرة منهـا على السواء ، في ظل المدنية والمساواة ... وكانوا — رجال الحلفاء — يضمرون ان امتشـاق الحسام هو لـكل فكرة استعمارية وتبسط ، وللسيطرة على كل بلد وان اقتصادياً ، وان حق الشعوب في تقرير مصيرهـا هو للشعوب الاوروبية وحدها !

ونرى ان الحكومة البريطانية ، وفي الواقع رجـال امارة البحر ، اي شركة النفط الانكليزية الفارسية ، رمت من وراء ذلك الاتفاق الى تأمين مطامعها من نفط العراق ، وتأمين ايصاله من ينـابيعه الى البحر المتوسط في اراض تكون خاضعة لها خضوعاً تاماً ، ولا ريب بان فرنسا لم تحرم نصيبها من ذلك النفط في الاتفاق المذكور ولكن الفضـل في ذلك ليس لذكاء المفاوض الفرنسي بل لدهاء البريطاني في تخدير العقول وستر الشبهـات ، وهو لم ينم على الغبن اذ تمكن ، بعد اربع سنوات ، من الغدر بالفرنسيس فسلبهم الموصل من منطقة نفوذهم بحيلة تاريخية لم يطلع الرأي العام العربي على حقيقة منهاجهـا وخططها حتى الان

ونرى اخيراً اننا كنا ، نحن العرب المقيمـين في منطقة النفوذ الفرنسي ، ألعوبة بيد الانكليز ، وقد لعب معنا الفرنسيس ايضاً في يد

الانكليز ، وكانت حكاية الحكومة العربية في الداخل ، وهي المعروفة بمنطقة « ا » في البند الاول من الاتفاق ، أحبولة ليصطاد الدهاء السكسوني بها . وكان المغفور له الملك فيصل ، وكنا معه ، ليمونة حامض ... للعصر ، فالرمي !



استغلال العرب و...الموصل

في الوقت الذي كان الروس والفرنسيس والانكليز يتفاوضون — « سرياً » — لتوزيع نفوذهم في السلطنة العثمانية ، وقبل ان يتم الاتفاق بين السير مارك سيكس والمسيو جورج بيكو على اقتسام لبنان وسوريا وفلسطين وشرقي الاردن والعراق — كان الحلفاء يفاوضون الشريف حسيناً ، امير مكة ، لينضم والعرب الى صفوفهم لقاء اعتراف هؤلاء الحلفاء بانشاء دولة عربية « سياسية » مستقلة » تنسلخ عن السلطنة العثمانية .

فاوض الحلفاء الشريف حسيناً لاعلان الثورة على خليفة المسلمين، وكان لسانهم في تلك المفاوضة السير هنري ماك ماهون، المقيم الانكليزي العام في مصر ، واتفق الفريقان على العمل المشترك ضد الاتراك ، فكان من نتيجة ذلك الاتفاق ان تبدل الموقف الحربي في الساحة الشرقية تبدلاً عظيماً ، أشار اليه المرحوم الشيخ فكتور بيرار ، ذلك الفرنسي الحر ، في خطبته التاريخية في مجلس الشيوخ الفرنسي ، اذ قال : « ... اجل ، انه ، بفضل ذلك الاتفاق مع العرب ، لم يعلن المسلمون الجهاد (الحرب المقدسة) علينا، في مجموعة ممتلكاتنا الاسلامية، وبفضل ذلك الاتفاق (مع العرب) ايضاً ، تمكنا من دخول فلسطين وسوريا ... » (١)

---

(١) — مناقشات مجلس الشيوخ ، محضر جلسة ٢٨ تموز ١٩٢٠

ولكن الفرنسيس يزعمون ، ونحن نعرف اسباب زعمهم ، انهم كانوا يجهلون ذلك الاتفاق ، بحجة ان الانكليز هم الذين اجروه بواسطة ممثلهم السير هنري ماك ماهون في مصر ، فذمتهم بريئة ، اذن، من وعوده !

فهل هم صادقون في زعمهم ؟

يقول البند الحادي عشر من « اتفاق سيكس ــ بيكو » ــ وقد تم هذا الاتفاق بعد اتفاق الشريف حسين والسير ماك ماهون ــ ان المفاوضات التي بدأت بين الانكليز والعرب لاجل تحديد المملكة العربية ، المنوي انشاؤها في ولايات دمشق وحلب والموصل ، وفي منطقة شرقي الاردن حتى الشمال الغربي لبغداد ، « ستظل جارية ، كالسابق ، باسم الحكومتين » . ويفهم جلياً من هذا الكلام ان الفرنسيس كانوا عارفين ، وهم يعترفون ، بان هناك مفاوضات جرت « في السابق » بين الانكليز وابي الثورة القومية ، وانهم قبلوا ، وعاهدوا حلفاءهم على القبول ، بان تظل المفاوضات جارية « باسم الحكومتين » الانكليزية و... الفرنسية !..

نستشهد بهذا القول « الرسمي » الذي اعترفت فرنسا بصحته ، بتوقيع ممثلها المسيو بيكو عليه ، ونستشهد بقول آخر ، فيه رائحة رسمية ، وهو مقال لجريدة « الديلي تلغراف » اللندنية نشرته في ١١

ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ في هذا الموضوع ، وقالت فيه : « ... ان الذين يجهلون نصوص الاتفاق المعقود بين انكلترة وشريف مكة (المرحوم الملك حسين) يؤكدون ان المسيو بيكو لم ينتبه الى وجود ذلك الاتفاق (يوم وقع على اتفاق سيكس بيكو) وهذا غير صحيح !... ولسنا بحاجة الى لفت نظر قرائنا الى ان جميع التفاصيل المتعلقة بتحديد خط المملكة العربية ، التي قررت مع الحسين ، عرضها الانكليز ثانية على الفرنسيين ، عملا بالواجب عليهم ، وقد قبل بها الفرنسيون في اتفاق سيكس بيكو » اهـ

وقد نقل هذا المقال الكونت دي غونتوبيرون في كتابه « كيف استقرت فرنسا في سوريا » وعلق عليه بقوله (١): « ان مقالات الدايلي تلغراف ، كانت تكتب يومئذ بوحي الوزير الاول ، لويد جورج ، وكانت من تعاليمه ، ان لم يكن قد كتبها بخط يده !... » و« النكتة » في هذا التعليق هي ان الكونت دي غونتوبيرون المذكور ، كتب كتابه بايعاز الحكومة الفرنسية ، او تشجيعها ، وتوجه بهذه العبارة : « اودع هذا الكتاب في وزارة الداخلية سنة ١٩٢٢ » !

ويريد الفرنسيون أن يثبتوا سوء نية حلفائهم الانكليز في اتفاق الشريف حسين والسير ماك ماهون ، فينسبون اليهم أقوالاً ، لا نعلم

(١) — ص ٣٠٥

مبلغ وزنها من الصحة (١) ، ليبعدوا عن فرنسا شبهة الغدر ، والنكث بالعهود ، وليبرهنوا على ان الانكليز لم يكونوا « اكثر » عفة منهم في استعباد العرب ، فمن واجبنا — نحن العرب — ان نصدق كل كلمة سوء يقولها احد الاخوين في أخيه ، لانهما صادقان في تشاتمهما ، وتشهير احدهما بالاخر صحيح بدليل ان هذا النير الذي ربطه الاثنان في عنق العرب ، ما يزال يحز حزه!... وليست عمان باقل بؤساً من لبنان ، ولا دمشق باقل عذاباً من القدس !

وذلك كله لاجل ... النفط !

---

(١) يروي الجنرال بريمون الفرنسي في كتابه عن « الحجاز في الحرب العالمية » ، وقد كان هذا القائد رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في جده ، وله اطلاع واسع على حياة الثورة العربية في سنتيها الاولين ، يروي القائد في هذا الصدد حديثاً دار بين السير مارك ماك ماهون ، بطل الاتفاق الانكليزي الفرنسي ، وبين المسيو ميله ، رئيس البعثة الفرنسية ، في جده ، عن الثورة العربية ، فقال الانكليزي لحليفه : « ... ولا ريب بان القبائل جميعها ستبلي البلاء الحسن في هذه الحرب ... على اننا سنحملها على الاعتقاد بانها تحارب لاجل استقلالها... » ثم قال ماك ماهون : « لاجل القيام بعمل متقن ، يجب السعي الى الفائدة السريعة ... ولدينا متسع من الوقت لاقتسام الاراضي بعد انتهاء الحرب » — ص ١٤٢

ولا بد للقارىء ان يتساءل بحق ، وقد عرف « شيئاً » من الاسرار الرهيبة التي بنيت عليها سياسة النفط ، واطلع على بعض نواح من النضال المستمر بين المحتكرين ، المسيرين حكومات دولهم لتأييد مطامعهم في الحصول عليه ، نضال ظلم البلدان الضعيفة ، والشعوب الصغيرة ، وقتل الابرياء ، افراداً وجماهير ، ولم يعف عن دس السم لبعض الزعماء والرؤساء ، — وقد يكون بينهم ملوك — الذين كانوا يقارعون الاستعمار الاجنبي الرامي الى الحصول على النفط — يحق للقارىء ان يتساءل بدهشة واستغراب عن الاسباب التي حدت بالانكليز الى « التنزل » عن ولاية الموصل للنفوذ الفرنسوي في اتفاق سيكس بيكو ، وهي المنطقة التي نظروا اليها منذ نصف قرن واكثر بعين الطمع ، ووقفت حكوماتهم سياستها الشرقية على محورها ، وبذل سفيرهم في الاستانة السير لويس مالت ، جهداً جباراً ومساعي جمة للحصول على « رخصة » استخراج النفط من اراضيها ، وكانت ابدأ حلقة التشاد بين الاستعمارين السكسوني والجرماني في السلطنة العثمانية ، ولا سيما في قضية خط برلين بغداد الحديدي ، ما هو ذلك « البله » الذي حمل السير مارك سيكس على « التنزل » لزميله جورج بيكو عن الموصل وجعلها منطقة نفوذ فرنسي ؟

بله ، واهمال ، وغفلة ؟؟

هكذا يظن بعض الساسة الفرنسيين ، وقد ذهب الى هذا القول

كتابهم ، فاتهموا المفاوض الانكليزي بانه كان جاهلاً خطورة شأن الموصل ، وما لهذه المنطقةالنائية من اثر عظيم في مصالح الامبراطورية البريطانية الحيوية . وتمادى الكتاب الفرنسيون في المجون ، والمجون صفة ملازمة ادباء اللاتين ، حتى في المواضيع الجدية ، وطابعهم موسوم بالنكتة ابداً ، فقالوا ان السير مارك سيكس كان يجهل حقيقة اهمية الموصل ، ولكن مفاوضه الفرنسي ، جورج بيكو ، لم يكن اكثر « ذكاء » منه ، وكان هو ايضاً يجهل اهمية الموصل ولكن الصدف جعلت « الحظ » الفرنسي يربحها — كذا !

ولكن ، هل هذا صحيح ؟

أيجرؤ انسان في الدنيا على القول بان الانكليزي الذي يفاوض اجنبياً يكون جاهلاً تفصيل ما يفاوض عليه ؟ وهل يجهل عاقل ان الانكليزي الذي يفاوض باسم جلالة الملك وامبراطور الهند ، يكون عارفاً بتفاصيل المفاوضة قبل الشروع بها ، وهو فاخوري السياسة يركب اذن الجرة حيث يشاء وتشاء مصالح امبراطوريته ؟

اجل ، كبروا عقولكم قبل اتهام الانكليز بالغفلة او البله ، و« احسنوا » الظن بالناس لئلا تصبحوا مثلنا ، اعني بحاجة الى ... انتداب !

ان سادتنا الانكليز ، يا زملاءنا الفرنسيين ، كانوا يعرفون اهمية الموصل اكثر مما يعرفها غيرهم ، ولكن لهم دهاء منطقياً ، محكماً ،

وضعياً ، « رقياً » ، واحد وواحد يساويان اثنين — في حسابهم ، اي الحساب الذي « لهم » ... — وعندما تنزلوا عن الموصل لنفوذ الفرنسي في اتفاق سيكس بيكو كانوا يريدون ابعاد الدب عن كرمهم ، الدب الروسي المجاور الموصل ... فقد سبق للحلفاء الثلاثة ، الروس والانكليز والفرنسيس ، ان تقاسموا السلطنة العثمانية في اتفاقهم السري المؤرخ في ١٩ شباط (فبراير) ١٩١٦ و « وهبوا » القيصر ما كان يطمع فيه من ارث الرجل المريض ، وبقيت حصة فرنسا وانكلترة بلا تحديد نهائي لتسوى في ما بينهما ، وقد سويت في اتفاق سيكس بيكو

اما حصة الروس في ذلك الارث فقد امتدت في اسيا الصغرى حتى ... الموصل ، اذ اخذت حكومة القيصر ولايات ارضروم وطرابزون ووان وبتليس ، وبلاد كردستان الجنوبية حتى العمادية التي كانت يومئذ على حدود ايران ، والعمادية هي اليوم في لواء الموصل ، وفيها طبخ الاستعمار دسائس التياريين الاخيرة ... التي اسمتها صحف الاستعمار بالثورة الاثورية !!! فيتضح من هذا التحديد ان الدب الابيض ، بموجب نصوص الاتفاق السري المثلث بين الحلفاء كان يجاور الموصل ... والانكليز اكثر ذكاء ودهاء من ان يأتوا بالدب الى كرمهم ، وليس من المعقول في شيء ان يكونوا جيران الروس في منطقة هي اقرب الى روسيا منها الى انكلترة ، وليس من المعقول ان يعيشوا في ذلك الجوار مهددين ابداً بالاصطدام ، والاحتكاك سهل

وقريب المنال وموجع للرأس ، لذلك نصح لهم دهاؤهم السكسوني بان يأتوا بحلفائهم الفرنسيس اليها ، ليكون هؤلاء حداً فاصلا بينهم وبين الروس ، وعندئذ يأمنون شر الاصطدام بل ربما كان عملهم ذلك لخلق المتاعب بين حكومتي بطرسبرج وباريس ، وتوتير العلاقات الودية بين العاصمتين الصديقتين . فيكون الدهاء السكسوني قد اصاب بحجره عصفورين معاً : اي انه ابتعد عن خطر الاصطدام بالدب الابيض ، واورث الفرنسيين وجع الرأس !

ولكن ، ايظن القارىء ان الانكليز اكتفوا بهذه الصفقة الرابحة من تحويل اراضي النفط الى منطقة النفوذ الفرنسي قبل ان يضمنوا المستقبل ويؤمنوا على كامل « حقوقهم » فيها ؟

ان اتفاق سيكس بيكو قد تم بعد مكاتبات تفسيرية جرت بين السير ادوار غراي وزير الخارجية البريطانية ، والمسيو بولس كامبون سفير فرنسا في لندره ، فهل تعرف ما كانت تنطوي عليه « روح » تلك المكاتبات التفسيرية ؟

بعث السفير الفرنسي كامبون الى الوزير الانكليزي غراي كتاباً في ٩ نوار (مايو) سنة ١٩١٦ مع نصوص الاتفاق المذكور يقول له فيه انه « مكلف باعلامه ان الحكومة الفرنسية قد قبلت بالحدود التي رسمت في اتفاق سيكس بيكو ، وقبلت ايضاً بالشروط الاخرى

التي اثير بحثها في اثناء المناقشات التي دارت بين المفـاوضين . ولذلك فانه يرجو أن يتكرم الوزير ويعلمه في حالة موافقة الحكومة الانكليزية على تلك الشروط »

وكان جواب الوزير الانكليزي، في ١٥ نوار ، على كتاب السفير ما يلي :

« سأتشرف بالجواب الكامل في مذكرة مقبلة على مذكرة معاليكم المؤرخة في ٩ من الشهر الحالي والمتعلقة بانشاء دولة عربية ، ولكني اكون ممتناً لمعاليكم اذا تمكنتم في هذه الاثناء من التأكيد لي بان جميع الامتيازات البريطانية الموجودة ، وحقوق الملاحة، وحقوق

الامتيازات الخاصة بجميع المؤسسات الدينية ، والمدرسية ، والطبية ، تظل معترفاً بها (تؤيد) في المناطق التي تصبح فرنسية بحت ، او تكون فيها المصالح الفرنسية ذات الافضلية بموجب الشروط المذكورة في مذكرتكم . هذا وان حكومة جلالته مستعدة لان تقدم ضماناً متبادلا كما يقضي الحق (لتأييد هذه الشؤون المتعلقة بمصالح فرنسا) في منطقة النفوذ البريطاني » اهـ

واصدقاؤنا الانكليز لا يطلبون شيئاً في مناطق النفوذ الفرنسي الا ... حفظ مصالحهم وحقوقهم« الموجودة » — التي كانت لهم ! — في بلاد ستنتقل من الحكم العثماني الى الحكم الفرنسي المباشر : اي المحافظة على بعض مدارس و كنائس ومستشفيات وعلى ... ماذا ؟

على امتيازات ... قديمه !

شيء تافه ، « بسيط » ، لا يصلح لان يكون سبب اخذ ورد بين الحكومتين الصديقتين المتحالفتين ، بل لا يليق بفرنسا الكريمة الجوادة ان تضن به على حبيبتها : تقبر المدارس ، والكنائس ، والمستشفيات ، والامتيازات ، فهي صناعة فرنسا ، وقد قرفت منها شبعاً ، وليست انكلترة التي تزاحمها بالقسيسين والقسيسات ، والاطباء والممرضات وبكل شيء ينتهي بال « هات » — اذن ، ففرنسا الكريمة السمحة تقر مطالب حليفتها العزيزة

واذن ، فالسلام على نفط الموصل والعراق !

ماذا ؟...

شيء تافه ، « بسيط » ، وكلمة الامتيازات « المدحوشة » بين الرهابين والممرضين والمعلمين ، ان هي الا :

« امتياز » شركة « تورکیش بترولیوم »... الامتياز التاريخي الذي بذل السفير البريطاني لويس مالت جهده في الاستانة للحصول عليه ، لتتمكن الشركة المذكورة من استخراج النفط من ولايتي بغداد و... الموصل !

وما كاد المسيو كامبون يتلقى رسالة السير غراي حتى كتب اليه فوراً ... في اليوم نفسه قائلاً : « لي الشرف ان اعلم معاليكم بان الحكومة الفرنسية مستعدة لان تعترف بمختلف الامتيازات البريطانية

التي (منحت من السلطنة العثمانية) في تاريخ سابق لاعلان الحرب، في المناطق التي تعطاها، او في المناطق التي ستتعلق بادارتها . اما فيما يتعلق بالمؤسسات الدينية والمدرسية والطبية فهذه المؤسسات تواصل عملها كالماضي، مع الاخذ بعين الاعتبار ان هذا الامتياز لا يتضمن ابقاء الحقوق القانونية (سلطة القنصليات) والامتيازات الاجنبية في المناطق المذكورة » اه

لا بأس بان نقف هنا بالقارىء قليلا، قبل متابعة عرض الرواية، لان في الكتابين المتبادلين بين الوزير الانكليزي والسفير الفرنسي درساً نفسياً جليل الفائدة لمن تهمه معرفة الاساليب السياسية التي تقود حكومتي لندره وباريس في سيطرتهما على الشعوب :

ان اتفاق سيكس بيكو هو « فبركة» انكليزية بحت، باعتراف الفرنسيين انفسهم، وفي كل حرف من حروفه هدف معين، وخطة مرسومة، قضى دهاقنتهم الاخصائيون بمعرفة شؤون الشرق العربي وقتاً طويلاً في تمحيص كل عبارة فيه، فهو اذن ابنهم، وصنيعهم، وهم الذين حبلوا بنصوصه وولدوها، وربوها، وكانت بنت عقولهم ومع ذلك فان السير غراي ابقى كتاب المسيو كامبون ستة ايام كاملة تحت الدرس (١) في حين انه خال من اي هدف الا سؤال حكومة

---

(١) يقول المسيو اندره تارديو في هذا الصدد : « ان رجال

لندرة عما اذا كانت توافق على نصوص هي انشأتها واملتها وطبعتها .
وابى الوزير ان يجيب على سؤال السفير ، في حين ان ذلك الاتفاق
قد عرض من الانكليز على الفرنسيس ، بل اهمل الرد على حل هو
الذي اقترحه ، وكتب يسأل السفير كامبون ان يؤكد له باسم حكومة
باريس ان الامتيازات البريطانية الموجودة في المناطق التي ستتحول
الى نفوذها وحمايتها ستظل بريطانية ... ستة ايام كاملة يبقي الوزير
الانكليزي كتاب السفير تحت الدرس ، وهو خال من اي
اقتراح او هدف فرنسي جديد لانه باق على طبخه الانكليزي ،
واما صاحبنا السفير كامبون فانه يسرع في اليوم نفسه ، وقد يكون
في الساعة عينها ، فيرد على سؤال الوزير الخطير !

وبماذا يهتم ؟ هل يطلب اليه ان يرجىء النظر في قضية
الامتيازات الى بعد انتهاء الحرب ؟

ايطلب اليه ان يكون للحكومة الفرنسية حق مراقبة المشاريع

الاوساط الصناعية والمالية في لندره اثاروا مقاومة عنيفة لذلك الاتفاق
قبيل التوقيع عليه ، لان البنود المتعلقة بالشؤون الاقتصادية فيه
اقلقت بال اصحاب مصالح اقتصادية عظيمة ، من المصالح النفطية ،
فانذروا (كذا) وزارة الخارجية البريطانية بوجوب الدفاع عنها ،
لانها كانت مهددة في نصوص الاتفاق بالانتقال الى منطقة النفوذ العربي
الفرنسي » مجلة الاولستراسيون في ١٩ حزيران ١٩٢٠ ص ٣٨٠)

المتعلقة بتلك الامتيازات ؟

ايطلب اليه ان يكون للحكومة الفرنسية حصتها من امتيازات ستستغل بلاداً واقعة ضمن منطقة نفوذها وتحت حكمها المباشر؟ .

لا . ! ... انه لايطلب في جوابه شيئاً من ذلك كله، ولا يزعج خاطره الكريم في تحليل مضمون الكتاب الانكليزي ، وانما يهتم :

ان لايكون للمؤسسات الدينية ، والمدرسية ، والطبية البريطانية — للارساليات — حق في التمتع بالامتيازات الاجنبية !

وليت صاحبنا اكتفى بذلك الاهتمام ، ولكنه ابى الا ان «يكمل النقل بالزعرور » فاكد للوزير الانكليزي تأكيداً سريعاً ، جازماً ، قاطعاً : « ان الحكومة الفرنسية مستعدة لان تعترف بمختلف الامتيازات البريطانية التي (منحت من السلطنة العثمانية)في تاريخ سابق لاعلان الحرب في المناطق التي ستعطاها ، او في المناطق التي ستتعلق بالادارة الفرنسية » ... ومعنى هذا التأكيد — بل نتيجته على الاصح — ان السفير الفرنسي قد جدد باسم حكومته امتيازات زعمتها المطامع البريطانية ، واتخذ سلطة امير المؤمنين وسلطان العثمانيين فمنح شركة تور كيش بتروليوم امتيازاً باستخراج النفط من ولايتي الموصل وبغداد ، مع ان ما اسمته المذكرة الانكليزية بالامتيازات لم يكن سوى « وعد » صدر في ٢٨ حزيران ١٩١٤ من الحكومة التركية لسعاة الشركة بالحاح السياسة البريطانية وعمالها ، وقد شرحنا

ادواره في فصل سابق

فعل السفير بولس كامبون ما فعله ولكنه لم يخرج من تلك المفاوضة الهوجاء الا « تحت صح الباقي » فان الوزير غراي رد عليه في اليوم الثاني (١٦ نوار) يقول له : « لي الشرف ان اعلم فخامتكم ان القبول بمشروع اتفاق سيكس بيكو بمجموعه كما هو ماثل الان ، يسبب اهمال مصالح بريطانية عظيمة ، ولكن بما ان حكومة صاحب الجلالة ترى الفوائد التي ستنتج لمصلحة الحلفاء العامة من انشاء حالة سياسية داخلية في تركيا، تكون خيراً مما هي عليه الان، فانها مستعدة للقبول بالتسوية التي وصلنا اليها» الخ ...

ومعنى ذلك ان الحكومة الانكليزية تقبل بالتضحية العظيمة ... لفائدة ... الحلفاء العامة !!

اما نزاهة ، وعفة ، وتضحية ، ما شاء الله !

هذه هي حكاية « تنزل» الانكليز عن الموصل للفرنسيين في اتفاق سيكس بيكو ، وقد رأيت فيها ان الدهاء السكسوني لم يكن بذلك الابله الذي يفاوض بلا تبصر ، وانما هو الحكيم العاقل الذي يعرف مأكل الكتف دون ان يثير حوله الشكوك ، بل انه يأكل البيضة والقشور ، ويربح الناس جميله بانه ضحية ، وسترى انه لم يقف بمراميه عند هذا الحد ، بل جر الفرنسيين الى ساحة جديدة ولم يمكنهم من الانتفاع بالموصل حتى جغرافياً وسياسياً

وجر العرب ،و « استقلالهم » ، وجر العالم ... وراءه

حصار كوت العمارة

ما كادت الحكومة الانكليزية تستولي على حصة الالمان من رأسمال شركة « التوركيش بتروليوم » حتى كانت الحملة البريطانية على العراق قد جهزت تجهيزاً كاملاً ، مزيجاً من الهنود والرؤساء الانكليز ، بقيادة امير اللواء شارل طاوزند (١) آمر الفرقة السادسة ، فاحتلت البصرة ، وبدأت زحفها براً وبحراً ، على شاطئي دجلة والفرات ، والاتراك يتقهقرون من امامها بعد مقاومات خفيفة ، حتى وصل الزاحفون الى كوت العمارة فاحتلوها في آخر ايلول (سبتمبر ١٩١٥) بعد ان كانوا قد احتلوا العمارة في اول حزيران (يونيو)

مشت الحملة البريطانية موفقة ناجحة ، تحتل البلدان في طريقها ، واسلاك البرق تنقل الى العالم اخبارها ، فيمتلئ قلب « جلالة ملكها المحبوب بهجة وحبوراً ، وتميد انكلترة ، وايكوسيا ، وارلندة ، والهند فرحاً ، وتستحق ثناء الجميع الذين كانوا يرمقونها بانظارهم (٢)

فتابعت زحفها على خط العزيزية وهي تكاد لا تلقى مقاومة حتى باتت على مقربة من بغداد ، فاضطربت الاستانة ، وجزعت برلين ، وأمر غليوم صديقه المشير الاكبر ، فيلد مارشال بارون فون در غولتز (٢)

---

(١) Gl Charles Townshend

(٢) الكابتين ادوارد او . موزلي (ص ٧٤ و ١١٤)

(٣) Fd. Ml. Baron von Der Goltz.

بان يسرع الى العراق ليتولى بنفسه الدفاع عن اراضي النفط، ويطرد الانكليز منها ، وامرت القيادة العليا التركية الزعيم (الكولونيل) نور الدين بك (صار باشا بعدئذ) بأن يبذل جهده لوقف زحف العدو ، وان كلفه عمله ابادة الجيش الثالث الذي كان مرابطاً في ولايات العراق .

وفي منتصف تشرين الثاني تابع امير اللواء طاوزند زحفه على بغداد ، يقود خمسة عشر الف جندي ، ووصل في ٢٢ ت ٢ الى قطيسفون ، المدينة التاريخية التي لم يبق من اثارها الا بقايا ايوان كسرى (١) ، وكانت طلائع الجيش التركي تنتظره فيها ، فاصلته وجنوده ناراً من الجحيم ، وقاتل الفريقان قتال المستميت ودحر الاتراك اعداءهم وردوهم على اعقابهم حتى كوت العمارة .

---

(١) الايوان الجبار الفخم ، الذي وصفه البحتري بسينيته الخالدة ، وهو على بعد ٢٥ ميلاً من جنوبي بغداد (الميل ١٦٠٩ أمتار) . وعلى انقاض قطيسفون تقوم اليوم قرية سلمان (سلمان باك) وفيها جامع يزوره السياح ويقال ان سلمان الفارسي الصحابي الشهير مدفون فيه . وقد عرفت قطيسفون في كتب العرب ، مع مدينة ساليق وما يتبعها ، باسم « المدائن » . وكانت عاصمة الفرثيين والساسانيين ، ويقول تاريخ الموصل (ج ٢ ، ص ١٠) ان لقطيسفون « في تواريخ الكلدان شأناً خطيراً ، لانها كانت مركز اقامة بطريرك المشرق ،

حوصر الانكليز في كوت العمارة خمسة اشهر كاملة ، ذاقوا في خلالها أمر العذاب ، من جوع وعطش ومرض (١) ، ولم يتمكن اخوانهم من نجدتهم فاضطر قائدهم الى تسليم البلد والاستسلام ، إذ ارسل الى قائد القوات التركية الكتاب التاريخي الآتي :

« كوت العمارة في٢٩ نيسان (ابريل) ١٩١٦

» يا صاحب السعادة

»ان الجوع يرغمني على ان اخفض السلاح ، وانا مستعد لان استسلم اليكم مع جنودي الشجعان الذين قاموا بواجبهم كاملا ، كما صرحتم لي بذلك اذ قلتم : « وسيكون جندكم الابي ضيفنا الاعز » فكونوا اذن كرماء لانهم قاموا بواجبهم ، وقد شاهدتموهم في معركة قطيسفون وشاهدتموهم في انسحابهم ، ثم شاهدتموهم مؤخراً في هذه الخمسة الاشهر التي قضوها محصورين ، والتي اتممت فيها المهمة الحربية لوقف هجومكم الدفاعي ، ريثما تصل نجدات جيشنا الى العراق .لقد شاهدتموهم كيف قاموا بواجبهم واني لواثق من ان تاريخ الحرب سيثبت ذلك كله . وها اني مرسل اثنين من قوادي هما المقدم (الكومندان) غيلكرست والرئيس (الكابيتن) ميولاند للاتفاق

---

(١) للكابيتن ادوارد او . موزلي احد قادة تلك الحملة الانكليزية كتاب عنوانه « حصار كوت العماره » فيه وصف رائع مؤثر لما قاسته الحملة في تلك الاشهر وقد ترجم الى الفرنسية في هذه السنة .

معكم على التفاصيل .

« اني مستعد لان اعيد الكوت حالا الى ايديكم ، واذهب الى معسكركم فارا لم حالما تتمكنون من وضع التفاصيل ، ولكني اطلب اليكم ان تسرعوا في ايصال الاعاشة

« اني اقترح ان يزور رئيس ادارتكم الصحية مستشفياتي برفقة زميله الانكليزي فيرى بام عينه حالة القسم الاكبر من الجنود ، وبينهم كثيرون فقدوا ايديهم وارجلهم ، وكثيرون مصابون بالوباء فلا اظن انكم ستأخذون هؤلاء الجرحى والمرضى للاسر ، وخير حل يكون بالسماح لنا بارسالهم الى الهند

« ان رئيس اركان الحرب العام في لندره ابرق الي بان تبادل اسرى الحرب مقبول ، فيمكن اطلاق سراح عدد من الاتراك الماسورين في مصر والهند مساو لعدد جنودي

« وتفضلوا بقبول احتراماتي الكاملة » الامضاء :

الجنرال طاوزند ، امير الفرقة السادسة وجيوش الكوت » اه .

• • •

عربنا هذا الكتاب التاريخي بحرفه ، ليعرف قراء العربية صورة صغيرة عن اهوال المجزرة البشرية مرسومة بيد احد ابطالها ، وليذكروا

ان تلك الحملة كانت في اكثرها من الهنود ... فماذا كان نصيب الهند من « ارباح » المجزرة ؟

الجوع ، والاضطهاد ، والعبودية !

وعلى م ذلك العذاب وهذا الاستعباد اللذين يقاسيهما ابناءالبشر؟

هو لاجل ... النفط !

دم الارض ودم البشر

لم يكن الطمع في الاستيلاء على ابار النفط في الشرق يثير اهتمام الانكليز وحدهم في اثناء المجزرة البشرية ، فقد كان الاتراك والالمان والروس ، هم ايضاً ، منهمكي البال في تأمين حاجاتهم من تلك المادة التي صارت عصب الحرب ، وحسب القارىء ان ينظر الى خريطة جغرافية ترسم الساحات التي دارت فيها رحى المعارك ، فيرى المسافات النائية، والاسفار الطويلة التي كانت جنود المتحاربين تقطعها، ليدرك اية اهميـة حيوية كانت للنفط في تأمين المواصلات ، ونقل العتـاد والذخائر والرجال .

ولئن صار « الذهب الاسود » متجراً عذب المورد ، يدر المن والسلوى ، وخـيرات الارض والسماء، على محتكريه ، ويجعل منهم سـلاطين حقيقيين يلعبون بمقدرات الشعوب والامم ، ويسخرون سياسة الدول في سبيل منافعهم فقد بات ايضاً حاجة حيوية للحكومات في زمني السلم والحرب .

ولم تكن ساحة الحرب العراقية وحدها ملعباً لاهداف النفطيين، بل ان اطماع المتحاربين ، من الفريقين ، طمحت في الاستيلاء على نفط القوقاس، ونفط ايران، فامتد شرر التقاتل الى تلك الجبال المثلجة، وماشت المساعي السياسية، والمفاوضات الدبلوماسية ، معارك الجيوش،

فكانت ارواح الالوف تزهق تحت وابل الرصاص ، لاجل .. . النفط ، والسعاة والسماسرة يواصلون السعي للحصول على امتياز باحتكاره .

وقد رأينا الحكومة الانكليزية تحتجز ، ساعة اعلان الحرب ، حصة الالمان من رأسمال شركة « التوركيش بتروليوم » على انها « ملك عدو » ، وها نحن نرى الالمان يؤلفون — في ابان الجزرة — شركة جديدة ، مستقلة ، لاستخراج النفط من الاراضي التي يشملها امتياز « التوركيش بتروليوم » ويقطعون السبل على الانكليز ليصدوهم عن الوصول اليها . فاهتمام الالمان بنفط العراق لم يكن اذن باقل من اهتمام الانكليز به ، بالرغم من ان شبح الموت الاسود ، الاسود كالنفط ، كان مخيماً فوق اوروبا ، يلف بجناحيه الرهيبين ملايين الابرياء ، والمجاذيب ، والفقراء الذين مشوا الى النطع ، وهم لا يدرون انهم يموتون ، لان قبضة من الرجال النفطيين تكالبوا على السيطرة ، والاحتكار ، والعظمة الدنيوية الزائلة !

سعى الالمان ، وبذلوا جهداً عظيما للاحتفاظ بنفط العراق ، واستغلاله وحدهم ، بعد ان كان الانكليز شركاءهم فيه وغدروا بهم ليستقلوا به ، فتألفت سنة ١٩١٦ شركة المانية باسم « برنتشوف كومندوس أرابيه ن (١) لاستخراج النفط من ولاية الموصل ،

(١) عصبة المواد اللاهبة Brennstoff — Kommandos Arabien

موجيء باعظم المهندسين الجيولوجيين الالمان للقيام بالعمل المنشود ، فبدأ هؤلاء الحفر في القيارة ، وزاخو ، واستخرجوا الذهب الاسود بغزارة تذكر ، ويقول الاستاذ سيدل الالماني ان بئراً واحدة في زاخو كانت تدر سبعة اطنان في اليوم الوحد (١) وبينما المعارك تدور رحاها بين ايوان كسرى وكوت العمارة ، كانت البعثة النفطية الالمانية تقوم بعملها «مطمئنة ، مرتاحة البال» في درس منطقة هيت ، وحفر الآبار فيها !

وكانت المساعي ، الحربية والسياسية ، تبذل في الوقت عينه في ايران للاستيلاء على ... النفط ... فقد جهز الروس حملة ، وجهز الالمان والاتراك حملة ثانية ، وباتت بلاد الفرس ، جارة القوقاس ، هدف النفطيين من الفريقين المتحاربين . وفي شهر آذار (مارس) ١٩١٦ حصل سمسار ارمني ، من جيورجيا ، يدعى كوشتاريان ، على امتياز من حكومة طهران باستخراج النفط والتفتيش عنه في الولايات الشمالية الخمس ، التي لم يشملها امتياز دارسي ، وكان حصوله على الامتياز بتأثير حكومة القيصر على شاه ايران ، بل بالضغط

---

(١) نقلا عن نيكوليسكو (ص ١٢٦) وللاستاذ سيدل بحث قيم في اللغة الالمانية عن اعمال البعثة ، بعنوان : فحوص النفط في العراق وفي المناطق النفطية »

والاكراه !

ولا بد للقاريء من ان يستغرب تلك المداورات ، والمساعي ، والسعايات التي بدت للسيطرة على منابع النفط في الشرق ، ويستغرب انشغال النفطيين بتحقيق مطامعهم في حين ان الشعوب كانت «تستحم» في انهار الدماء ، فكيف تنقاد الحكومات والجماهير لمشيئة افراد ، وكيف يقود هؤلاء الافراد تلك الحكومات والجماهير الى حروب لا شأن لها فيها ؟

والجواب هو : ان سياسة النفط محصورة في دور « القيادات العليا » ونقصد بكلمة « القيادات العليا » المعنى الكامل لهذا التعبير ، لا المعنى الاصطلاحي ، ولا العسكري ، بل القيادة « الخفية » التي تملك « آلات » الحكم ملكا حقيقياً ، مستندة في تملكها الى الانظمة الرأسمالية التي تبيح الاحتكار ، وقد تردت بوشاح الديموقراطية المطاطة ، والنصوص الدستورية الخداعة ، التي تؤدي جميعها بالشعوب الى الاتحاد التالي :

قد تجد رئيس حكومة دستورية (رئيس وزارة) يمشي ببلاده ، في جميع نواحي الحكم ، على انه هو القائد لها ، ولكن الواقع « الدستور » يكذب ذلك المظهر المضلل الرأي العام ، اذ تكون القيادة الحقيقية في قبضة بضع شركات يمثلها فريق من « النواب » في ندوة الامة ، وبعض « الوزراء » في مجلس الحكومة ، وبعض

« الرؤوس » في سائر الدوائر الرسمية ، ويمثل هؤلاء جميعهم فريق من « المراقبين ... » في دور الصحف الكبيرة .

وقد تجد سلطاناً او ملكاً هو القائد العام لجيشه في ايام الحرب ، بموجب نصوص دستور السلطنة او المملكة ، ولكن قيادته لا تتعدى الحد اللفظي لان القيادة الفعالة تكون في قبضة بضعة اشخاص من هيأة اركان الحرب ، يعملون بالاتفاق مع الوزراء والنواب والرؤوس والمراقبين على تنفيذ الخطط التي ترسمها القيادة الحقيقية ، القيادة الخفية !

وتستطيع ان توجز هذه السطور جميعها بقولك : « ان لكل بلاد ... مفوضية ، يهبط منها ... الوحي ! »

ولقد كانت الساحة الشرقية في اثناء المجزرة البشرية « عنوان » القيادة الخفية ، فقد كان التناقض في التدابير الحربية الفنية ظاهراً للعيان ، وكانت المداورات الغامضة في تسيير دفة الحرب تبعث على الحيرة في حين ان القواد « التكنيكيين » ، الذين كانوا يديرون تلك الدفة في الظاهر ، هم من انبغ الضباط واكثرهم علماً وتدريباً وتمريناً ، فكيف نفسر ذلك ؟

لو حاولنا درس هذا الامر ، ساعة وقوعه ، لحكمنا على القواد بالخيانة او بالجهل ، ولكن الايام ، والحوادث ، والحالة التي وصلنا اليها ، كشفت الغطاء عن كثير من تلك الاحاجي ، والنتائج التي

اسفرت عنها صارت تساعدنا على فهم شيء منها ، وصارت برهاناً صادقاً على ان القيادة الحقيقية في الحرب الشرقية كانت خفية ... مستورة ... بعيدة عن الظهور ومظان الريب ، ولم يمثل رجال الادارة العسكرية الا الدور الظاهر ، جاهلين سياسة النفط ، واسرارها ، واهواءها

كان الانكليز يزحفون على فلسطين ، وكان الجيش التركي الالماني يزحف على ... ايران !

أعلنت تركيا الحرب ، وكان اول واجب عليها حشد قواها على الحدود القريبة من الاعداء ، فاذا بانوار ، القائد العام ، يزحف بنفسه على رأس الجيش الثالث الى .. . القوقاس ... واندحر انور ، ومني باذل انكسار فلم يرجع ، بل ابرق يطلب الجيش الخامس المرابط على ضفاف البوسفور لمنع الهجوم على العاصمة ، يطلب الجيش الخامس ليلحق به الى القوقاس !

كان الالمان يطحنون عظام الحلفاء في الساحة الغربية ، وكان *الانكليز يجهزون حملتهم على ... العراق*

حوصر الانكليز في كوت (العمارة) خمسة أشهر ، وكانوا يحتلون العراق الجنوبي ، فلما استسلموا في آخر نيسان (ابريل) ١٩١٦ للقيادة التركية كان من الواجب على هذه القيادة ان تتابع زحفها حتى البصرة لتطهر العراق من جيش العدو وتأمن من كره ثانية على بغداد ، فماذا فعل القائد العام ، خليل باشا ، عم انور باشا ؟ انه

جمع جيشه وزحف الى ... بلاد الفرس !

كانت حملة الاتراك على ترعة السويس تهدد مصر بالاحتلال بين ساعة واختها ، فبماذا كان يفكر الانكليز ساعتئذ؟(١)

انهم كانوا يزحفون على شاطئي دجلة والفرات نحو .. بغداد! ولولا وجود الباخرتين الفرنسيتين « ريكن » و « انتركاتو » بين الاسماعيلية والسويس واطلاقهما النار على الالمان والاتراك، لكانت

---

(١) للقائد الالماني الشهير امير اللواء ليمان فون ساندرس رئيس البعثة العسكرية الالمانية في تركيا ، كتاب جليل الفائدة في اكثر مواضيعه ، عنوانه : « خمس سنوات في تركيا » ذكر فيه جميع المعارك في الساحات الشرقية ، واشار متألماً ، متبرماً ، ناقماً ، الى التناقض « الجنوني » في الخطط الحربية ، فتساءل مراراً عن الاسباب التي كانت تحدو بالقيادة العليا الى هذا التناقض ، فلم يستطع تفسيره الا بالهوس ، وحب الشهرة، ولو اخر القائد ساندرس وضع مذكراته حتى هذه الايام لادرك ان ذلك الهوس كان مدفوعاً الى ... النفط ، وان القيادة الحقيقية لم تكن في يد زملائه ، بل في ادمغة النفطيين!... وكذلك اشار الكابتين موزلي في « حصار كوت العمارة » الى التناقض والاسرار التي كانت تعرقل الاعمال الحربية ، وقال انه يسكت عن فضحها مرغماً لانه لا يشتغل في السياسة !

مصر غير مصر اليوم ! ...

فما سبب تلك المداورات الحربية . والتناقض في فن الزحف والهجوم ، والاستقرار والدفاع ؟

وماذا في بغداد ، والقوقاس ، وايران ؟

ان فيها ... النفط !!!

والنفط يدر الذهب ، والذهب حياة المحتكرين ، وعبودية الملايين !



الى ... بغداد ثانية

دحر الانكليز الى كوت العمارة ، وباؤوا باذل انكسار ، وحوصروا خمسة اشهر حصاراً مؤلماً ، وصفه بطله القائد طاوزند في مذكراته بانه « اطول حصار في تاريخ بريطانيا الحربي » ، وبالرغم من تلك الصدمة المريرة فان القيادة الانكليزية الحقيقية ، « القيادة الخفية » ، لم تنثن عن غيها ، وكان رأس تلك القيادة في مركز .. شركة ... النفط الانكليزية الفارسية ، في ... امارة البحر التي تملك اكثر اسهم النفط العراقي ، فجددت الحملة على بغداد ثانية ، واتخذت لها المعدات اللازمة . وكانت القيادة التركية الحقيقية « القيادة الخفية » منهمكة في الزحف على ... ايران ! فمشى الجيش الانكليزي الى العاصمة العباسية باطشاً فاتكاً ، ودخل في ليل ١٠ — ١١ آذار (مارس) ١٩١٧ ، واصبح البغداديون فاذا ببلاغ من قائد الحملة ، امير اللواء مود ، يملأ الشوارع والساحات ، يخاطب فيه ابناء المدينة العربية ، ويقول لهم باسم مليكه والشعوب التي يحكمها :

« يا اهل بغداد !

» ان الغرض من حركاتنا العسكرية ان نظهر على العدو فنجليه عن هذه الارض ، ومن اجل ذلك فوض الي امر مراقبة

الجيوش البريطانية التي تحارب في هذه المناطق مراقبة مطلقة عليها.

فلا يحسبن احد منكم ان جيوشنا تدخل مدنكم وبقاعكم دخلة الفاتح او العدو ، ولكن دخلة المحرر .

« لقد اصبحت مدينتكم بغداد من يوم هولاكو هدفاً لمظالم الاغيار ... فتساقطت قصوركم خرائب ، وتصوحت رياضكم ، ورزح آباؤكم ، كما رزحتم انتم ، تحت نير العبودية ، واستيق ابناؤكم الى مواطن القتال في حروب لا علاقة لكم بها ... وابتز اموالكم قوم غاشمون ... ليبذروها في بلاد غير ... بلادكم !

« لقد بدأ الترك يتحدثون بالاصلاح ... منذ ايام مدحت ، ولكن هذه البلاد الخراب القفار شاهد على بطلان تلك الوعود ، فامنية مولاي الملك وشعوبه جميعاً ، وأمنية حلفائنا العظام ايضاً ، ان ترجع بلادكم سيرتها الاولى ، يوم كانت مثلا شهوداً بخصبها ، واذ كان اجدادكم يلقون على العالم باسره دروساً في الاداب والعلوم والفنون ، ويوم كانت بغداد — مدينتكم هذه — احدى عجائب الزمان ...

« ان بين شعوبكم وبين ممالك مولاي الملك صلات من المنافع مستحكمة ، ولقد كانت التجارة متبادلة خلال مئتي سنة بين تجار بغداد وتجار بريطانيا العظمى ، وكان الامر على خير ما يكون من

الصداقة ... ذلك على حين كان الالمان والاتراك يبتزون خيراتكم ...
ولم يقف الامر بهم عند هذا الحد ، بل جاءوا بغداد منذ عشرين سنة محتشداً يجمعون فيها جنودهم ليوقعوا بانكلترا وحلفائها في العجم وبلاد العرب ، وهذا ما حمل انكلترة على ان لاتعتزل ما يجري في بلادكم من الحوادث في يومنا هذا ، وفي المستقبل ، لانها ترى فرضاً عليها ان تدافع عن مصالح شعبها واحلافها ، وان لا تترك للالمان والترك في بغداد مجالاً يجدون فيه في مستقبل الايام ما كان منهم ايام الحروب

» يا اهالي بغداد :

» ان الحكومة البريطانية جاعلة نصب عينيها ان تسعدكم في تجارتكم ، وتؤمنكم في حريتكم ، بحيث لا تنالكم مظلمة ، ولا ترقى اليكم همة الفتح ، ولا مطمح لها في ان تنزلكم على حكم اجنبي ، بل غرضها ان تحقق متمنيات فلاسفتكم وكتبتكم ، فيسترجع البغداديون سابق ثرائهم ويتمتعون بباسق ثرائهم ، ويكون لكم من الانظمة ما يوافق روح شرائعكم وامنية عنصركم الكريم ...

» يا اهالي بغداد :

» ان غاية انكلترة وحلفائها ان لا تذهب دماء هؤلاء العرب وجهادهم باطلا ، بل ان الحلفاء كافة ... يتمنون ... للعنصر العربي

ان يستعيد ما كان له من المجد والشهرة بين امم الارض ، وهو ولا ريب منضم من اجل هذه الغاية الى دول التحالف

« ... لا يذهبن بالكم يا اهل بغداد عما كان من مظالم الغرباء ... فيكم ، خلال ستة وعشرين بطناً قضيتموها بالارهاق ، والتحريش بين بيوتاتكم ، حتى اذا انشق بعضكم على بعض وذهبت ريحكم نال الترك منكم ما يريدون — تلك سياسة سافلة ... تمقتها انكلترا وحلفاؤها كل المقت ... لانه لا يمكن ان يكون سلام ولا فلاح حيث تكون الشحناء ، وتصول الحكومة الغاشمة... » الخ.

سقطت بغداد ، ولو دافع ابناؤها عنها في صفوف العثمانيين والالمان ، لطال انتظار الفاتحين على الابواب ...ولكن البغداديين ، او اكثرهم كانوا على اتصال دائم باخوانهم الابطال الذين كانوا في الثورة وساحات الحرب ، وكانوا ينتظرون الزاحفين لان هؤلاء لم يرفعوا شعار الفتح ، بل شعار تحرير العرب ، وكان في صفوفهم كثير من العرب . وما ان نقلت اسلاك البرق نبأ الاستيلاء على العاصمة العربية حتى اهتزت لندرة وبرلين : طربت الاولى لان مفتاح النفط صار في قبضة يدها ، وقد بدأت تحقق الحلم الذي كانت تمني نفسها به منذ سحر « راهبها » الجاسوس اليهودي شيخ الصحراء دارسي واخذ منه امتيازه المعهود ، ومنذ فكرت بفتح طريق بري الى الهند يحرسه الطريق البحري

واهتزت برلين قلقاً واضطرابا وانتفض غليوم هاجزعاً وغضباً لان سقوط بغداد يواري في التراب حلمه الذهبي الذي كان محور سياسته في الشرق ، وهو أن ينشيء خطاً حديديا من برلين الى البصرة على أن يوصله في المستقبل الى ابواب الهند . وجزعت « القيادة » الالمانية — القيادة الخفية — من سقوط بغداد لان انهار النفط ستنزع منها بما لها فيها من نصيب وفير ، وهي التي سعت لدى الباب العالي السعي الحثيث لحصول المهندسين الالمان على امتيازاتها .

وليس ادل على صحة ذينك الجزع والاضطراب ، وعلى اهتمام الامبراطور غليوم نفسه بالساحة الشرقية ، من اصدار الامر الامبراطوري الى القائد الاشهر فالكنهيم في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩١٧ باسترجاع بغداد ، وطرد الانكليز منها مهما كلفه الامر

غليوم نفسه يهتم لمصير العراق ، ويهتم لطرد الانكليز من العراق ، وغليوم نفسه يتدخل في القيادة الحربية ، ويصدر امراً شخصياً ، امبراطورياً ، بوجوب استرجاع عاصمة العراق (١)

وتصدر القيادة العليا في الاستانة ، والقيادة العليا في برلين ، امراً الى الجيوش المرابطة في ايران ، والبلدان المجاورة ، بوجوب الالتفاف نحو ... الموصل

---

(١) فيشر (ص ٣٢)

ويؤكد امير اللواء مود ، في بلاغه الى اهـل بنداد ، ان غاية انكلترة وحلفائها هي ان لاتذهب دماء العرب وجهادهم باطلاً بل ان الحلفاء ، كافة ، « يتمنون » — آه من التمني ! — للعنصر العربي ان يستعيد ما كان له من المجد والشهرة بين امم الارض ، وهو ولا ريب — وهنا بيت « القصيد » في البلاغ — منضم من اجل هذه الغاية الى دول التحالف :

ومعنى ذلك « اللاريب» ، ايها القارئ اللبيب ، ان يجاري العرب الانكليز في خطة الزحف على ... الموصل

فالموصل مهد المدنية ، وقدس اقداسها ، بشهادة لويد جورج ، والموصل مستودع ... النفط

سقطت قاعـدة العباسيين في اذار ، فلم يضع الانكليز الوقت ، وكانت التعليمات والمعلومات مستمرة بين العاصمـة الغربية والعاصمة العربية القديمة ، فتابعت الحملة زحفها

وفي ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩١٧ عقد اجتماع سياسي خطير في مدينة غلاسكو ، وهي من امهات المدن الصناعيـة في الامبراطورية البريطانية ، فالقى المستر لويد جورج ، رئيس الوزارة ورئيس الدهاة ، خطبة تاريخيـة عن الحرب وشرائط الصلح ، وتكلم عن مصير تركيا فقال :

« ... أما بلاد العراق (ميزوبو تاميا) فليست تركية ، ولم تكن

يوماً تركية ، والتركي غريب عنها كالالماني ، وانكم تعلمون كيف سيطر عليها وحكمها : لقد كان العراق في الماضي جنة عدن، فكيف صار اليوم ؟ عليكم ان تقرأوا هـذا التقرير الرهيب (ارسله قائد الحملة مود الى حكومته) لتعلموا اي بلد جعل التركي من جنة عدن . ان تلك المنطقة التي كانت مهد المدنية ومستودعها ، بل كانت هيكل المدنية وقدس اقداسهـا ، اصبحت اليوم قفراً تحت الحـكم التركي . فمن الواجب ان يبقى تقرير مصير العراق لمؤتمر الصلح عند انعقاده، على اننا نقول منذ الآن ان تلك البلاد لن ترجع مطلقاً الى البربرية التركية المخربة ، وقد كفاها انها كانت حارسة لتلك البقعة الشهيرة باسم المدنية ــ ويالها من حراسة ! ــ فأخلت بواجبها ، وصار من الواجب ان يعهد بحراستها الى ايد اوفر كفاية وانصافاً ، يختارهـا مؤتمر الصلح الذي سيسوي شؤون العالم ! » . . .

ثم عرض الوزير الداهيـة لحالة الحرب في اوروبا ، ولاضطرار حكومته الى الوقوف موقف المدافع عن العـدل والحق، المضحي بالغالي والنفيس في سبيل تحرير الشعوب المظلومة وتقرير مصيرهـا فقال : « ... اجل ، ان اوروبا اليوم مضرجة من جديد بدماء خير ابنائها الابطال ، ولكن لا ننس ان للقضايا المقدسة حلقة تاريخية طويلة، وان الاستراحات في مراحل درب الصليب هي التي توصل الى تحرير الانسانية ، فعلينا ان نقوم بقسطنـا من العذاب ، كما تعذب آباؤنا ،

فكل ولادة هي احتضار ، والعالم الجديد يلد من احتضار العالم القديم ! » اه

مولانا ، وولي نعمتنا ، المستر لويد جورج :

انك امير البيان ، ورب البلاغة ، ولكنه امر عجب من « فخامتكم » ان ينزلق لسانكم الى ... هوة في التعبير ، يعف عنها رجال الاحزاب الطاغية ، والمتطرفون من زملائنا الكتاب الثوريين ، ناهيك بانكم تتكلمون ، وانتم تمثلون اعظم دولة في العالم ، غبرت عظمتها على عظمة الامبراطورية الرومانية ، ووزعت على الدنيا اصول الرزانة والتهذيب ، انكم تتكلمون عن ... دولة ، هي مثل دولتكم في الحقوق والواجبات الدولية جميعها !

مولانا ، وولي نعمتنا ، المستر لويد جورج :

انه أمر غريب ان تنسوا مبدأ الحق المقدس ، للشعوب الكبيرة والصغيرة على السواء في تقرير مصيرها ، وهو المبدأ الذي خاض الحلفاء غمار الحرب لتحقيقه ، غريب منكم ان لا تشيروا الى حق العراق العربي بالاستقلال ، بل تحولون امره الى مؤتمر الصلح ، وقد كان كثير من ابنائه المغاوير يحاربون في صفوفكم لتحقيق ذلك الحق المقدس في تقرير المصير !

مولانا ، وولي نعمتنا ، المستر لويد جورج :

بورك فيك ياصاحب المبادىء الشريفة ، وبورك في مراحل درب

صليه « لك »! إنك لانبل الساسة في غضبك لمصير العراق ، لجنة عدن وقدس اقـداس المدنية . ولكنك ادهى الساعة في تفكيرك بنفط العراق !

• • •

في الشهر عينه الذي دخل الجيش البريطاني عاصمة العباسيين ، وفي الساعة التي كان الحلفاء ينتظرون من الجيش الروسي البلاء الحسن في جبال القوقاس ، وكان الانكليز خاصة يرتقبون انهماك العثمانيين والالمان برد غارات الدب الابيض ، ووقف زحفه على الاستانة ، فتخف وطأة الدفاع عن العراق في وجه حملتمود - في ذلك الشهر ، بل في ذلك الاسبوع شبت الثورة الشعبية في روسيا وارغم القيصر على التنزل عن العرش !...

وتبدل موقف المتحاربين تبدلا عظيما

ولو لم تكن الولايات المتحدة الاميركية قد خاضت بدورها غمرة القتال قبل شهر واحد من سقوط بغداد ، لكان مصير الحرب غير مصير ، ولكان للحلفاء شأن اخر ...

- ٣ -

وكذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذ للمكذبين

— صدق الله العظيم —

قالوا ... *

«ولقد تركت الحكومة (الروسية) الموقتة لارادة الشعب امر التسوية النهائية لجميع الشؤون التي لها مساس بالحرب العالمية وبانهائها ، الا انها ترى من واجبها ان تعلن منذ اليوم : ان روسيا الحرة لا تبغي السيطرة على الشعوب الاخرى ، ولا سلبهم سيادتهم الوطنية ، ولا ان تستولي بالقوة على اراض اجنبية ، ولكنها تهدف الى بناء سلم ثابت ، يرتكز على حق الشعوب في حكم نفسها بنفسها »

(من بيان الحكومة الروسية الموقتة في ٩ نيسان (ابريل) ١٩١٧ عن رأي الشعب الروسي في مصير الحرب)

—*—

« ... اننا نريد سلماً قائماً على العدل ، وعلى العواطف النبيلة ، وعلى احترام الضعاف ... وبعدئذ نستطيع بناء السدود في وجه الحروب المخربة المدمرة ، كالحرب الحالية »

(من خطاب للورد روبرت سيسل في مجلس العموم الانكليزي في ١٦ نوار (مايو) ١٩١٧)

—*—

(*) خير الله (فصل ١ قسم ٢) وماندلستام (فصل ٢ قسم ٤)

«...ان الحكومة (الروسية) الموقتة تعلن، بالاتفاق مع الشعب كله، انها ترفض في سياستها الخارجية اية فكرة ترمي الى السيطرة على شعب ما من الشعوب ، او سلبه سيادته الوطنية ، او الاستيلاء بالقوة على اية ارض اجنبية، وانما تريد سلاما بدون ضم ، (استعمار) او تعويض ، يرتكز على حق الشعوب في حكم نفسها بنفسها »

(من بيان ثان للحكومة الروسية الموقتة في ١٨ — ٥ نوار (مايو) ١٩١٧ عن سياستها في مصير الحرب)

—*—

« ...ان موقف الحكومة الاميركية من هذه الحرب قد اعلن مراراً بوضوح تام فلا عذر لاي انسان في جهله : ان الولايات المتحدة لا تسعى في هذه الحرب الى النفع المادي ولا الى التبسط من اي نوع كان ، وهي لا تحارب لاغراض شخصية وانما تبذل دماء شبابها لتحرير الشعوب جميعها من تعديات القوة الاستبدادية، اية كانت تلك الشعوب ...

»...اننا نخوض الان غمار القتال لاجل الحرية ولاجل تمتع الشعوب باستقلالها ، ولاجل ازدهار جميع الشعوب بدون تعد ... واما السلم فيجب ان يبنى على المبادىء الاتية : لا يجوز منع اي شعب من العيش في ظل السيادة التي توافقه ، ولا يجوز نقل ارض من حكم الى حكم ، الا اذا كانت غاية هذا النقل تأمين

السعادة والحرية للذين يسكنونها . »

(من رسالة الرئيس ويلسن الى الحكومـة الروسية الموقتة في ١٠ حزيران (يونيو) ١٩١٧ يقترح عليها فيها متابعة التضامن بين الحلفاء حتى الفوز النهائي)

—*—

« ... وقد صرحت لكم منذ ايام ايها السادة ان العدل رائدنا والسلام هدفنا في هذه الحرب ، وقلت لكم ما اردده الان على مسامعكم حرفياً : ان فرنسا لا تريد ظلم اية قومية حتى وان كانت امة من اعدائها . بل هي تطلب حرية العالم بأسره واستقلال الشعوب جميعها ، وستستند في اعمالها يوم النصر الى العدل لا الى الانتقام وليس لي الان الا تكرار هذا القول .. ان صلحاً وطيداً ننشده لا يتم الا اذا شدناه على دعامة العدل وعلى حق الشعوب ، ولن نفوز بذلك الصلح الا بشرط آخر يجب ان لا ننساه : وهو ان نقضي على الاستبداد العسكري فلا نتركه مستمراً في قسوته وتهديده . »

(من خطاب المسيو ريبو رئيس الوزارة الفرنسية امام مجلس النواب في ٢٢ نوار ١٩١٧)

—*—

« ... ان مجلس النواب ، وهو الذي يمثل سيادة الشعب الفرنسي وارادته تمثيلاً مباشراً ، يبعث الى الديموقراطية الروسية والى الديموقراطيات الحليفة الاخرى بسلامه ... وهو يرجو مبتعداً عن اية فكرة ترمي الى الفتح واستعباد شعوب اجنبيـة ، ان تتمكن جيوش الجمهورية الفرنسية والجيوش المحالفة ، بعـد قهر روح التسيطر الجرماني ، من الحصول على الاسس الثابتة لتوطيد السلام ، واستقلال جميع الشعوب الكبيرة والصغيرة ، في ظل مؤسسة عصبة الامم التي تهيأ منذ الان »

(من القرار الذي اصدره مجلس النواب الفرنسي في ليـل ٥ حزيران ١٩١٧ لتحية الحكومة الروسية الموقتة)

—*—

« ... تقول الحكومة الروسية في مذكرتها انها لا ترمي الى السيطرة على شعوب اخرى ، ولا الى سلبهم بلدانهم ، ولا الى احتلال اراض أجنبية بالقوة . والحكومة البريطانية تشاطر الحكومة الروسية هذه العواطف من صميم الفؤاد ، فهي لم تخض هذه الحرب لاجل الفتح ، ولن تتابعها لهذه الغاية ، وانما الهدف الاصلي الذي رمت اليه في البدء هو الدفاع عن بلادها وجعل العهود الدولية محترمة . وقـد زيد اليوم على ذلك الهدف الاصلي هدف جديد هو تحرير الشعوب المستعبدة من النير الاجنبي »

(من جواب الحكومة البريطانية على بيان الحكومة الروسية الموقتة في ١١ حزيران ١٩١٧)

—*—

« ... ان فرنسا لا تفكر في استعباد اي شعب في الارض ، ولا اية امة حتى من اعدائها الذين تحاربهم اليوم ، ولكنها تود ايضاً ان يقضى القضاء الكامل على الارهاق الذي مد جناحه على الدنيا طويلا ، وهي في هذه السياسة التي تترك فيها لاعدائها روح التبسط والفتح والطمع ، تعلن انها لن تعزم يوماً على سلب ارض ما من اصحابها الشرعيين . ولقد اضطرت الى امتشاق الحسام لاجل الدفاع عن حياضها وتأمين احترام استقلال الشعوب وحرياتها في العالم »

(من جواب الحكومة الافرنسية في ١٣ حزيران ١٩١٧ على بيان الحكومة الروسية الموقتة عن مصير الحرب)

« ... ولتلك الاسباب عينها نعلن خصامنا لكل سياسة ترمي الى الفتح او استملاك اراض اجنبية ، واذن فاننا نرفض اليوم كما رفضنا بالامس سياسة الفتح الاستعماري لان الاستيلاء على اية مستعمرة ، ومنع سكانها الاصليين من استقلالهم الاداري ، إن هو الا « استملاك » رجال غير احرار ، وهذا معناه الاستعباد الذي لا يتفق مع مبادئنا . وفي الواقع : ان حق السكان في

تقرير مصيرهم بحرية لا يكون محترماً في وقت الاستيلاء على المستعمرات ولا في وقت مبادلتها .. فنكون ، والحالة هذه ، اشد الان منا في الماضي نضالا ضد الاستعمار ، أظاهراً كان أم مستوراً »

(... من مذكرة الحزب الاشتراكي الالماني المستقل (حزب الاقلية) في ١٨ حزيران ١٩١٧ الى اللجنة الاشتراكية الهولاندية السكاندينافية في ستوكهولم رداً على اسئلتها عن رأي الاشتراكيين في مصير الحرب)

—*—

« ... اما الاهداف التي نرمي اليها في جميع اعمالنا السياسية فبريئة من مطامع الفتح ، ونيات الاستعمار والسيطرة ، وانما ننشد سلاماً وطيداً ، واشتراكاً حراً في بناية الحضارة واسسها المعنوية والمادية ... ولسنا بعيدين عن فكرة الضغط على الشعوب واستعبادها فحسب ، بل اننا لانستصغر اي قوم واية دولة قريبة كانت أو بعيدة ، كبيرة او صغيرة .»

(من تصريحات السنيور سوننينو وزير خارجية ايطاليا امام مجلس النواب الايطالي في ٢٠ حزيران ١٩١٧)

—*—

« ... ونحن الان تجاه اشد الحروب هولاً وفظاعة ، فقد تحدونا

بالمبادىء الانسانية السامية ، مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، ليس بين الرجال بل بين الامم ، الكبيرة والصغيرة ، والقوية والضعيفة ، والمتغطرسة والمتواضعة ، فعلى الشعوب جميعها التي تحارب معنا لاجل هذه المبادىء ان تثبت حتى نصل الى تحقيق العدل بين الدول وتحطيم البربرية ، فيعيش مبدأ الحق بسلام !»

(من خطبــة للمستر لويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية في ٢٩ حزيران ١٩١٧ في مدينة غلاسكو)

—*—

« ... ليست المانيـا هي التي سعت الى الحرب ، ولا هي التي تبسط وامتدت املاكها وراء البحار بقوة الفتح والمدفع والسيف ... ولا نرغب بمتابعة النضال يوماً واحداً عندما يعرض علينـا صلح شريف ، ولكن الذي نريده هو عقد الصلح على اننـا احرار في عقده ، وعلى انه يقضي على الشغب الذي يثيره الحصار الاقتصادي بين الامم . اجل اننا نريد السلم بشرط ان يحمينا من تبدل اعدائنا من عصبة عسكرية بعصبة اقتصادية ضدنا ... »

(من بيان وزارة المستشار ميكايلس امام مجلس النواب الالمـاني في ١٩ تموز (يوليو) ١٩١٧ بعـد انخذال المستشار دي بتمان هولويغ)

الثورة الروسية

عصفت ، وفي زئيرها صدى اجيال طويت على العسف والاضطهاد، ما ومض في يوم منها قبس حق ،الا وتردى بسنوات ظلم وارهاق!

عاش الشعب اجيالاً عبداً ذليلاً ، ومات عبداً ذليلاً : روسيا بلاد القيصر ، وشعبها من مواشيه السائمة ! جلالة الامبراطور ظل الله على الارض ، والشعب موطىء قدميه !

لاسلطان الا لصنم العرش ، والامة للطاعة والخدمة .

الشعب يدفع الضرائب ، ويقوم باود الجيش ، ومعاش الاتباع ، ونفقات القصور . ولا مدارس ، ولا ملاجىء ، ولا مستشفيات .

الشعب يدفع الضرائب ، ولامحاكم ، ولا قانون، ولا عدل !

الامة تقوم بجميع الواجب عليها نحو الدولة ، والدولة طاغية ، مطلقة السلطان : لاحرية للكلام ، ولا للكتابة ، ولا للاجتماع !

عاشت روسيا اجيالاً تحت النير ،لم يرتفع في يوم منها صوت للدفاع عن الامة البائسة ، المضطهدة ، المستعبدة ، الا وبات صاحبه في منافي سيبريا ، فكان الظلم مهمازاً لها ، افاقها من سكرة الذل ، فرأت اشلاء بنيها مبعثرة في كل سجن ومنفى ، مرتفعة صعداً حتى السماء !

واستعادت في ضميرها احلام الدموع ، والعذاب ، والاوجاع ،

فوثبت هوجاء ، واندلعت نيرانها ، تنتقم للملايين من ... الانظمة والقوانين التي تسكعت تحت نيرها ، ولا يزال شررها متطايراً، في الدنيا بأسرها ، يلقح زملاء الروس في اجيال العسف والاضطهاد

واخيراً ، يانيقولا ، الم تسمع بيوم عبد الحميـد ؟ ألم تقرأ في تواريخ العالم ان الامم لا تموت من الظـلم والاستعباد ، مادام ضميرها حياً ؟

واخيراً ، يانيقولا ، لقد وقف الدولاب : وهـذا يوم الثورة ، تعصف ريحها غضبى ، وفي زئيرها صدى انات الملايين ، المشردين تحت كل كوكب ، وفي كل بلد هائمين . فاذكر ان الدهر يومان ، وان يومك لعصيب !

تنزل القيصر نقولا عن العرش في ١٥ اذار (مارس) - بعد خمسة ايام من سقوط بغـداد ، اي ان الاقدار رمت كل فريق من المتحاربين بحجر من سجين - وفي ١٧ ، اذاع وزير الخارجية بلاغاً الى سفرائه وقناصله في الخارج يعلن لهم فيه رأي الحكومة الجديدة — رأياً جديداً — في اسبـاب الحرب ، وفي مصيرها اذ قال : « ان نظام الحكم الجديد في روسيا عازم على ان يستند الى المبادىء الديموقراطية في وجوب احـترام ارادة الشعوب ، الكبيرة منهـا والصغيرة على السواء ، واحترام حريتها في استقلالها »

وهذه النغمة الجديدة التي لم يسمعهـا العالم من حكومة روسية

قبل الثورة الشعبية الخالدة ، كانت اول معول في دك الحصن الخبيث الذي بنته سياسة الكذب والتضليل والتدجيل

ومضت ثلاثة اسابيع على البلاغ ، فادلى صاحبه ، وزير الخارجية المسيو ميليوكوف نفسه ، ببيان جديد الى مراسل « الطان » في ٩ نيسان (ابريل) يشرح فيه بلاغه بقوله : « ان الحلفاء لا يحاربون لاجل الفتح ، وليست غايتهم الا تحرير الشعوب . — ثم قال — : ومن تلك الغاية التي نحارب في سبيلها ، ان نحرر الشعوب التي تسكن آسيا الصغرى وتحرير ارمينيا والبلاد العربية و ... سوريا »

... وتشعبت الآراء ، وتباينت اهداف الثائرين في مصير الجزرة ، وكان الرأي الغالب يؤيد المبادىء التي اعلنها ساسة الدول المتحاربة في ان الحرب يجب ان تكون ركناً وطيداً لحرية الشعوب ، غير ان نزعة الثوار الى هذه المبادىء الانسانية السامية ، كانت نزعة صادقة ، برهنت السنون والحوادث على انهم لم يظهروا الا ما كانوا يضمرون ، وعلى انهم لم يضللوا الرأي العام ، ولم يخدروا الشعوب ، ولم يكذبوا ، ولم يحملوا بيمينهم انجيل الحرية والسلام ، وبشمالهم سيف الفتح ومدفع الاستعمار ! ......

لم يبق رجال الثورة تلك النزعة الانسانية في صدورهم ، بل بثوها في الصفوف ، واعلنوها في الخطب والصحف ، وارغموا انف الحكومة الموقتة على اعتناقها بالرغم من ان تلك الحكومة لم تكن

لتمثل امانيهم التمثيل الكامل ، وانما كانت همزة الوصل بين العهد القيصري الاقطاعي الفظيع وبين المستقبل المنشود ، فاذاعت في ٩ نيسان بياناً جديداً قالت فيه :

«... ولقد تركت الحكومة الموقتة لارادة الشعب امر التسوية النهائية لجميع الشؤون التي لها مساس بالحرب العالمية وباتهائها، الا انها ترى من واجبها ان تعلن منذ اليوم ان روسيا الحرة لا تبغي السيطرة على الشعوب الاخرى ، ولا ان تسلبهم سيادتهم الوطنية ، ولا ان تستولي بالقوة على اراض اجنبية ، ولكنها تهدف الى بناء سلم ثابت ، يرتكز على حق الشعوب في حكم نفسها بنفسها » اه

وتبلغت حكومات الحلفاء البيان الرسمي الجديد في اول ايار ، ولكن وزير الخارجية ميليوكوف ، ارفق البيان بمذكرة تفسيرية ، اشتم الثوار منها رائحة « النعومة الخبيثة » في المرامي التي عبرت عنها المذكرة بتعبير ذي وجهين ، فقامت قيامتهم، ولا سيما الشيوعيين منهم، وارغموا الوزارة على ان تبلغ الحلفاء ان البيان وحده هو الذي يعرب عن اماني الشعب

ولما يكمل الاسبوعان حتى حدث تبدل في الحكومة الموقتة، اذ انضم اليها عناصر جديدة متطرفة ، فاذاعت بياناً جديداً عن رأيها في مصير الحرب ليطمئن الثوار الى مساعيها ، وقد استهلته بما يلي :

« ان الحكومة الموقتة ، بالاتفاق مع الشعب كله ، ترفض في

سياستها الخارجية اية فكرة ترمي الى عقد صلح منفرد مع الاعداء، وتعلن — على المكشوف — هدفها بانها تروم اعادة السلام العام غير رامية الى السيطرة على شعب ما من الشعوب ، او سلبه سيادته الوطنية ، ولا الى الاستيلاء بالقوة على اية ارض اجنبية ، وانما تريد سلاماً بدون « استعمار » او « تعويض » يرتكز على حق الشعوب في حكم نفسها بنفسها » اه

ولسنا بحاجة الى القول اي وقع كان لهذا البيان بين الشعوب المتحاربة ، واي تأثير تركه في نفوسها ، وكيف استقبلته الاحزاب التي كانت قد بدأت تتذمر من ويلات الحرب طالبة انهاءها ، ويكفي ان يعلم القارئ انه اثار مناقشات عنيفة في المجالس النيابية في اكثر الدول، ولا سيما في لندرة وباريس ، وكانت جلسة النواب الانكليز خطيرة في الاقوال التي القيت فيها، اذ طلب النائب الاشتراكي شنودن ، وهو الذي تولى وزارة المال في حكومة العمال السابقة ، وهو نفسه الذي اهان المسيو شيرون وزير المال الفرنسي في صيف ١٩٢٩ وكان كلاهما وزيراً يمثل حكومته في مؤتمر لاهاي لانشاء مصرف التعويضات الدولية ، فكادت تلك الاهانة تقيم فرنسا وتقعدها واضطرت الشيخ شيرون للانسحاب من جلسة المؤتمر احتجاجاً على « كلام ... » زميله الانكليزي ، — طلب شنودن في ١٦ ايار (مايو) ١٩١٧ من الحكومة البريطانية ان تذيع بياناً كبيان الحكومة الروسية عن

مصير الحرب ، وأيده في طلبه النائب ليس سميث ، وخطب كلاهما خطبة ضافية عن فواجع المجزرة البشرية ، فوقف اللورد روبرت سيسيل يرد عليهما باسم الحكومة واكد ان انكلترة لم تشترك في الحرب لاجل اي هدف يرمي الى الفتح الاستعماري ، ولكن التعبير عن « السياسة الجديدة ... » التي لا تريد «الضم» اوالتعويض هو تعبير يحتاج الى تحديد معناه ... ثم قال اللورد سيسل :

« هل يجب ان نعتبر الاستقلال الذي تطلبه بلاد العرب نوعاً من « الضم » ؟ وان نعيد تلك البلاد الى السيطرة التركية ؟ ... ان ذلك لن تساعد انكلترة على تحقيقه . اما الارمن الذين هلك منهم مليون ومئتا الف نفس ، فكل تغيير في مصيرهم ، حتى اذا كان ضماً كاملاً يعد احساناً لهم . وحالة سوريا وفلسطين هي حالة الارمن عينها ، فقد رمي السوريون واللبنانيون في انياب المجاعة ، وفي لبنان وحده مات ثمانون الفاً جوعاً ! » اه ....

وكأني بالمستر اسكويث ، رئيس الوزارة البريطانية يومئذ ، لم يكتف « بتفسير » اللورد سيسل ، التفسير الناعم الملمس ، بل رغب في زيادة الايضاح فوقف « يفسر » — بدوره — تفسير زميله لبيان الحكومة الروسية ، قال :

« اذا كان من الواجب ان تنتهي هذه الحرب على اساس صلح شريف وثابت فيمكن ان يحدث ، بل سيحدث « ضم » بلدان ،

وسيكون هذا « الضم » قائماً على تحرير شعوب مظلومة من الظلم الذي اضطرت لان تخضع لنيره وعذابه حتى اليوم ، وليس هذا « الضم » مشروعاً فحسب ، وليس هو بالواجب الذي يثقل على ضمائرنا وعقولنا فقط ، ولكن الاهداف التي امتشقنا الحسام لاجلها في هذه الحرب لن تتحقق ،او ينقص تحقيقها ، في ما اذا لم يضم الحلفاء اليهم بلداناً لاجل تحريرها من النير الظالم .

« ويخيل الي ان هناك غاية ثانية تجعل «الضم» واجباً اضطرارياً اكثر منه مشروعاً ، وهي توحيد القوميات التي فرقت بينها الاهواء .. وكان تفريقها مصطنعاً (١)

« ثم ان هناك معنى ثالثاً يخيل الي انه يجعل « الضم » مشروعاً ، وهو الحاجة الى المواقع الحربية المعروفة بانها ضرورة ماسة للدفاع عن النفس .

« فهذه الانواع الثلاثة من الضم هي مشروعة جداً ، ولكن الحكومة الروسية عند ما تطلب منا ان نعلن مثلها ،وتؤيدها في رفض « الضم » فهي تقصد ، ولا ريب ، ضما من النوع الرابع : اعني الفتح لاجل التبسط الاستعماري، والتوسع السياسي والاقتصادي ... واعتقد ان ليس من شخص في هذه الندوة ، او في هذه البلاد ، واني لواثق

(١) مسكين فخري البارودي في قوله : بلاد العرب اوطاني! ...

من انه لا يوجد ايضاً حكومة بين الحلفاء ، مستعدة لاجراء مثل هذا « الضم » المعرض للخطر ، او مستعدة لتبريره » اه...

لم يجرء وزير انكليزي على معارضة البيان التاريخي الذي أذاعته حكومة الثورة الروسية ، ولكن جواب روبرت سيسل ، وجواب اسكويث في « تفسيره » ، كانا ينطويان على تعبير « مكيافيلي » تأتيه الظنون من كل جانب ... ولا سيما في تفسير معاني « الضم » ، فكأن المستر اسكويث ، وهو يشير صراحة الى ان بعض البلدان المشمولة بالحكم العثماني ستسلخ عن جسم السلطنة ، وستكون تحت حكم الحلفاء ، - ولم تكن مخيلة الجنرال سمث قد اخترعت كلمة « انتداب... » - كأن المستر اسكويث ، الذي اشار صراحة في « تفسيره » البيان الى الانتدابات المقبلة ، يريد ان يقول ان السلطنة العثمانية كانت تحكم الاقطار العربية بالسيف والنار والبارود ، وهذا النوع من الحكم هو الوحشية ، والبربرية ، والفظاعة ، والهمجية بعينها ، لان الاتراك كانوا يستثمرون موارد هذه البلاد ، ويرهقون سكانها ، ويحرمونهم حرياتهم ، واما حكم الحلفاء المنوي تطبيقه على البلدان العربية ، المظلومة بنير الاتراك ، اما حكم « الانتداب » فسيكون برداً وسلاماً !

هذا هو التفسير الوحيد الذي يستطيع المستر اسكويث ان يفسر به « تفسير ! » بيان حكومة الثوار في روسيا ، وهو المعنى الوحيد الذي يستطيع كل منا ان يستنتجه من اقوال الوزير الكريم

اما ان القول شيء، والعمل شيء آخر، وان الحكم العثماني هو كيت و كيت، وحكم الانتداب هو المن والسلوى، فلسنا نحن الذين نشرحه في هذه الفصول، ولكننا نترك امر شرحه لسكان البلدان المشمولة بنعم هذا المن والسلوى ... فعلى قلوبهم قد « طبع » الجواب!

ولكن مهما يكن من معاني كلام المستر اسكويث، فاننا نرى فيه قبساً من « الصراحة » في النية، ونلمس منه بعض الطلائع في الاتجاه، ذلك لانه يعلن ان هناك بلداناً ستسلخ عن جسم السلطنة وقد تضم، بل ستضم، الى حكم الحلفاء، فهو اذن كلام جلي، وان كان باطنه غامضاً و... « خبيثاً! »

ولكن، بماذا نفسر جواب الحكومة الفرنسية والبرلمان الفرنسي على ذلك البيان؟

لقد ثارت المناقشة في مجلس النواب بباريس في ٢٢ نوار، اي بعد ستة ايام من مناقشة مجلس النواب الانكليزي، فوقف المسيو ريبو رئيس الوزارة الفرنسية والقى خطبة بليغة عن موقف الحلفاء من مصير الجزيرة، ثم عرض لبيان الثوار الروسيين وما تضمنه من مبادىء انسانية فقال: « ... لقد صرحت لكم منذ ايام ايها السادة ان العدل رائدنا والسلام هدفنا في هذه الحرب، وقلت لكم ما اردده الان على مسامعكم حرفياً: ان فرنسا تريد ان لاتظلم اية قومية، حتى

وان كانت قومية من اعدائها ، بل هي تطلب حرية العالم باسره ، واستقلال الشعوب جميعها ، وستستند في اعمالها يوم النصر الى العدل لا الى الانتقام ... وليس لي الآن الا ان اكرر هذا القول ...

« ... ان صلحاً وطيداً ننشده لايتم الا اذا شدناه على دعامة العدل ، وعلى حق الشعوب ، ولن نفوز بذلك الصلح الا على شرط آخر يجب ان لاننساه ، وهو ان نقضي على الاستبداد العسكري فلا نتركه مستمراً في قسوته وتهديده ! .. » اهـ

وكأني بمجلس النواب الفرنسي لم يكتف بتصريح الرئيس ريبو فعقد جلسة في ليل ٤ — ٥ حزيران واصدر القرار الآتي :

« ... ان مجلس النواب ، وهو الذي يمثل سيادة الشعب الفرنسي تمثيلاً مباشراً ، يبعث الى الديموقراطية الروسية ، والى الديموقراطيات المحالفة الاخرى بسلامه

« ... وهو يرجو ، مبتعداً عن اية فكرة للفتح واستعباد شعوب اجنبية ، ان تتمكن جيوش الجمهورية الفرنسية والجيوش المحالفة ، بعد قهر روح التسيطر الجرماني ، من الحصول على الاسس الثابتة لتوطيد السلام واستقلال الشعوب الكبيرة والصغيرة على السواء ، في ظل مؤسسة عصبة الامم التي تهيأ منذ الان » اهـ ...

أرأيت البون الشاسع في التعبير بين الحليفتين ؟

الانكليز يؤيدون بيان الحكومة الروسية في مصير الحرب ،

ولكنهم في الوقت عينه يفسرون معانيه في القالب الذي يضمن لهم تحقيق مطامعهم الاستعمارية ، دون ان يشعر السامع بان هناك مطامع ... ، وعلى افتراض شعوره بمعارضة روح البيان ، فانه يسمع كلمات العدل ، والشرف ، والانسانية ، تتخلل تلك المعارضة ، فيخيل اليه ان نية الانكليز في « الضم ... » انما هي اشرف النيات البشرية . وأما اصحابنا الفرنسيون ، فانهم يركضون ركضاً في الجواب ، حكومة وشعباً ، ولا ريب بان الشعب الممثل بمجلس نوابه صادق في تمنياته ونياته

ولقد جارى الاستاذ ويلسن نواب فرنسا في ركضهم ، فبعث الى الحكومة الروسية الموقتة بتصريح يؤيد فيه بيانها قال فيه : « ... اننا تناضل في سبيل الحرية ، وفي سبيل الحكم الديموقراطي ، وفي سبيل تنمية الاستقلال الذاتي لجميع الشعوب ... لا يمكن ان يرغم اي شعب على الحياة تحت حكم يرفضه ، ولا يمكن ان ينقل اي بلد من حكم الى حكم الا في حالة ضمانة الراحة والحرية للسكان الذين يعيشون فيه . وعندئذ ، وقد صارت الشعوب حرة ، تسير الانسانية متضامنة لتوطيد السلام والعدل في العلاقات الدولية ، فيجب على الامم ان تفهم قيمة التضامن الذي يجمع بينها ، وان تشترك في جعل هذه المنافع الحيوية بمأمن من التعدي ، والظلم ، والاستبداد الفردي ... اننا لهذه المبادىء الانسانية نناضل ، ولاجلها رضينا بسفك دمائنا وبتضحية

ثرواتنا ، ولقد آن الاوان لان ننتصر او نقهر ! » اه ...

ويضيق بنا المجال في تسجيل كل ما قيل في هذا الصدد ، وهو قول غمر العالم بموجة التنفس والامل ، وهز الدنيا بأسرها طرباً ورجاء ، ولكن سمعت شيئاً ، ايها العالم ، وقد فاتتك اشياء : « فالذي ضرب ضرب ، والذي هرب هرب » ، والاتفاق بين الحلفاء على اقتسام الاقطار العربية كان قد تم — سراً — ، وها انك تسمع اللورد ، النبيل القلب ، روبرت سيسل يعطف في خطابه على الارمن واللبنانيين ، والسوريين « المسلمين ! » ، وعلى فلسطين ، ولكنه لا يشير بحرف الى العراق في ذلك العطف ! وها هي وزارة لندرة ، وزارة غراي ، وسيسل ، واسكويث ، ولويدجورج ، وزملائهم الذين غنوا لسكارى الموت ، في المجزرة ، انشودة الحرية والاستقلال ، ها هي وزارة لندرة تكتب ، بعد خطب اقطابها ورجالاتها ، مذكرة (١) الى حكومة الثورة الروسية ، جواباً على بيانها ، ترحب فيها بمبادئها الجديدة ونياتها ، وتؤكد لها انها لم تدخل الحرب الا لاجل تلك الاسس المذكورة في البيان ، ثم تختمها بهذه ... « الرشوة ... الكريمة » فتقول :

« ... والحكومة البريطانية تظن ان الاتفاقات التي عقدتها

---

(١) نشرتها جريدة « الطان » الباريسية في ١٤ — ٦ — ٩١٧

بينها وبين حليفاتها ، من وقت الى آخر ، تتفق في نقاطها العامة مع تلك الاسس .

« على انه ــ وليتنبه القارىء الى « الرشوة » في هذا الاستدراك الناعم ــ على انه في اي حال ترغب الحكومة الروسية في فحص تلك الاتفاقات ، فان الحكومة البريطانية وحكومات حلفائها مستعدة لتعديلها اذا كان ذلك ضرورياً » اه

تكرمت حكومة لندرة بتلك الرشوة ولكن الثوار الروس رفضوها ، وابوا الا ان يكونوا اشرافاً في العمل ، كما كانوا اشرافاً في القول ، فأعلنوا ان حكومة العمال الجديدة تتنزل عن كل امتياز كان لحكومة القيصر السابقة ، في اي بلد كان !

وقالوا : ان الحكومة الشريفة ، كالرجل الشريف ، لا تحفر يدها القبر لكلام ينطق به لسانها : إذا كان المتحاربون صادقين في اقوالهم فعليهم ان يقضوا على جميع الاتفاقات السرية ، ويتنزلوا عن جميع الامتيازات التي يتمتع بها مواطنوهم في البلدان المستضعفة ، ويعلنوا حالا استقلال جميع الشعوب ، ويعترفوا ، مثلنا ، بذلك الاستقلال ... وإلا فهم : كذابون ، مراوغون ، مجرمون !

اعلن الثوار الروس تنزلهم عن جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها حكومة بطرسبرج بقوة السيف والاكراه في بلدان كثيرة ،

ولا سيما في الشرق ، وانسحبوا من منطقة النفوذ الروسي في ايران، بعد ان احتلها الطغيان القيصري وظلمها وارهقها بموجب عهدة ١٩٠٧، واعترف الثوار باستقلال تلك البلاد ، فاذا بالجيوش الانكليزية تزحف الى . . . المنطقة التي كان يحكمها الاستعمار القيصري ، وتواصل زحفها الى ... القوقاس ! واذا بشركة « الانكلو برشيان » تراود السمسار الارمني كوشتاريان ، وتغره بالوعود ، ثم تخيفه بالتهديد ، فتشتري منه امتياز النفط الذي حصل عليه من حكومة طهران بضغط السفير الروسي والجيش الروسي سنة ١٩١٦

وكان لهذا الشراء « قصة » ــ واية قصة ! ــ بعد انتهاء الحرب، في مصير الاقطار العربية



... واظن ان التعبير الجديد «صلح، بلا ضم بلدان ولا تعويض» الذي نسمعه في بعض تصريحات الحكومة الروسية الموقتة، لم يفهم الفهم الكامل بسبب النقص الذي يعتور المعجم الدولي، اظن ذلك لان ضم بعض البلدان بعد الحرب سيكون حتماً، بل هو واجب»

(من بيان لرئيس الوزارة الانكليزية اسكويث في ١٦ نوار ١٩١٧ امام مجلس العموم)

—*—

« ... وهناك عصبة ثالثة من الامم القديمة التي كانت مستقلة، وصارت ضحية تحت نير الاستعمار، وهي مؤلفة من ارلندة ومصر وطرابلس الغرب ومراكش والهند والتيبت وكوريا، يؤكد لها الاشتراكيون الالمان اصدق العطف وأحره، لما بذلته من جهد في سبيل استعادة حريتها الوطنية . وانّا لنغتبط بان يرفع اشتراكيو الدول التي تحكمها اصواتهم لتحرير تلك الامم من الارهاق الاجنبي »

(من مذكرة الحزب الاشتراكي الالماني (حزب الاكثرية) في حزيران ١٩١٧ رداً على الاسئلة التي طرحتها عليه اللجنة الاشتراكية الهولاندية السكاندينافية في ستوكهولم عن رأي

الاشتراكيين في مصير الحرب)

—*—

« ... ويجهل دعاة السلم في بلادنا ، السابحون في عالم الخيال ، ان الدولة التي اعلنت الحرب للتبسط والاستعمار انما هي الدولة الالمانية » (من خطبة للوزير الانكليزي بونارلو في ٢٦ تموز ١٩١٧ امام مجلس العموم)

—*—

« ... وان لفرنسا ولحلفائها مشروع استعمار خطيراً ، يقضي بالسيطرة على بعض الشعوب بعد الحرب ، وقد وضعوا خططه سراً ، وها اني اتحدى الحكومة الفرنسية علناً ، واسألها عما اذا كانت تستطيع نكران الموقف الحرج الذي وقفه رئيسها المسيو بريان والمسيو ريبو وزير الخارجية ، في الجلستين السريتين اللتين عقدهما مجلس النواب الفرنسي في ١ و ٢ حزيران ١٩١٧ ، وهاجمهما فيهما بعض النواب الاشتراكيين فاضطرا للاعتراف بان فرنسا اتفقت مع حكومة القيصر الروسية ، وذلك قبيل اندلاع ثورة الشعب الروسي ، على خطط استعمارية مترامية الاطراف ؟؟ لا تستطيع الحكومة الفرنسية نكران ذلك ، ولا تستطيع نكران الحملة العنيفة ، التي هوجم بها المسيو بريان في تينك الجلستين ، وان المسيو

ريبو الذي انكر في بدء المناقشة وجود اتفـاق سري بين حكومتي باريس وبطرسبرج، اضطر لان يعترف بعد الحاح النائب رينوديل بوجود الاتفاق، ثم وقف المسيو بريان وكشف القناع عن وجه فرنسا المستعمرة قائلا : «ان على حكومة الثورة الروسية ان تفي بالعهود التي قطعها القيصر، وان فرنسا لا تبالي بالجماهير الروسية الوضيعة ... » مما حمل نواب المعارضة على مقاطعته بحق ،صارخين في وجهه: « هذا عيب ، هذا عـار »

« ان الحوادث التي جرت بعد الجلستين السريتـين ، والاقوال التي وصلت الينا منها ، كل ذلك يدل بجلاء على ان الحلفـاء هم اصحاب فكرة الفتح ، والاستعمار ، واستعباد الشعوب. وهم الذين يرمون بدائهم وينسلون ... »

(من تصريح ادلى به المستشار الالماني ميكايلس في ٢٨ تموز (يوليو) لرجال الصحافة الالمانية في برلين)

—*—

« ... ان في رواية المستشار ميكايلس عن الاتفاق السري بين فرنسا وروسيا اخطاء فادحة واكاذيب صريحة ... اننا نكذبه بحق، لانه سمح لنفسه بتزوير معنى الرسائل التي تبودلت بيننا وبين حكومة بتروغراد في شباط ١٩١٧ والتي يعرفها حق المعرفة »

(من خطاب للمسيو ريبو في مجلس النواب في ٣١ تموز ١٩١٧ يرد فيه على تصريح رئيس الوزارة الالمانية المنشور سابقاً)

—*—

« ... ان هذا المؤتمر يستنكر اية متابعة لاية سياسة سرية ، ويرفض « التسويات » التي تمت على غير معرفة الامة بها ، ويطلب ان تطلع الامة على الشرائط التي يمكن بواسطتها عقد صلح ثابت وعادل » ويذكر الدول بأنه :

» ١ً — لا يقبل باي ضم ارضي (استعمار)

» ٢ً — يجب ان يكون للشعوب حقها في حكم نفسها بنفسها » الخ..

(من مقررات مؤتمر حزب العمال الفرنسي (سي . جي . تي .) المنعقد في مدينة كليرمون فران في ٢٥ ، ١٢ ، ١٩١٧)

—*—

« ... ولقد تكلموا كثيراً عن اتفاقات عقدت بيننا وبين حلفائنا على تلك القضايا (اقتسام السلطنة العثمانية) ، وجل ما استيع قوله في هذا الصدد اننا مستعدون ، وقد كنا مستعدين دائماً لمناقشة حلفائنا في تلك الاتفاقات

« ... واذا سئلنا : على م نحارب ؟ فاننا نجيب كما اجبنا دائماً ، باننا نحارب لاجل صلح عادل وثابت ... ولاجل الحصول على هذا الصلح يجب ان يجري الاتفاق على تسوية الاراضي ، بناء

على حق الامم في حكم نفسها بنفسها ، اي بناء على موافقة المحكومين .

« ... والشعوب البريطانية مستعدة لتقديم تضحيات جديدة ، اكثر من التي قدمتها في الماضي لتحقيق هذه الشروط » اهـ

(من خطبة للرئيس الانكليزي لويد جورج امام وفد العمال في لندره في ٥ ك ٢ (يناير) ١٩١٨)

—*—

« ... ان عهد الفتوحات والتبسط الارضي قد مضى ، ومضى ايضاً عهد الاتفاقات السرية التي عقدت لفائدة بعض الحكومات ، وباستطاعتها ان تقضي على سلام العالم في ساعة غير منتظرة »

(من خطاب الرئيس ويلسن في البرلمان الاميركي في ٨ — ١ — ١٩١٨)

وفي ٢١ شباط (فبراير) ١٩١٨

اذاعت جريدة « برافدا » الروسية

نصوص الاتفاقات السرية التي عقدتها

فرنسا وروسيا وانكلترة

لاقتسام السلطنة العثمانية !!

الوطن اليهودي في ... فلسطين

في اي يوم وقف اللورد روبرت سيسيل في مجلس النواب الانكليزي يخطب عن عطف بريطانيا العظمى ، وحلفائها ،على الشعوب الرازحة تحت النير التركي في لبنان ، وسوريا ، وفلسطين ؟

في اي يوم قال اللورد النبيل روبرت سيسيل ، وغير اللورد روبرت سيسيل ، ان الحلفاء يحاربون لاجل تحرير الشعوب الكبيرة والصغيرة على السواء ، ولاجل تأييد حقها في تقرير مصيرها ، واستقلالها ؟

في ذلك الوقت عينه كان موظفو الحلفاء يستقبلون في دواوينهم جماعة من الاسرائيليين ، و « يفاوضونهم » في انشاء وطن قومي لليهود في ... فلسطين !

وفي شهر شباط (فبراير) ١٩١٧ صرحت الوزارة البريطانية تصريحاً جازماً بتأييدها هذا المشروع

وفي ٤ حزيران (يونيو) ١٩١٧ ، وبعد مفاوضات ومداورات، ومساع و « سعايات » ، قام بها رجل اسرائيلي يدعى سوكولوف لدى موظفين في وزارة الخارجية الفرنسية ، نذكر منهم السادة كامبون ومارجيري وبيكو ، في ٤حزيران بعث المسيو جول كامبون، امين السر العام في وزارة الخارجية ، بكتاب « تكميلي » الى

سو كولوف ، يعلمه فيه ان الحكومة الفرنسية لا تستطيع بعد « ان يصبح استقلال الاراضي المقدسة «مضموناً ، الا العطف على القضية الصهيونية المربوط نجاحها بنجاح الحلفاء » (١)

وفي ٢ ت ٢ (نوفمبر)١٩١٧ كتب السيد ارثور بلفور ، وزير خارجية بريطانيا العظمى ، كتاباً الى اللورد روتشيلد رئيس العصبة الصهيونية في اوروبا ، هذا نصه :

« يسرني كثيراً ان ابعث اليكم من قبل حكومة صاحب الجلالة بالتصريح الآتي ، الذي يعطف على الاماني اليهودية الصهيونية ، وهو تصريح عرض على مجلس الوزارة فاقره :

» ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين الاستحسان الى انشاء « وطن قومي » في فلسطين ، للشعب اليهودي ، وستستخدم جهودها كلها لتحقيق هذا المشروع ، على ان يفهم جلياً انه لن يؤتى باي عمل من شأنه ان يمس الطوائف غير اليهودية الساكنة في فلسطين، سواء أفي حقوقها المدنية ام الدينية ، ولا ان يمس الحقوق والانظمة السياسية التي يتمتع بها اليهود في اي بلد آخر »اه...

وفي ١٣ ك ١ (ديسمبر) سأل النائب الانكليزي المستر لينتش Lynch وزير الخارجية في مجلس العموم السؤالين الآتي نصهما :

« هل راعت الحكومة ، في ما يتعلق بشكل الحكم المقبل في فلسطين،

---

(١) دي غونتوبيرون ، ص ١٥٣

مصالح فرنسا التاريخية في تلك المنطقة ؟ وهل كانت التدابير التي اتخذت حتى الان ، والوعود التي اعطيت ، لا سيما باقامة اليهود في اورشليم (القدس) ، على اتفاق كامل مع ممثلي الجمهورية الفرنسية؟ »

فرد عليه السيد بلفور : « يجب ان لا يخامر نفس الجنتلمان النبيل اقل خشية من اننا نحاول ، بسياستنا في فلسطين ، التقصير في اخذ اراء حلفائنا بأتم الاعتبار »

فسأله النائب لينتش : « اذا اعترفنا بذلك ، في الوقت الذي يسعى الحلفاء فيه الان لتوطيد التعاون بينهم في هذه القضية ، فنحن نتساءل : هل عقد اتفاق (على مصير فلسطين) يا ترى ؟ »

فاجاب بلفور : « نعم ، اننا نعمل في اتم التفاهم » (١)

وفي ١٠ شباط (فبراير) ١٩١٨ نشرت صحف باريس بياناً رسمياً هذا نصه : « استقبل هذا الصباح المسيو ستيفان بيشون (وزير خارجية فرنسا) المسيو سوكولوف ممثل المؤسسات الصهيونية ، وكان (الوزير) سعيداً في ان يؤكد له ان التفاهم تام بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية على قضية انشاء وطن يهودي في فلسطين » اهـ

وفي ١٤ شباط كتب الوزير بيشون الى سوكولوف رسالة يؤكد له فيها « تأكيداً رسمياً » ماجاء في ذلك البيان !!

---

(١) دي غونتوبيرون ، ص ١٥٤

ما معنى هذا ، ياجماعة ... « الخير » ؟ وما فعلتم بالوعود والعهود التي قطعتموها للعرب ؟

الوعود ؟ :

انها « ارخص من الترمس » ! وما دامت لا تكلف سوى كلام بعد كلام ، فخذ ما شئت منها :

في ٨ شباط (فبراير) ١٩١٨ ، بعد جميع ما كتبه الحلفاء لليهود ، بعث الزعيم (الكولونيل) رابست Cl Rabst ممثل الحكومة البريطانية في جده ، بكتاب الى « صاحب الجلالة ملك الحجاز وشريف مكة واميرها الخ... »يبلغه فيه نص البرقية التي طيرتها وزارة الخارجية في لندرة الى صاحب الجلالة الهاشمية ، وقد جاء فيها ما نعربه حرفياً : « ... ولا ريب بان السياسة التي تتبعها تركيا ترمي الى خلق الشكوك والريبة بين دول الحلفاء وبين العرب الذين بذلوا جهود عجيبة تحت امرة جلالتكم العالية وادارتكم ، لاستعادة حريتهم السابقة .

» والسياسة التركية لا تنقطع عن زرع هذه الشكوك ، وايهام العرب بان لدول الحلفاء مطامع في اراضيهم ، وحمل الحلفاء على الاعتقاد بانها تستطيع نهي العرب عن الخطة التي قرروا اتباعها

» ولكن مزاعم الدساسين لن تتمكن من زرع الخلاف بين الذين يتجه فكرهم نحو هدف واحد وفكرة واحدة

« ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، تستمر بالاتفاق مع حلفائها ، في اتباع خطة العطف على كل حركة ترمي الى تحرير الشعوب المظلومة ، وهي مستعدة لتأييد الامم (كذا) العربية في جهادها ، لاعادة بناء امبراطورية عربية يسود فيها الحق والشريعة بدلا من الظلم التركي ، ويختفي من بين العرب ، النزاع المصطنع الذي اثارته السلطات التركية الرسمية

« ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تكرر وعودها السابقة المتعلقة بتحرير الامم (كذا) العربية

« وهي قد عزمت ، بعد ارتباطها بهذه السياسة ، سياسة التحرير ، على الاستمرار في هذه الخطة بشرف ، وقررت عدم السماح باعادة العرب المحررين الى لجة الاستعباد ثانية ، وعلى مساعدة العرب الباقين تحت النير على نيل حريتهم . » اه

ولا بد للقارىء من ان يتساءل عما كان يدفع الحلفاء عامة ، والانكليز خاصة ، الى التناقض بين الاقوال والاعمال ، والاهتمام بمصير فلسطين والعراق على الاخص

والجواب سهل : ففلسطين جزء من سوريا التي تطمع بها فرنسا ، والتي « منحتها » في اتفاق سيكس — بيكو ، وفي فلسطين مدينة حيفا التي هي ميناء شرقي الاردن وبغداد ، وفي العراق ابار ... النفط .

فانشاء دولة عربية واحدة ، في هذه الاقطار ، تجاور مصر ، يهدد طريق الهند بخطر مستطير . والسماح لفرنسا بضم فلسطين الى سوريا يقطع على الانكليز في العراق وشرقي الاردن ، طريق البحر ، وتصبح ينابيع النفط التي تملكها في ايران والتي تطمع بها في الموصل وبغداد ، تحت رحمة الفرنسيس .

وكان الحلفاء بحاجة الى ... المال ، والى الدعاية في الايام السوداء ، والمال في صناديق اليهود ، والدعاية على السنة خطبائهم وتحت اقلام كتابهم ، فان ثلاثة ارباع صحف الاخبار في العالم يملكها اسرائيليون ، فكان خير حل لهذه المشكلة ان يأتوا باليهود من اطراف الدنيا ليخلوهم ارض الميعاد ، فيربحوا مساعداتهم المادية والمعنوية ، ويؤسسوا « دولة فاصلة » بين الاقطار العربية ، ويبعدوا الفرنسيس عن ميناء النفط !

وبعد ، فكلمة تعليق :

ان اللواء مود قائد الحملة الانكليزية ، أذاع بلاغه التاريخي ، يوم دخل بغداد ، باسم مليكه والشعوب التي يحكمها ، ولم يقف وعده الامة العربية بالاستقلال ، وباستعادة ما كان لها من المجد والشهرة ، على رغبة الحكومة الانكليزية وحدها ، بل قال اللواء « المحرر » ان الحلفاء جميعهم مشتركون في تلك الرغبة ، و « متمنون .. » ذلك ، وهي ولا ريب ، اي الامة العربية — وقد سمعت الوعد

الشريف من دول شريفة تحارب لاجل الشرف — « ستنضم من اجل هذه الغاية الى دول التحالف » . وفي هذا الوعد وحده ، وهو صادر من شريف ، ومبني على فكرة شريفة ، حجة للامة العربية على انها « وعدت » بالاستقلال لقاء « جهادها ولقاء الدماء التي هدرها العرب » الى جانب الحلفاء لرفع النير الاجنبي عن عاتقها

اقول : ان وعد اللواء مود وحده كاف لان يكون حجة على القول بان العهود التي قطعها الحلفاء جميعهم للعرب بالاستقلال لم تكن لاقليم واحد من بلادهم ، ولا لقطر واحد من وطنهم ، كما يريد ان يزعم الصيونيون والمتصهينون ، واذنابهم وحلفاؤهم ، وانما كان ... للعنصر العربي كله ، ولقد اعلن ذلك الوعد على أهل بغداد على انهم عرب ، وجزء من كل ذلك العنصر ، وليس على انهم عراقيون يسكنون ارض الاشوريين والكلدانيين ... ومهما قيل في « جنسية » ذلك الواعد وجنسية حكومته ، فالواقع الذي لا ريب فيه هو ان اللواء مود كان قائداً من قواد الحلفاء ، وان نطق بالانكليزية ، وقد تكلم باسم الحلفاء ، وان توج بلاغه باسم جلالة مليكه . وحجة ثانية للعرب في تأييد هذا الحق لهم ، هي ان سبق للحكومتين الانكليزية والفرنسية واتفقتا في عهدة سيكس بيكو على ان المفاوضات التي تجري مع العرب لاجل حدود الدولة ، أو اتحاد الدول العربية ، —

لبنان ، سوريا ، فلسطين ، شرقي الاردن ، العراق — تستمر جارية مع العرب ، في السبل عينها التي جرت فيها سابقاً باسم الحكومتين معاً ، اي باسم فرنسا وانكلتره . (البند الحادي عشر من عهدة سيكس بيكو) — فاذا لم يكن للعرب اي مستند في الدفاع عن حقهم في الاستقلال إلا هذا البند وحده ، من اتفاق لم يكن لهم فيه اي رأي ، لكفاه مستنداً « قانونياً » يعمل به في القول ان الحلفاء كانوا يفاوضون أبا الثورة القومية — رحم الله الحسين ! — على انه يمثل العنصر الذي يملك الاقطار المذكورة في العهدة ، وليس لانه شريف مكه فقط !...

ثم هذه برقية وزارة الخارجية ، باسم حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، الى جلالة الملك حسين ، بعد وعد بلفور ، تنفي « مزاعم الدساسين الذين اوهموا العرب بان لدول الحلفاء مطامع في اراضيهم » و « تكرر الوعود السابقة المتعلقة بتحرير العرب ، مع العزم على الاستمرار في هذه الخطة ، خطة التحرير ، بشرف . — « بشرف » — وبما ان الحجاز والعراق قد تحررا من النير التركي فان الحكومة البريطانية ستساعد العرب الباقين تحت النير (في سوريا التاريخية) على نيل حريتهم !

فماذا يقولون بعد ؟ وماذا نقول ؟

ايها الاقوياء !

اننا نخشى ان يأتي يوم ، يكتب فيه احد ادباء الامم المستضعفة ما يرد به على الفيلسوف العربي الجليل ، الاستاذ امين الريحاني ، فيقول :

انا الغرب: عندي طيارات ، ودبابات
وغواصات ، ونسافات
واختراعات واكتشافات
انا الغرب : عندي نفط ، عندي مال
علم ، فن ، واستقلال
فمن يبيعني بها كلها ، بها ... كلها ...
ذرة ... صغيرة ... من الشرف !
انا الغرب ! ...



الهدنة

تطاير شرر الثورة الروسية الى صفوف الجيش ، فنشبت ثورة شعبية ثانية في ٦ و٧ ت ٢ (نوفمبر) تولى الشيوعيون على أثرها الحكم ، وبعثوا الى الدول المتحاربة بنداء جديد يدعونها فيه الى التفاوض في عقد الصلح ، قائلين : « ... ان حكومة مجالس العمال والفلاحين والجنود في روسيا ترى ان متابعة الحرب ، لاقتسام الدول الصغيرة المغلوبة على امرها ، بين الدول الغنية والكبيرة ، هي جريمة كبرى على الانسانية . والحكومة تصرخ علناً بعزمها على عقد صلح ينهي الحرب ، ويكون عادلاً لجميع القوميات » الخ ...

ولكن المتحاربين ، المتبرمين بويلات المجزرة ، والمتذمرين من نكباتها ، اصيبوا بالصمم فلم يجيبوا ... انهم بكم ، صم ، لايفقهون ! فاضطرت الحكومة الروسية الى عقد صلح منفرد في بريست ليتوفسك ، وتراجعت جيوش الروس من ميادين القتال .

وكان لزاماً ان تنتشر الفوضى بعد تلك الثورة الاهلية الداخلية ، ولا سيما في اطراف المملكة ، فافاقت الاطماع الكامنة في صدور « قادة » الاتراك والالمان للاستيلاء على القوقاس ، منبع النفط الذي لا ينضب ، فكانت الثورة الروسية « حظاً » على الانكليز إذ ألمت اعداءهم عنهم ، وقد اشار امير اللواء الالماني ليمان فون

ساندرس في مذكراته الى ذلك الطمع الجنوني في فتح القوقاس ، في حين ان الخطر كان يهدد الاتراك في ساحتهم ، في عقر دارهم ، فقال:
« ... واعلمتني البعثة العسكرية الالمانية في الاستانة ، في مطلع ايلول ١٩١٨ ، ان الصحافة التركية كانت تعالج بلهجة قاسية جداً الاتفاق الذي عقده الالمان مع الروس في ما يتعلق بباكو (عاصمة ازربيجان ، ومفتاح القوقاس ، ومستودع النفط) وان تركيا تطلب توسط المانيا لتكون ازربيجان دولة فاصلة مستقلة ... ثم أنبئت ايضاً بان مشاريع السياسة التجارية التي تقوم بها المانيا في بلاد القوقاس اخذت تصطدم بمطامع الجامعة الاسلامية التي ترمي اليها تركيا ، فخلقت تشادداً عنيفاً بين الامتين ...
« ... وكانت الحكومة التركية تستند في مزاعمها الواسعة الى مذكرة من السفير البارون فون فانجنهيم ، ما تزال صحتها تحت الريبة ، ويرجع تاريخها الى سنة ١٩١٤ ، يستخلص منها اننا (الالمان) وعدنا الحكومة التركية باعطائها باطوم وخرس وقرد خان ثمناً لدخولها الحرب ، وهي تطلب الان ، بعد الانهيار الروسي ، اراضي اوسع في تلك المنطقة ...
« ... ان تركيا لم تكن مهددة اقل تهديد بهجوم الاعداء ، لا في ازربيجان ولا في بلاد القوقاس ، ولقد اساءت اختيار الساعة في ايجادها جبهة جديدة تحارب الانكليز في ايران الشمالية ، مما سبب

اضعاف الجبهة التركية الثنوية بين الموصل وبغداد ... »(١) الخ

وكان الصيف

وجرت فيه افظع المعارك الرهيبة التي عرفها التاريخ البشري ، واخذ الموت يحصد مئات الالوف ، من جميع الصفوف ، وفي كل مكان : في السماء والفضاء والماء ، واضطرت الدول المركزية لطلب الهدنة ، الواحدة تلو الاخرى ، فعقدها الاتراك في ٣٠ ت١ (اكتوبر) بموجب عهدة موندروس ، وكان امير البحر الانكليزي اللورد كالثورب يمثل الحلفاء . فاين كان الجيش الانكليزي يومئذ ؟

انه كان في بلدة شرقات ، القائمة على انقاض مدينة اثور التاريخية ، على بعد ١٣٥ كيلومتراً من ... من الموصل « ...وكانت القوات البريطانية في خط قد ترك الموصل ، واربيل ، والسليمانية ، خارج منطقة احتلالهم ... ولكن القائد مرشال (الانكليزي) زحف الى هذه البلدان واحتلها ... بالرغم من ان الهدنة كانت قد اعلنت ... وبالرغم من ان الواجب كان يقضي على كل جيش بالبقاء في المكان الذي كان فيه ساعة اعلانها ! ... (٢)

---

(١) ــ خمس سنوات في تركيا : ص ٣١٠ و٣١١

(٢) ــ من بيان فتحي بك ممثل الحكومة التركية امام مجلس عصبة الامم المنعقد في بروكسل في ٢٧ و٢٩ ايلول ١٩٢٤

يا عجباً !! ما بال الانكليز يعقدون الهدنة مع الاتراك ويتابعون زحفهم ، اي اعمالهم الحربية ، في الايام التالية حتى وصلوا الى الموصل واحتلوها ، وهي ليست « لهم » بموجب اتفاق سيكس بيكو ، فلا يحترمون توقيعهم على ذلك الاتفاق ، ولا على عهد الهدنة ، في حين انهم صاروا في ساحة آمنة ، وفي عهد سلام ؟

بل ما بالهم يقيمون في فلسطين ويستأثرون بحكمها ، وكانوا قد اتفقوا مع الفرنسيين على جعلها منطقة رمادية تؤسس فيها ادارة دولية ؟

بل ما بالهم يلحقون بالجيش العربي في دمشق ويشاركونه ادارة « الاحتلال » ؟

بل ما بالهم يسبقون القائد الاعلى لجيوش الحلفاء ، امير اللواء الفرنسي فرانشي ديسبري ، فيدخلون الاستانة قبله ، ويستأثرون بالحكم فيها ؟

لانهم ... « يفهمون ! » ، وفي مناهجم « مستقرون » ، ولان سياسة النفط ستكون الميزان لمصير هذه البلدان ، والنفط حياة الانكليز ، كل الحياة ، فلا أقل من وضع يدهم عليها ريثما يقرر مصيرها .

ولا بأس ، ونحن على عتبة عهد جديد ، من أن نستعيد سريعاً بعض اعمالهم السياسية في هذه الاقطار :

وعد الانكليز العرب بالاستقلال

واقتسموا وحلفاءهم الفرنسيين ، بعد سنة من ذلك الوعد ، بلاد

هؤلاء العرب الذين وعدوهم بالاستقلال !

وكانت الموصل من الاراضي التي تتألف منها الدولة العربية المنوي تأسيسها

ثم فكر الانكليز في الاستيلاء على الموصل لتكون من ممتلكاتهم المباشرة

ثم « تنزلوا » عنها للفرنسيس في اتفاق سيكس بيكو

وكانت سوريا الجنوبية (فلسطين) من البلاد التي تتألف منها دولة العرب المقبلة

ثم جعلوها في اتفاق سيكس بيكو « منطقة رمادية تؤسس فيها ادارة دولية ... يقرر شكلها بعدئذ بالاتفاق مع الحلفاء الآخرين ومع ممثلي شريف مكة »

ثم اعلن الوزير الانكليزي بلفور وعده المشؤوم في ٢ ت ٢ (١٩١٧) بجعلها وطناً قومياً لليهود

ولما تتم فصول المأساة !

***

واضطرت المانيا الى طلب الهدنة ، ورضيت مكرهة بالشروط التي املاها عليها الحلفاء ، فوقع عليها مندوبو المتحاربين ، في ١١ ت ٢ (نوفمبر) ١٩١٨ في غابة كومبيين الفرنسية ، وكان يمثل الحلفاء قائد جيوشهم الاعلى المرشال فوش ، ورئيس اركان حربه القائد

ويغاند ، وامير البحر البريطاني السير روسلين ويميس (١) وسواهم من القواد البريين والبحريين ، وعبثاً حاول الوفد الالماني تخفيف الشروط القاسية فلم يفلح ، فتقدم رئيسه الوزير ماتيا ارزبرجر من الطاولة المطروحة عليها الهدنة ، وتناول القلم ، وقال لفوش عبارته التاريخية : « ان شعباً من سبعين مليون رجل يستطيع ان يتعذب ، ولكنه لا ... يموت ! »

ووقع على صك الهدنة . وسكت صوت المدفع في جميع الميادين!

***

صمت الموت ، وافتر ثغر اوروبا ، لاول مرة بعد عبوس اربع سنوات ، عن بسمة الراحة ، والسرور ، و.... الامل ! فذرفت دموع الفرح ، وغمر العالم خيال الاحلام ، يقبل الايامى والايتام ، ويعزي المنكوبين !

وبعد عشرة ايام على التمام (في ٢١ ت ٢) كان ملوك النفط مجتمعين في لندره يحتفلون بختام « مؤتمر النفط بين الحلفاء » اذ أدبت لهم الحكومة البريطانية وليمة عشاء في « لانكستر هوس » حضرها الشيخ هنري بيرنجه ممثل فرنسا في المؤتمر ، واللورد

(١) ليحفظ القارىء هذا الاسم فان صاحبه لعب دوراً خطيراً في السياسة العربية منذ الثورة الاولى في الحجاز وهو من اقطاب النفطيين في العراق وسنتحدث عنه في الكتاب الثاني

كورزن وزير الحرب الانكليزي ، والسيد ولتر لونغ وزير المستعمرات البريطانية والنفط ، وشارل غرينوي ، وديتردينغ ، وشريكه الاسرائيلي مرقس صموئيل (عم السير هربرت صموئيل) وسواهم من رجال الملاحة البريطانية والجيش والطيران الخ ... فالقى اللورد كورزن خطبة « انكليزية » عن اهمية السائل الاسود ، والدور الخطير الذي قام به في سنوات القتال ، وذكر الصعوبات التي ذللها النفطيون في طريق الحلفاء ، مثنياً عليهم (١)

ووقف الشيخ بيرنجه ممثل فرنسا ، يتكلم بدوره ، فقال بعد مقدمة طويلة : « ... أجل لقد انتصر الحلفاء ، في هذه الجزرة ، انتصاراً كبيراً يضاهي كبر مبادئهم ووسائلهم ، ولكن النصر لم يكن ليتم لولا ذلك العنصر الحيوي الذي ساعدنا على قهر الجرمان ، لقد

---

(١) في منتصف سنة ١٩١٧ ألف الحلفاء جمعية نفط مشتركة برئاسة الاستاذ السير جوهن كادمان الانكليزي ، لتامين جيوشهم من الحصول على المواد اللاهبة على اختلاف انواعها ، وكان على هذه الجمعية ان تمون اساطيل الحلفاء البحرية والجوية والنقالة بالبنزين ، وتمون المصانع الحربية ، والاهلين في جميع مدن الاحلاف ، بما تحتاج اليه من النفط . فليحفظ القارىء اسم السير كادمان لانه احد ابطال تقرير مصير العرب ، ومن ملوك نفط في العراق

انتصر الحلفاء بدماء جنودهم ، ولكن النصر لم يكن ليتم لولا ذلك الدم الاخر الذي اسمه : النفط

« ... وكان الفضل في ذلك للشركات الكبيرة كشركة الشل ، وشركة النفط الاسيوية ، والستندارد اويل ، والمكسيكان ايغل ، والانكلو برشيان ، واخواتها وشريكاتها في البر والبحر .. وسيذكر التاريخ ، باعجاب وتقدير ، مساعيها لاجل القضية البشرية ، ويذكر ، بشرف ، مديريها العظام : ديتردينغ ، وغولبنكيـان ، وبدفورد ، و كوردي ، وغرينوي ، الذين سيذكرهم اطفالنا ابداً في مقدمـة محرري المدنية ! .. »

وبعد ان خص الخطيب كل شركة وكل مدير بما قام به من « خدمات » نفطية للحلفاء ، وقد اسهب في الاطراء ، نظر الى من حوله قائلا : « ... والان ، ايها السادة ، يجب علينا ان نظـل حلفاء واصدقاء ، في المدنة كما في الحرب ، لان المدنة لم تنه الحرب بعد : ولا يزال المنتصرون بحاجة ... الى النفط .

« ... ان فكرة عصبة الامم هي فكرة سامية ، وخيال نبيل ، ولكني من الذين يعتقدون بان هذه الفكرة لا يمكن تحقيقها الا بعصبة ثانية من الحلفاء تضم «اصحاب المواد الاولية » ، فيجب علينا ان نظل حلفاء في انتاج هذه المواد واقتسامها ، كما كنا حلفـاء في التضحية والبطولة ، لاجل عدل اعظم ، واستقلال اسمى ، بالرغم من

سيطرة البعض (تصفيق)

« ... واذا كان النفط دم الحرب، فاحر به ان يصير دم السلام، واني لارفع كأسي على شرف سياسة الحلفاء النفطية ، التي يحققها تضامن حكوماتهم وصناعييهم » ! الخ (تصفيق طويل)

***

ما هذه النغمة الجديدة يا اخا العرب ؟

علام يطلب الشيخ بيرانجه استمرار تضامن الحلفاء ، حكومات وصناعيين ، في السياسة النفطية ؟

علام ذلك الخوف الذي يبدو جلياً من خلال قوله : « يجب علينا ان نظل حلفاء واصدقاء في المدنة كما في الحرب ، وان نظل حلفاء في انتاج المواد « الاولية ... » واقتسامها كما كنا حلفاء في التضحية والبطولة ؟ »

هل من خطر على الحلفاء ، وهم الان في قلب ميدان الانتصار ؟

نعم انهم ، بل ان فرنسا في خطر ، قاتل الله محتكري النفط !

الوطني الاوربي في ... الموصل

دخل الانكليز الموصل وتولى الزعيم العسكري ليشمان حكمها باسم صاحب الجلالة الملك جورج الخامس (وليس باسم الحلفاء !..) وكان العالم باسره في فوضى ، فليس من يهتم لاعمال زعيم في اطراف المعمور ، او يراقب ادارة مدينة نائية عن العالم ، فمشى الرجل الى تحقيق فكرة جديدة لم تكن لتخطر ببال أحد ، ولم يسمع بها أحد حتى في اوروبا

خيراً ، ان شاء الله ؟

وهل من الانكليز غير « الخير » ؟

كان عرب الموصل يرتقبون دخول الجيش الحليف بفارغ الصبر ، لان فيه احرارهم ، ولان الموصليين كانوا سيف البعث العربي ، يوم كان احرار العرب يفكرون في الثورة قبل المجزرة ، وحسبنا ان نذكر نوري السعيد واخوانه من تلك السيوف لنعلم اي قسط حمله احرار الموصل في الجهاد القومي يومئذ

وفيما عرب الحدباء يعللون النفس باستعادة مجد الرشيد والمأمون ، اذا بالزعيم (الكولونيل) ليشمان يفاجئهم بنعومة وابهام ، بخطط الفكرة الجديدة التي لم تكن لتخطر ببال احد :

صدرت في الموصل جريدة باسم « الموصل » على انها لسان

الاحتلال ، فكانت تنشر الاوامر والانباء المتعلقة بادارة البلاد، وتنقل الى الموصليين برقيات مؤتمر الصلح، وتنشر من وقت الى آخر ابحاثاً واخباراً عن ... وطن الاثوريين ! ...

ماذا ؟

وطن ... الا ... ثو ... ر ... يين !

وما هذه النغمة يا جماعة ... الخير ؟

وطن ... الا ... ثو ... ر ... يين !

وما معنى هذه الكلمة ايها السادة ؟

أوه ... عجيب امركم يا ابناء الموصل ! عجيب جهلكم ياسكان نينوى ! ألا تعلمون انكم احفاد اولئك الجبابرة الذين بنوا أقدم المدن في العالم، وشيدوا اروع المدنيات ؟ اوه ... يا سكان الموصل، عجيبة غفلتكم، وعجيب جهلكم تاريخكم - « القومي » - انتم احفاد الاثوريين والكلدانيين الذين شادوا مجد نينوى ، فهلا تذكرون ؟

ـــ ولكن ايها الحلفاء ، ايها الاصدقاء الذين « دخلتم بلادنا محررين لا فاتحين ، وقد جعلتم نصب اعينكم ان لا تذهب دماء العرب الذين حاربوا في صفوفكم هدراً ، وجهادهم باطلا ، بل انكم ـــ جميع الحلفاء ـــ تتمنون للعنصر العربي ان يستعيد ما كان له من المجد والشهرة بين امم الارض »، ايها السادة الذين خاطبنا قائد حملتكم مود يوم دخل بغداد بتلك اللغة الانسانية الشريفة ، وارتقبنا

قدومكم على ذلك الرجاء ، نحن هم « العرب الذين تغنيتم بفلاسفتنا وشعرائنا ، وسابق تراثنا ، وباسق ثراثنا » ـ نحن هم العرب

ـــ لا ... أنتم : اثو ... ر.... يون

ولكن ، ايها السادة ، نحن ، والله العظيم ، عرب ! نحن احفاد الخزرجيين،والازديين ، وبني تميم ، وتغلب ، وبني قيس المضريين الذين رحلوا الى هذه البلاد منذ الفتح العربي(الاسلامي)وسكنوها، ولم يكن في الموصل يومئذ « الا محلتان، يسكن احداهما المجوس من الفرس ، والاخرى يسكنها الجرامقة النصارى » (١) وهذه لغتنا ولهجتنا ، الا تسمعون فيها الكشكشة ؟ (٢)

ـــ لا ... انتم : اثو ... ر.... يون

ـــ ولكن ، ايها الحلفاء الاصدقاء ، نحن ، بالله الكريم، عرب! منا الحمدانيون اصحاب السيف والقلم ، وبنو عقيل ، ومنا الاعشى التغلبي احد شعراء الدولة الاموية ، وابو نؤاس ، وابو فراس ، والخالديان ، و ... و....

ـــ لا ... انتم : اثو ....ر...يون

---

(١) تاريخ الموصل ، ج ١ ، ص ٥١ و ٥٢ ، وتاريخ الكامل لابن الاثير ، وابن خلدون ج ٢ ، ص ٦٨

(٢) زيادة الشين بعد اللام المكسورة ، وهي اللهجة التي عمت الموصل من بني تميم ، وما يزال يلفظها ابناؤها حتى اليوم .

ـــ ولكن ايها السادة ، نحن مسلمون ، مؤمنون بالله ، مؤمنون بكتبه ورسله ، مؤمنون باليوم الآخر !

ـــ شت اب ! ... انتم جهلة ، حمير ... لا تعرفون تاريخ بلادكم ... نحن عملنا الحرب ونفهم اكثر منكم !

اللهم حنانيك ، فقد حسبنا كل حساب الا هذا الذي أتونا به في آخر يوم !

***

عند ما سافرت الى العراق في ختام هذا الصيف ، وزرت مناطق النفط ، لفت نظري وجود ما يسميه الاستعمار « اثوريين » في جميع تلك المناطق : في كركوك « اثوريون » ، وفي الموصل « اثوريون » ، وفي خانقين « اثوريون » ، وفي كل منطقة نفط أثر من اثور . فلما وصلت الى الموصل زرت كاهناً عالماً جليلا ، هو مسيحي كاثوليكي ولكنه ... وطني عراقي يؤيد الفكرة العربية ، وله مؤلف في تاريخ بلاده ينم عن تفكير صحيح وشعور قومي يأبى ذل الاستعباد ، زرت هذا العالم الفاضل راغباً في ان يكون مرشدي في الشؤون التي جئت الموصل من اجلها ، ومنها قضية الاثوريين ، فكان خير مرشد أمين . وزارني يوماً في النزل وتحدثنا عن الاقليات المسيحية في مملكة مسلمة ، وبحثنا في الطرق التي يجب على النصارى اتباعها ليكونوا عنصراً كريماً في هذه المملكة ،

ليكونوا نافعين ومنتفعين ، فسمعت منه نغمة أشهد بالله بانها من انبل ما سمعته في هذا الموضوع الدقيق . ولقد ذهب الكاهن الكاثوليكي المسيحي الى القول بانه يرى ان على النصارى في الشرق العربي ان يخلصوا لبلادهم حتى ... التضحية !

فقلت لزائري الكريم : ولكن المار شمعون يا محترم لايذهب مذهبك الشريف في تفكيرك الوطني

فاجاب الكاهن الجليل بما لا اذكره (...) ولكني انقل عنه حادثة تاريخية رواها لي في صدد حديثنا عما اسماه الاستعمار البريطاني بالوطن الاثوري ، قال :

« عند ما صدرت جريدة « الموصل » كان الكولونيل ليشمان يوعز الى محررها بان يعني عناية خاصة بنشر « اخبار اثورية » ، وان يطلق على الانسة سورما عمة الفتى المار شمعون ، لقب صاحبة السمو الاميرة الاثورية (S. A. La Princesse Assyrienne)

» وطلب الزعيم الانكليزي ذات يوم محرر الموصل وقال له :

» انشر في العدد الآتي ان صاحبة السمو الاميرة سورما الموجودة الان في لندرة ، قد زارت المراجع الحكومية العليا وقابلت اولي الشأن فيها ، طالبة منهم تحقيق الوعود التي قطعها الانكليز لمواطنيها في اثناء الحرب ، بانشاء وطن قومي للاثوريين الكلدانيين في العراق.

الشمالي (الموصل وجوارها)

« واستغرب الصحافي — وهو كلداني المذهب — اقوال الزعيم ليشمان فنفى وجود قوم باسم الاثوريين ، ووجود امـيرة عليهم ، واخذ يشرح له حقيقة هؤلاء الاكراد المتنصرين بالمذهب النسطوري ، وانهم ليسوا من الاثورية الكلدانية في شيء ولكنهم اكراد ... ونصح للزعيم ليشمان بوجوب السكوت عن هذه النغمة لانها توجد شقاقاً بين سكان الموصل من مسلمين ومسيحيين ، ومن مسيحيين فيما بينهم ، لان نصارى الموصل انفسهم كانوا منذ القدم حتى الان ينظرون الى هذه الفئة من الاكراد المتنصرة بشيء من الاحتقار ، فابى القائد الانكليزي الا الاصرار على رأيه . » اهـ

—*—

ليس في هذه السطور متسع لشرح حوادث التياريين المعروفين خطأ باسم « الاثوريين » ، ولا ينفسح المكان لتحليل تلك الحوادث ، والرجوع بها الى اسبابها ومصادرها ، وعرض غاياتها ، لان مثل هذا البحث يتطلب مجلداً ضخما ، ولكننا مضطرون الى ذكر شيء عن التياريين في معرض كلامنا عن النفط ، لانهم والنفط ركن من اركان الاستعمار في العراق ، ولا ريب بانهم مكرهون على ذلك ومسيرون فيه ، عامتهم لا خاصتهم ، شأن الجماهير الجاهلة من الاقليات في العالم :

لقد لعب الاستعمار أدهى لعبة في حوادث التياريين ، وكاد ينجح

فيها على طول الخط ، وذلك انه صور تلك القبائل الكردية النسطورية للرأي العام العالمي بانها : « امة » ذات تاريخ قومي مجيد ، ولم يكتف الاستعمار النفطي بنسبة هذه القبائل الى الاثوريين والكلدانيين ، اصحاب التاريخ الابلج في الحضارة ، يوم كان العالم يتسكع في دياجير البربرية والظلام ، بل انه مسحهم بزيت الميرون المقدس ، ورسم على صدورهم شارة الصليب العزيز ، وقال للرأي العام المسيحي في الدنيا : « ان هؤلاء الاثوريين هم اخوتكم في المسيح ، انهم مظلومون ، مضطهدون ، تذبحهم الاكثرية المسلمة تعصباً وبغضاً وانتقاماً ! »

ولعمري ، لا اعرف سبباً يدفع بالاسلام للتعصب والبغض والانتقام ، وقد كان باستطاعته ان يأتي ذلك منذ عشرات القرون ، وهذه تعاليمه صريحة لقوم يعقلون .

ولكنه الاستعمار ايها القارىء ، الاستعمار الذي يحلل لنفسه ما يحرمه على الشعوب الضعيفة ، الاستعمار الذي يبيح لنفسه ما يأباه علينا ، يجعل له من الاسود ابيض ، ويقول عن ابيضنا اسود ! ...

اما القبائل التيارية ، تلك القبائل الساذجة التي ظلمها الاستعمار ، وجعلها حطباً لموقدة مطامعه ، فهي لم تكن يوماً بوارثة الامة الاثورية ، ولا تعرف اثور وكلدية . وانما هي كردية لحماً ودماً ، وقد اعتنقت المذهب النسطوري فكانت مسيحية بقدر ما تكون قبائل البدو

الرحل مسلمة ... واذا كان الاستعمار الغربي لا يثق بصحة اقوالنا لاننا عرب « متأخرون ، جاهلون ، متعصبون » فاننا نأتيهم ببرهان منهم ، وهم المتمدنون ، المثقفون ، المتساهلون ، ونستشهد باحكام مستشرقيهم ورسلهم الذين اوفدتهم حكومات الغرب الى الشرق خصيصاً لدرس احوالنا ، و ... « لغير » درس احوالنا ، على ان القبائل التيارية التي « أثوروها » انما هي كردية :

في النصف الاول من القرن التاسع عشر جاء الى الشرق عالم غربي مشهور ، اسمه ميشو ، ليدرس البلاد التي دخلها الصليبيون وعاشوا فيها ، وقد وضع هذا الرحالة العالم كتاباً عنوانه « رسالة الشرق » ثم جاء على أثره رحالة آخر يدعى باتيستان بوجولا فطاف بالبلدان التي لم يتمكن سلفه من زيارتها ودرس شؤونها ، ووضع بوجولا كتاباً في مجلدين ، تتمة لكتاب الاستاذ ميشو ، طبعه في بروكسل سنة ١٨٤١ ، وهو مؤلف قيم يهم كل من يعني باتجاه الاستعمار الغربي في السلطنة العثمانية . ولقد زار الرحالة بوجولا من جملة البلدان التي زارها ، جبال الاكراد في العراق ، وكان الاكراد يومئذ في حرب ضروس مع الاتراك ، فكتب عنهم فصلا مسهباً في مؤلفه قال فيه :

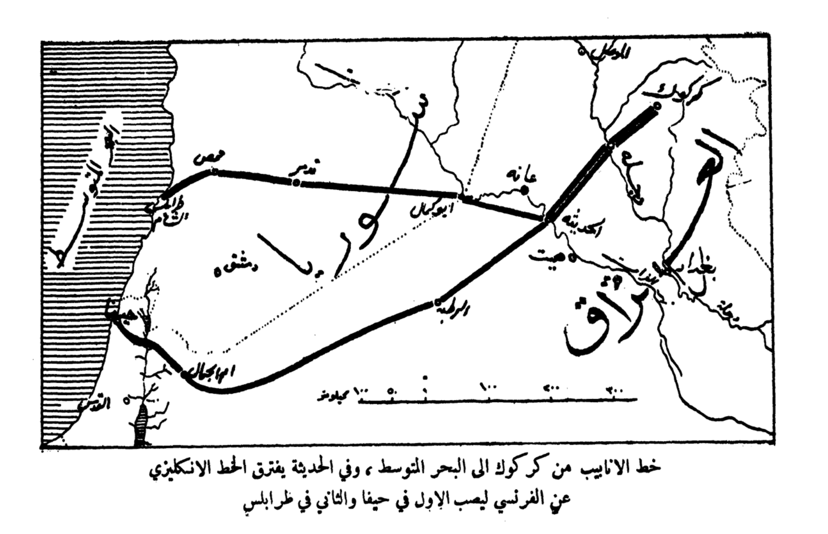
« ... والشعب الكردي يبلغ ثلاثة ملايين نسمة ، منهم مئة الف نصارى نسطوريين ... يخضعون لبطريركين وراثيين ، يطلق دائمة

على احدها اسم مار شمعون ... وابن الاخ البكر هو الذي يرث عمه في الكرسي البطريركي .. ويتفق بعض الاحيان ، بحكم نظام هذا الارث ، ان يتولى البطريركية طفل في الثانية او الخامسة عشرة من طفولته ... واساقفتهم يعيشون في جهـل مطبق ، واما عامة الاكليروس فتكاد تستطيع القراءة ... ولم يكن لهؤلاء الاكراد النصـارى علاقة كبيرة بالحرب التي اثارهـا (اخوانهم) الاكراد المسلمون على الاتراك » اه (١)

وليس في كلام الرحالة بوجـلا عن الاكراد النصارى موضع للعجب ، لانه حقيقي ومبني على العلم الصحيح ، ولكن العجب كل العجب ان يأتي احفاد بوجـلا فينقضوا كلامه العلمي الصحيح ويجعلوا من الاكراد النسطوريين « امة » لها تاريخها القومي و... اهدافها وامانيها القومية

ولا بأس ان استشهد في هذه المناسبة بعبارة لـكاهن كاثوليـكي عالم، قالها لي ونحن على انقاض نينوي في شرقي الموصل ، وقد كنا في تلك الزيارة برفقة الوجيه الكريم احمد بك الجليلي نائب الموصل ورئيس بلديتها السابق ، وكنا نتحدث عن مطوحات الاستعمار في

(١) رحلة بوجولا في الشرق الادنى ، طبعة بروكسل سنـة ١٨٤١ ج ١ ، ص ١٨٠



خط الانابيب من كركوك الى البحر المتوسط ، وفي الحديثة يفترق الخط الانكليزي
عن الفرنسي ليصب الاول في حيفا والثاني في طرابلس

قضايا الاقليات في الشرق ، وعن حوادث التياريين وحمق المار شمعون. وجنون عمته الخاتون سورما « صاحبة السمو الاثوري — من فضلك ! » فقد ذكر لنا الكاهن الجليل حوادث كثيرة عن علاقات « مشبوهة » كانت تربط الخاتون الداهية ببعض رجال الاستعمار النفطي ... وختم الكاهن الكاثوليكي العالم حديثه بعبارة اوقفت شعر رأسي ، اذ قال حرفياً :

— « اثوروها ، وما زالوا بها حتى ثوروها ! »

— ؟ ؟

— « ان رجال الاستعمار جعلوا الخاتون سورما « اثورية » وظلوا يحقنونها بهذا السم حتى حملوها على ... الثورة ! »

ولكن المؤسف في تلك الحوادث هو ان دهاء الاستعمار كاد ينجح في لعبته تلك على طول الخط ، قلت « كاد ينجح » لان صحفه اثارت حملة صليبية على حكومة العراق بمناسبة حوادث التياريين ، واخرجت من جوفها ما « يليق » بان تغسل به وجه اسيادها ، وتأثر بعض الصحف في الشرق بتلك الحملة ، فجارى المتعصبون هنا ، معلميهم هنالك ، واستيقظت الفتنة في النفوس ، ولولا جرأة بعض الصحف العربية المسيحية العاقلة ، لنجح الدهاء الاستعماري في تحقيق الهدف الذي كان يرمي اليه من « اثورة » الاكراد النسطوريين ! ...

بقيت لي ملاحظة ثانية تزيد في فضيحة الاستعمار الداهية :

ان الاكراد « اثيروا » ـ ولا اقول ثاروا ـ على الحكومة « الوطنية » في العراق مراراً وكادت تنحصر ثوراتهم في المناطق ... النفطية ، او في المناطق القريبة من ينابيع النفط ! ومن يتتبع حوادث التاريخ بدقة وروية يلاحظ ان تلك الثورات كانت تعلن دائماً في مناسبات لها علاقتها بـ.... النفط !! وقد اثيرت تلك القبائل مراراً وكانت حوادثها خطيرة ، ولم يبال بها الرأي العام المتمدن ، في حين ان القائمين بها كانوا ذوي عدد غفير ، وكانت لهم معارك وملاحم مع الجيش ، ولكن الاكراد لا يهمون الرأي العام «المتمدن» على ما رأينا في تلك الحوادث ، ولا وزن لهم في ما تقول له تعاليم الغرب « وجدان البشرية ! ... » ولكن دهاء الاستعمار عرف ـــ متأخراً ـــ كيف يقيم الارض ويقعدها على الحكومة العراقية وعلى دعاة الفكرة القومية العربية إذ « أثور » القبائل التيارية الكردية النسطورية ، واستغاث بالاساقفة والقسيسين ، وبجيوشهم في سائر انحاء الارض ، ليعطفوا على « بقايا اشرف امة في تاريخ الحضارة القديم » وما ذلك الا ليشوهوا سمعة الحكم الوطني في العراق وليحملوا اوروبا واميركا على الاعتقاد بان العرب قوم متعصبون ، متوحشون ، لا يستحقون الاستقلال ! ...

ونتيجة تلك الاعمال كلها ان يتمكن الاستعمار من حكم البلاد مباشرة ، والاستيلاء على كنوزها وخيراتها ، واثمن تلك الكنوز : النفط !

كيف تكون النفط

لقد اختلف العلماء كثيراً في اصل نشوء هذه المادة فمنهم القائل بانها تكونت داخل الارض بنتيجة تفاعل كربيدات المعادن (١) مع الماء ، ولكن الثقة بهذه النظرية ضعيفة جداً . والمتعارف الآن هو ان النفط نشأ عن اصل عضوي ، والنظرية الحديثة والشائعة عن اصل تكون هذه المادة هي ان البترول نتاج التقطير الائتلافي الذي يصيب البقايا الدهنية من الحيوانات البحرية المندثرة في الطبقات السفلى من القشرة الارضية ، ومما يؤيد هذه النظرية اكتشاف آثار عديدة لبعض المتحجرات الحيوانية (Fossils) بالقرب من الطبقات النفطية . ولدى شركة النفط العراقية متحف صغير لبعض المتحجرات الحيوانية المختلطة والتي عثر عليها اثناء البحث عن النفط في بعض جهات العراق . ولو اخذ شيء من الطبقة الطينية ، والتي تأتي قبل الطبقة النفطية بقليل ، وفحصت بمجهر قوي لامكن

---

(١) الكربيد هو مركب لاي عنصر مع الكربون اذ ان الكربون يكون مركبات عديدة باتحاده مع العناصر المختلفة وفي هذه الحالة يشابه الاوكسجين حيث ان الاخير يكون باتحاده مهامركبات تعرف بالاكاسيد

مشاهدة اشكال متحجرة لحيوان بحري يعرف بالفورا مينيفرا بكل وضوح ولما كانت القشرة التي تكسو جلد هـذا الحيوان البحري تتكون من كبريتات الكالسيوم (الجفصين) فوجود هذا المركب في انحاء عديدة من القطر العراقي وبصورة خاصة في المناطق النفطية من المملكة لدليل قاطع على ان النفط العراقي تكون من هـذه الحيوانات . ومما يعتقده علماء الجيولوجيا الذين قاموا بالتنقيب عن النفط في المملكة العراقية ان هـذه البلاد كانت في قديم الزمـان مغمورة بالمـاء حيث كان الخليج الفارسي يمتـد الى شمال العراق ، وكانت هـذه الحيوانات المجهرية (الفورامينيفرا) موجودة بكثرة في هذه المياه . فكانت تكون على بعضها وعلى مر الازمان بموتهـا التدريجي المستمر متراكمات عديدة . وبانسحاب البحر بقيت هـذه المتراكمات الحيوانية مع سائر الحيوانات البحرية الاخرى ، فاندثرت في التراب ، وبتـأثير حرارة الارض وضغطها تقطرت وتحولت الى قطرات نفطية صغيرة اخـذت تنساب في القشرة الارضية ، كلما وجدت وسيلة للنفوذ ، حتى وصلت الى طبقة مائية بقيت عائمة فوقها ، وهذا ما يجعلنا ان نجد النفط فوق الماء دائماً عند الحفر للبحث عنه

استخراج النفط

عملية حفر البئر النفطي من اهم العمليات واشقها في صناعة النفط ،

وتحتاج الى شيء كثير من الدقة والمهارة ، والتي لا يمكن الحصول عليها الا بكثرة الممارثة ، وذلك ما يجعلنا ان نشاهد الحفارين غالباً يتقاضون اضخم الرواتب بين عمال الشركات النفطية . وتلخص عملية الحفر بما يلي :

بعد ان يعين جيولوجي الشركة البقعة التي يجب ان تباشر عملية الحفر فيها — بدراسة سطح المنطقة النفطيـة والتربة في اعماق مختلفة من القشرة الارضية — يتقدم الحفار ويركب عدته . وتتكون هـذه العدة من هرم ناقص مرتفع ، في اعلاه « بكرات » تمر عليها اسلاك تحمل آلة الحفر ويتصل طرفها الثاني بالآلة البخـارية التي تقوم بتحريك الحفارة ، والحفارة على انواع اشهرها يتكون من اسطوانة من الحديد الصلب تنتهي بنهاية حادة — كحافة القدوم — مشروحة من الوسط ومثقوبة ثقباً طولياً . اما طريقة الحفر فيشرع بها بحفر حفرة واسعة دائرية قطرها نحو ٢٤ انجاً ، ثم يركز فيهـا « انبوب » من الحديد الصلب يبلغ قطره نحواً من ٢٠ انجاً وارتفاعه بارتفاع انبوب الماء الاعتيادي اي ١٨ قدماً وتمر داخل هذا الانبوب الحفارة المذكورة اعلاه ، ويحكم السد من اعلى بحيث لا يدع مجالاً للهواء لان يدخل من بين فوهـة الانبوب ورقبة الحفـارة . اما السطح الخارجي من الانبوب فيحيط به اطار يثبت في الارض تثبيتاً

محكماً بواسطة السمنت (الترابة الافرنجية) وتتصل الفوهة العليا، لثقب الحفارة الطولي ، بمضخة تكبس خليطاً من الماء المسخن والتراب ، وتوصل مضخة ماصة كابسة بفتحة اخرى كائنة في الاطار المحيط بالانبوب من الخارج . وتجري العملية برفع الحفارة الى اعلى، واسقاطها ، وتحريكها حركة نصف دائرية بعد السقوط ، بواسطة ماكنة بخارية ، فتتخلخل اذ ذاك الطبقات الارضية ، ويختلج التراب الناتج من ذلك مع خليط الماء الحار والتراب المكبوس ، ثم ينسحب الى الخارج بواسطة المضخة الماصة الكابسة ، وبهذه الطريقة يفتح مجال للانبوب للسقوط الى اسفل تدريجياً بحكم ثقله ، وكلما انتهى انبوب ربط به انبوب آخر اضيق منه حتى تصاب الطبقة النفطية . وقد يعثر على النفط احياناً في اعماق لا تتجاوز بضع مئات من الياردات ، كما انه قد يحتاج احياناً الى الحفر لا اقل من الفي يارد للحصول عليه . اما في العراق فتتراوح اعماق الآبار من الف وخمسمائة الى الفي يارد ، ويستغرق حفر البئر الواحدة بين الاربعة والستة الاشهر ، على ان تستمر العملية ليلاً نهاراً

خواص النفط الخام

النفط الخام سائل غليظ لونه اصفر او اسمر ويكسبه الضياء المعكوس على سطحه لوناً مخضراً في عين الناظر ، وهو اقل كثافة

من المـاء حيث يطفو فوقه . والنفط خليط من ايدرو كاربونات (ايدروجينات مكربنة) متفاوتة في الكثافة، فنها ماهي غازية سريعة الالتهاب ، ومنهاماهي سائلة او صلبة ، ولذا لا يمكن استعماله في حالته العادية لاي غرض من الاغراض . ولا بد من فصـله الى اجزاء مختلفة وتصفيته قبل الاستعمال

التصفية

تلخص عملية التصفية بما يلي :

١ً ــ تجزئة النفط الخام الى اضعـاف مختلفة ، ويكون ذلك بتقطيره من اوعية حديدية في درجات حرارة مختلفة ويجمع القطر على اجزاء . والمتقطر بين درجتي ٧٠ ــ ٩٠ مئوية يعرف بزيت الطيران (بنزين الطيـارات) والمتقطر بين درجتي ٨٠ ــ ١٢٠ مئوية يكون بنزين السيـارات العادي . والمقطر بين درجتي ١٥٠ ــ ٣٠٠ مئوية يعرف بالكيروسين او نفط الاضاءة. وما يبقى من ذلك يعرض للبيع كنفط اسود يستخدم للوقـد في الآلات ، او يفصل الى اجزاء اخرى كدهان الآلات والفازلين والبارافين وغير ذلك

وعلاوة على عملية التقطير ، يجب اجراء عمليات اخرى في حالة السوائل الثلاث الاولى (اي بنزين الطيارات والبنزين العادي ونفط

الاضاءة) وذلك لازالة اي اثر لمفعول قلوي او حامضي مما قد يؤثر في الآلات فيتلفها (١) .

(١) كان من الواجب علينا ان نستهل كتابنا بهذا البحث ، ولكن خوفنا من تبرم بعض القراء بالابحاث العلمية والتكتيكية اضطرنا الى تأخيره الى الخاتمة . وقد نقلناه عن كتاب « الكيميا » للمربي الفاضل الاستاذ تحسين ابرهيم ، مفتش المدارس المتوسطة في العراق ، وقد وجدنا ابهاماً وبعض اخطاء في المقدمة التاريخية التي كتبها الصديق الكريم لهذا الفصل ، نرجو ان يصححها في الطبعة المقبلة .

امتياز دارسي

جرى هذا العقد بين حكومة جلالة شاه ايران الفريق الاول ووليم دارسي الملاك المقيم في لندن في ساحة كروسفة نور رقم ٤٢ ويسمى بعد هذا صاحب الامتياز الفريق الثاني وقد قررا واتفقا على ما يأتي :

المادة (١) تمنح حكومة جلالة الشاه صاحب الامتياز الخاص والمنحصر في البحث والتنقيب عن الغاز الطبيعي والبترول (النفط) والاسفلت (القير) والاوزكة ريت (حجر الشمع) في جميع انحاء المملكة الايرانية واستحصال هذه المواد والاستفادة منها وتنميتها وجعلها صالحة للتجارة وتصديرها وبيعها الى مدة ستين سنة تبتدىء من تاريخ هذا العقد .

المادة (٢) يشمل الامتياز الحق المنحصر لمد الانابيب اللازمة لهذه الاعمال من الاماكن التي قد يوجد فيها مادة واحدة او عدة مواد المذكورة اعلاه الى خليج فارس مع ما يتفرع على ذلك من التشعبات الضرورية للتوزيع وكذلك يشمل حق حفر آبار وبناء خزانات ومحطات واستعمال مضخات للادخار والتوزيع وتأسيس معامل وسائر الاعمال والمؤسسات التي تقضي الحاجة اليها .

المادة (٣) تمنح حكومة ايران صاحب الامتياز حق التصرف

مجاناً جميع الاراضي غير المزروعة العائدة للحكومة التي يراها مهندسو صاحب الامتياز بانها ضرورية لبناء الاعمال الآنفة الذكر او قسم منها واما الاراضي المزروعة والعائدة الى الحكومة فيجب على صاحب الامتياز ان يشتريها ببدل المثل الرائج في تلك الولاية .

وكذلك تمنح الحكومة صاحب الامتياز حق استملاك جميع الاراضي الاخرى والابنية اللازمة لنفس المقصد وتتعهد بموافقة اصحاب الاملاك على الشروط التي تقرر بينه وبينهم بدون ان يسمح لهم بطلب قيمة فاحشة تزيد على القيم الاعتيادية الرائجة لمثل هذه الاراضي في مناطقهم المخصوصة

وتستثنى من ذلك بتاتاً الاماكن المقدسة وجميع متعلقاتها مع ما يحيط بها من الاراضي حول نصف قطر طوله ٢٠٠ ذراع ايراني .

المادة (٤) لما كانت منابع البترول الثلاث الكائنة في ششتر وقصر شيرين (في ولاية كرمانشاه)ودالبكي القريبة من بوشهر قد اعطيت بالالتزام لبعض الاشخاص وكانت تنتج للحكومة دخلا سنوياً قدره الفا تومان اتفق على ان تكون هذه المنابع الثلاث داخلة في الامتياز وفقاً للمادة الاولى بشرط ان يؤدي صاحب الامتياز الى الحكومة المبلغ المقطوع وهو الفا تومان سنويا فضلا عن الستة عشر في المائة الوارد ذكرها في المادة العاشرة

المادة (٥) تعيين الخطوط التي يراد مد الانابيب في استقامتها من قبل صاحب الامتياز ومهندسيه

المادة (٦) رغماً عما ذكر اعلاه ان الامتياز الممنوح بهذا العقد لايشمل ولايات اذربايجان وغيلان وما زندان واستراباد وخراسان ويشترط مقابل ذلك ان لا تمنح حكومة ايران شخصاً آخر حق مد انابيب الى الانهر الجنوبية او سواحل ايران الجنوبية

المادة (٧) تعفى من الضرائب والرسوم جميع الاراضي الممنوحة بموجب هذا العقد لصاحب الامتياز او التي تشترى من قبله بالصورة المبينة في المادتين ٣ و ٤ من هذا العقد وكذلك المحصولات المصدرة اثناء مد هذا الامتياز وتعفى ايضاً من الرسوم والمكوس الكمركية جميع الآلات والمكائن التي تجلب الى ايران اللازمة للتنقيب عن طبقات المعادن المذكورة واستثمارها وتنميتها والتي يحتاج اليها في بناء وتوسيع خطوط الانابيب

المادة (٨) يجب على صاحب الامتياز ان يرسل حالا الى ايران على نفقته اخصائيا او اخصائيين لاجل البحث في المناطق التي يعتقد صاحب الامتياز وجود منابع المواد المذكورة فيها واذا تبين ان البيان المعطى من قبل هؤلاء الاخصائيين يطابق رأي صاحب الامتياز فعليه ان يرسل على الفور الى ايران على نفقته ايضاً جميع الاشخاص الفنيين مع آلات الاستثمار والمكائن اللازمة لحفر الابار وبيان قيمة المعادن.

التي فيها

المادة (٩) تخول حكومة ايران صاحب الامتياز الحق ان يؤسس شركة او شركات لاستثمار هذا الامتياز لصاحب الامتياز ان يعين اسماء هذه الشركات ونظامها ورأس مالها وتنتخب مديريها ويشترط عند تاسيس كل شركة ان يقدم صاحب الامتياز الى الحكومة اشعاراً رسمياً عن هذا التأسيس بواسطة قوميسر الحكومة مع بيان نظام الشركة وتعيين المحلات الذي ستباشر اعمالها فيها

فهذه الشركة او الشركات ستتمتع بجميع الحقوق والامتيازات الممنوحة الى صاحب الامتياز غير انه يجب ان تأخذ على عاتقها جميع هذه العهود والمسؤليات

المادة (١٠) يجب ان يصرح في المقاولة بين صاحب الامتياز والشركة انه على الشركة ان تدفع للحكومة الايرانية مبلغاً يساوي عشرين الف ليرة انكليزية ذهباً في خلال شهر واحد بعد تأليف اول شركة تبدأ بالعمل واسهما خالصة القيمة من اسهم الشركة التي تتألف بموجب البند السابق تساوي قيمتها عشرين الف ليرة اخرى وعليها ايضاً ان تدفع سنوياً الى الحكومة المذكورة ما يساوي ١٦ في المائة من صافي ارباح جميع الشركات التي تؤسس بحسب المادة المذكورة

المادة (١١) للحكومة الحرية في تعيين قوميسر من قبلها ليكون

مشاوراً لصاحب الامتياز ومديري الشركات التي يراد تأسيسها وعليه ان يقدمها باستطاعته من المعلومات المفيدة ويرشدهم الى الطريقة الحسنى لاتباعها في سبيل منفعة هذا المشروع وعليه ان يجري المراقبة التي يحكم بلزومها لاجل صيانة منافع الحكومة وذلك يكون بالاتفاق مع صاحب الامتياز

فهذه الوظائف المسندة الى القوميسر المذكور يجب ذكرها في نظامات الشركات التي ستتألف وعلى صاحب الامتياز ان يدفع الى هذا القوميسر لقاء خدماته مبلغاً سنوياً قدره الف ليرة انكليزية ابتداء من تاريخ تأسيس الشركة الاولى

المادة (١٢) يجب ان يكون العمال المستخدمون في الشركة من رعايا جلالة الشاه ويستثنى من ذلك الموظفون الفنيون كالمديرين والمهندسين والثقابين ورؤساء الحرف

المادة (١٣) اذا تحقق في اي مكان كان ان سكان ذلك المكان كانوا وما زالوا يحصلون على النفط لاستعمالهم الخاص فعلى الشركة ان تقدم لهم مجاناً كمية من النفط بقدر التي كانوا ينالونها انفسهم ويجب ان تقدر هذه الكمية بمقتضى مدعيات السكان المذكورين تحت نظارة الحكومة المحلية

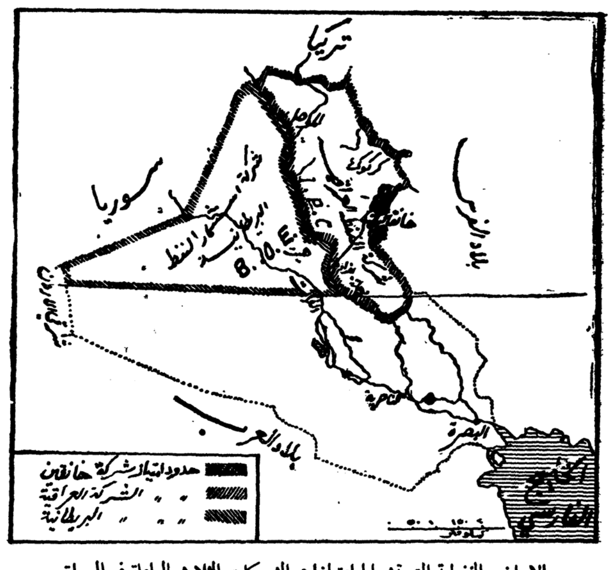
المادة (١٤) ان الحكومة مكلفة باتخاذ الوسائل اللازمة لضمان وضع هذا الامتياز في حيز العمل وهي مكلفة ايضاً بالمحافظة على الآلات

والمكائن التي ستستعمل باتمام مشروع الشركات وحماية ممثليها ووكلائها ومستخدميها . واذا اجرت الحكومة هذه التعهدات فلا يمكن حينئذ لصاحب الامتياز او الشركات المؤسسة من قبله ان يطلبوا من الحكومة الايرانية تعويضاً ما يزعم انهم تكبدوا ضرراً وخسائر

المادة (١٥) عند ختام مدة هذا الامتياز تصبح جميع الابنية والآلات والمكائن التي كانت تستعمل من قبل الشركة مع الانتفاع من صناعتها ملكا للحكومة ولا يحق للشركة ان تطلب تعويضاً عن ذلك.

المادة (١٦) اذا لم يؤسس صاحب الامتياز في ظرف سنتين من تاريخ هذا العقد الشركة الاولى من الشركات التي اذن له بتأسيسها وفقاً للمادة التاسعة من هذا الامتياز فيصبح هذا الامتياز ملغياً لا حكم له

المادة (١٧) كل مسألة او خلاف ينشأ من الفريقين بسبب التباين في تفسير مواد هذا العقد وكذلك الاختلاف في المسائل المتعلقة بالحقوق والمسؤليات العائدة للفريقين يجب ان تعرض على حكمين في طهران ينتخب كل فريق واحداً منهما وعلى حكم ثالث ينتخبه الحكمان الاولان قبل الشروع في الحكم . فاذا لم يتفق الحكمان الاولان بينهما فحينئذ يعرض الخلاف على الحكم الثالث وقرار هذا الاخير هو القطعي



الاراضي النفطية التي تشملها امتيازات الشركات الثلاث العاملة في العراق

المادة (١٨) كتب صك هذا الامتياز بنسختين باللغة الافرنسية وترجم الى الفارسية في عين المعنى

ولكن اذا اريد حسم اي خلاف يقع في تفسير معنى مواد هذا الصك فالمتن المكتوب في الافرنسية هو المرجع الوحيد لذلك

كتب بطهران في ٩ من شهر صفر سنة ١٣١٩ و٢٨ مايس سنة ١٩٠١

التواقيع :وليم نوكس دارسي ، النائب عنه : الفرد ل.ماريوت.

اصدق ان هذه التواقيع هي . . . . الخ

جورج كراهام ، نائب القنصل . (١)

---

(١) نشرنا امتياز دارسي وبروتوكول الاراضي المحولة بنصيهما ، نقلا عن النسخة الرسمية الموجودة لدى الحكومة العراقية والمطبوعة في مطبعتها

الاراضي المحولة

البروتوكول المؤرخ في ٤ — ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٣ المتعلق بتعيين الحدود بين تركيا وايران

بما ان كلا من الحكومة العثمانية وحكومة جلالة شاه ايران ترغبان في المحافظة على الحقوق والتعهدات المتنوعة المعطاة لشركة النفط الانكليزية — الفارسية المحدودة في الاراضي المحولة من ايران الى تركية مع تنفيذ هذه الحقوق والتعهدات التي احدثت بالامتياز الممنوح اياها من قبل الحكومة الايرانية بموجب الاتفاقية المؤرخة في ٢٨ ايار سنة ١٩٠١ (٩ صفر سنة ١٣١٩ هجرية) فقد اتفقتا على ما يأتي :

(ا) يعترف الباب العالي بأن الامتياز نافذ ومعمول به في الاراضي المحولة وان الحق الممنوح في المادة الاولى من الاتفاقية يكون انحصاراً مطلقاً للحقوق الممنوحة به في جميع انحاء الاراضي المحولة ولا يمنح اي شخص او شركة او مؤسسة كانت اي امتياز من هذا النوع مما يسبب ضرراً لامتياز شركة النفط الانكليزية — الفارسية المحدودة او اجحافاً بحقوقها .

(ب) جميع الحقوق والميزات والاعفاء وغيرها من الفوائد الممنوحة الى شركة النفط الانكليزية — الفارسية المحدودة من قبل

حكومة ايران وفقاً للاتفاقية او التي تتمتع بها فعلاً الآن يجب ان تكون محترمة ومعتبرة من قبل الباب العالي في الاراضي المحولة طبقاً لاحكام الاتفاقية .

(ج) للدولة العثمانية ان تتمتع في الاراضي المحولة بجميع الحقوق والميزات والفوائد المحفوظة او التي حصلت عليها الحكومة الايرانية طبقاً لاحكام الاتفاقيــة سوى ماجاء في الفقرتين (د) و (هـ) من هذه المادة

(د) بما ان شركة النفط الانكليزية ـــ الفارسيــة المحدودة قد دفعت الى حكومة ايران وفقاً لاحكام المادة العاشرة من الاتفاقية المبلغين المذكورين فيهاوهما ٢٠٠٠٠ ليرة انكليزية نقداً ـــ واسهاماً خالصة القيمة بقيمة ٢٠٠٠٠ ليرة انكليزية فلا يحق للباب العـالي ان يطالب بشيء من شركة النفط الانكليزية ـــ الفارسية المحـدودة عن هذا الخصوص

(هـ) لايحق للحكومـة الايرانية ان تطلب من شركة النفط الانكليزية الفارسية المحـدودة وفقاً للعبارة الاخيرة من المـادة العاشرة من الاتفاقية دفع اي مبلغ كان من الربح الناتج من الاستثمار في الاراضي المحولة والمبالغ المقننة الناتجة من الاستثمار التي ستدفعها الشركة بموجب الفقرة الاخيرة من المـادة العاشرة يجب دفعها الى الدولة العلية العثمانية ولا يحق للحكومة الايرانية ان تطلب

من الشركة او من تركية شيئاً من هذه الارباح

(و) لاجل تنفيذ نص مواد الاتفاقية المتعلقة (بمد الانابيب) يعترف الباب العالي بان هذه المواد تمنح شركة النفط الانكليزية ــ الفارسية المحدودة حقاً لمد انابيب في اراض تركية بالصورة التي تربط منابع النفط في الاراضي المحولة بنقطة اخرى موافقة لاجل تسهيل اخراج نتائج الشركة بطريق خليج فارس وستعين هذه النقطة للاتفاقية الذي يلزم اجراؤه بين الحكومة العثمانية وشركة النفط الانكليزية ــ الفارسية المحدودة بعد التوقيع على هذه المعاهدة بالسرعة الممكنة .

(ز) يعترف الباب العالي بان احكام المادة التاسعة من الاتفاقية تنص على تأسيس شركة جديدة اختيارية وفقاً لما جاء في هذه المادة للاستثمار في الاراضي المحولة وفي حالة تأسيس هذه الشركة فانها ستتمتع بعين الحقوق الممنوحة الى شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية المحدودة وتأخذ على عاتقها التعهدات المعطاة من قبل الشركة المذكورة ايضاً وستنوب عنها في جميع الشؤون .

(ح) كل مسألة او خلاف من اي نوع كان يحدث بين الحكومة العثمانية وشركة النفط الانكليزية ــ الفارسية المحدودة يجب ان تعرض على حكمين في الاستانة ينتخب كل منهما من قبل احد الفريقين وعلى حكم ثالث يعينه الحكمان قبل الشروع في الحكم.

واذا لم يتفق الحكمان بينهما فتعرض المسألة حينئذ على الحكم الثالث وقرار هذا الاخير هو القطعي .

(ط) ان الحكومة الايرانية مكلفة بجعل شركة النفط الانكليزية ـــ الفارسية المحدودة تتمسك بمنطوق هذه المادة اما الطرق الدالة على هذا التمسك والتي سيبلغ الباب العالي بها فتقرر بعد ذلك بالاتفاق .

في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٣ .

التواقيع : لويس مالت ، احتشام السلطنة محمود ، ميشه ل ده كيرس ، سعيد حليم

انظر في الصفحة التالية الى خارطة الامتياز ، وفي الشمال : الولايات الخمس التي لم يشملها . والشحطات السوداء المفصول بينها بصلبان ، هي حدود الامتياز ، والنقط السوداء تدل على الاراضي النفطية المحفور فيها . والشحطات السوداء تدل على حدود ايران

روسيا
ازربيجان
بحر
قزوين
روسيا آسيا
خرسان
الافغان
مقاطعة امتياز دارسي
بين النهرين
الخليج الفارسي
شبه جزيرة العرب

الاقوياء في الصلح

دعيت الدول المنتصرة الى باريس لوضع شرائط الصلح ، وتسابق الى العاصمة الجميلة رجالات الشعوب الصغيرة والامم المستضعفة ، يحملون اماني المظلومين والمقهورين الذين ناموا في سنوات البؤس والشقاء على الوعود المعسولة ، تغذيهم خيالات الشرف ، واحلام الوفاء ، ووقف العالم باسره صامتاً ، خاشعاً ، يرتقب ما سينطق به رجال الساعة :

ولكن الاقوياء ضعفوا في اقتسام الارباح ، وكشف الطمع عن حقيقة ما كانوا يسترون ، وارغم الرؤساء على تأليف اللجان الاختصاصية ، والفرعية ، في مؤتمر الصلح ، لكثرة الاعمال ، وتناقض الاهواء ، وانشأوا مجلساً اعلى من الدول الخمس القوية ليصدر المقررات الاخيرة ، وتألف هذا المجلس من السادة : الرئيس ويلسن ووزير خارجيته لانسنغ (يمثلان الولايات المتحدة)

رئيس الوزارة لويدجورج ووزير خارجيته ارثور بلفور (انكلترة)

رئيس الوزارة كليمانسو ووزير خارجيته بيشون (فرنسا)

رئيس الوزارة اورلاندو ووزير خارجيته البارون سونينو (ايطاليا)

والبارون ماكينو والفيكونت شيندا (يمثلان اليابان)

ومرت الايام ، تعقبها الاسابيع ، ولم يصدر من باريس امر حاسم ،

كنا نظن، يوم بدأنا بكتابة هذا المؤلف، ان باستطاعتنا تسجيل حوادث النفط جميعها ، والكشف عن اسرارها المتتالية حتى سنة ١٩٣٣ في كتاب واحد . ولكن الادوار الخطيرة التي مثلت على مسرح السياسة الدولية في سنتي ١٩١٩ و١٩٢٠ ، وهي من اعظم الحوادث التاريخية التي غيرت وجه الارض ، ولا سيما بلادنا العربية ، اذ قام النفطيون بالقسط الوفير منها - اضطرتنا لقسم كتابنا الى جزئين، انتهى اولهما - هذا - مع انتهاء الحرب .

اما الفصل الاتي فهو عرض سريع ، صغير جداً ، نختصره عن القسم الاول من كتابنا الثاني ، ليكون بمثابة مقدمة وجيزة للطور الذي دخلته الاقطار العربية بعد الهدنة :

«وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه
ثم اذا خوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل»
— صدق الله العظيم —

بولا عمل خطير ، فقد سادت الفوضى ، وتعاكست المطامع ، وغرق رجال الصلح في محيط من القضايا الطارئة ، قضايا جديدة ، وشعوب جديدة ، ودول جديدة ، لا يعرفون من امرها الا ما كان لهم فيه منفعة او مطمع ، او عطف او حقد! صارت كل دولة تسعى لتحقيق اهدافها ، غير عابئة بالمبادىء السلمية التي بشرت بها قبيل المدنة

وتنابذ المؤتمرون في تناقشهم وتشادوا ، وتنابذوا وتجاوزوا ، وكان بعضهم « يعض » في كلامه انف الاخرين ، واعضاء اللجان الفرعية ، والخبيرون و« الفنيون » والعسكريون يزيدون في الطين بلة . . . وبات الصلح على شفير الهاوية !

اختلفوا على اللغة الرسمية للمؤتمر ، وعلى عدد الاعضاء ونسبتهم الرقمية ، واختلفوا على تقدير قيمة التعويض الذي تدفعه المانيا وعلى حدود الرين الحربية ، وعلى تحديد بولونيا ، وعلى ممر دانتزيغ ، واثارت حدود الرين نقاشاً عنيفاً بين كليمانسو وويلسن ولويد جورج ، فانسحب الاول على اثره من الجلسة لان الاخرين عارضاه في احتلال اراض المانية بحت ، وفصلها عن المانيا . « ... وكان الجوهري في نظر الفرنسيين الاستيلاء على معادن الفحم — ابن عم النفط — في السار ، لان الالمان هدموا معادنه في شمالي فرنسا . وكان كليمانسو بحاجة الى الفحم الحجري فاصر على الاستيلاء على تلك المنطقة الغنية ، وذهب « خبيرو التاريخ » في قولهم الى انها كانت

فرنسية منذ القدم ، وكفى دليلاً على فرنستها ان المرشال الفرنسي الشهير ني، N e y قد ولد فيها ! .. » (١)

***

في ابان تلك العاصفة التي كانت تهدد المؤتمرين بالخطر ، دعا كليمانسو (٢) وهو رئيس مجلس العشرة، بعض اعضاء هذا المجلس الى المنزل الذي كان يقيم فيه لويد جورج في شارع نيتو ، ولكنه لم يقل للرئيس ويلسن حرفاً من جدول الاعمال ، وفي ذلك يقول الكاتب النمسوي كارل فردريخ نوهاك :

« ... افتتحت الجلسة واشار الرئيس الى وزير خارجية فرنسا بان يتكلم ، فعرض المسيو بيشون على الحاضرين اتفاق سيكس بيكو ليقره المؤتمر . وكان لويد جورج قد اتى بقائدين انكليزيين وبوزير خارجيته لحضور الاجتماع ، وكذلك فعل كليمانسون، ووافق رئيس الوزارة الايطالية اورلاندو وزير خارجيته البارون سونينو ، وما ان بُدىء في البحث حتى ظهرت للجميع حقيقة هذا الاجتماع الذي خلا

---

(١) فرساي ، ص ١٠٦

(٢) صرح المسيو بريان رئيس الوزارة الفرنسوية في مجلس النواب ، يوم اثيرت قضية الموصل في ٢٥ حزيران ١٩٢٠ ، بان الذي دعا الى ذلك الاجتماع هو لويد جورج وليس كليمانسو ...

من كل تمهيد،وعقد بعد الظهر كانه وليد الصدف،ودعي اليه الاعضاء بالقوة تقريباً ... بانت حقيقة الاجتماع بجلاء ، وشعر الحاضرون بان القصد منه تقسيم تركيا.وكان الرئيس ويلسن يصغي الى المتكلمين وهو شبه مدهوش ، مذعور ، لا ينبس بكلمة ... فانه لم يسمع قبل تلك الجلسة بان بين حلفائه مثل هذا الاتفاق الذي يعطي الفرنسيين سوريا والانكليز العراق ، ويفرض على العرب حالة اتفقت عليها الدولتان القويتان منذ امد بعيد ... وظهر له ان لايطاليا علاقة في الموضوع ، والا لما حضر وزيراها هذا الاجتماع السري

وكان الرئيس ويلسن قد بدأ يرتاب منذمدة بعيدة بما يحيط به من نيات مستورة تهدد مشاريعه ومبادئه الانسانية ، في توثيق عرى الاتحاد بين الشعوب ، وتعتور عمله في الظلام فلا يستطيع معرفتها، او لا يستطيع التثبت منها ، وما كانت تلك العقبات لتبدو جلية بل كانت تتوارى في العتمة عندما يخيل لاصحابها ان صوتاً نطق بها ، أو أشار اليها ،انها موآمرة من اناس مجهولين على فكرته السلمية ،وعلى ما ينتويه من مشاريع تتعلق بايجاد عصبة الامم التي توطد اركان السلام في العالم . شعر بذلك كله ، وها هو الان يسمع ، باذنيه ، الفرنسيين والانكليز يتناقشون ويتطاحنون على اشياء يطلبها كل منهم لنفسه بكل صراحة ، فدهش الرجل منها لا كانت غريبة عنه ، ولم يسمع بها قبل الان ، بل كانت ، بالتعبير الصحيح ، سرقة اراض

واغتصابها بقوة السلاح، مما يناقض مبدأ عصبة الامم التي كان يبشر بها، ومما تشوهها تشويها واضحاً ، فرفض الاشتراك في ذلك العمل لانه رأى ان هذا الموقف لا يوصل الى ايجاد النظام الذي يربط العالم ... وكان لا يستطيع ، بل يرفض ، التدخل في مناقشات بين الدول الكبيرة ، الا اذا طرحت على بساط البحث قضية تتعلق باهداف مؤتمر الصلح وبمقرراته ، واذا طلب منه ابداء رأيه الشخصي فيها ، فهو يتقيد عندئذ بما اعلنه في مبادئه ، وفي الفكرة التي نادى من اجلها بايجاد عصبة الامم . واذن ، فالواجب يقضي بان يوفد المؤتمر خبيرين (لجنة استفتاء) الى تركية اسيا ، اسوة بالبلدان الاخرى التي شملت بالانتدابات... وبما ان مبادىء الرئيس تقول بان يبدأ كل عمل « بالتثبت من حالاته » فلا يمكن بسط قضية الانتدابات على بعض الاراضي التركية الا بعد ذلك التثبت ، فمن الواجب الانتظار ، اذن ، لمعرفة ما اذا كان السوريون يرضون بالفرنسيين، والعراقيون يرضون بالانكليز ...

« ايقن لويد جورج وكليمانسو ان ويلسن ما يزال على شيمته لم يتبدل ، وانه سيخالفهما في مشروعهما هذا ايضاً ، فاكتفيا موقتا بما كان منه ، ولكنهما فكرا بوجوب ايجاد اسلوب جديد لمتابعة الحملة لانهما لم يقنطا من الفوز ، لا سيما وانهما لم يناقشاه في هذه القضية الا مرة واحدة ، والمنطق يقضي بان لا يبتّا فيها دفعة واحدة ، ولا

يأملا بالفوز كله من الاستعراض الاول ، فرضيا بايفاد لجنة للتحقيق، ولكن كليمانسو طلب « عرضياً » بعض الضمانات في تقرير « الحالات التي يراد التثبت منها » لانه يعتقد بان « التحقيق المطلوب ، ايا كان شكله ، هو مسألة في غاية الدقة » . وكان لويد جورج ، في اثناء هذا الحديث بين كليمانسو وويلسن ، قد انقلب فجأة الى رجل يظهر ان لا ناقة له في الامر ولا جمل، وانما يود التسوية والتفاهم بين الرئيسين، فلم يبد على محياه شيء من اليأس ، بل اكتفى بابداء هذه الملاحظة ، في عرض الحديث ، اذ قال : « على افتراض ان البراهين ستكون مرهقة لطرد الامبراطورية البريطانية من العراق ، فان الانكليز لن يحرموا ، ولا ريب ، حق الدرس لمعرفة ما اذا كانوا يرضون بانتداب ما على مكان آخر من تركيا » ...

« ختمت الجلسة، وقد روعيت فيها الاحاديث المهذبة السوية، فلا رئيس الوزارة الفرنسية فجر، ولا حاد لويدجورج عن المجاملة التامة، ولم يفه احد بكلمة جارحة (على عكس الجلسات السابقة). ولكنهم افترقوا وهم على خلاف لا يُجبر كسره، وان ستروه بثوب من المجاملة المصطنعة ، وكيف لا ينشأ ذلك الخلاف وقد تعارضت معتقدات العالم المتباعد ؟؟

« اما الرئيس ويلسن فخرج من المنزل وهو كثير الاضطراب ،

واخذيبتعد عن شارع نيتو وقد ظهرت عليه دلائل الاشمئزاز!!! (١)

* * *

دخل الحلفاء البلاد العربية ، وسفروا عن حقيقة وجوههم ، فاذا هم غاصبون، «فاتحون » ، مستعمرون ، يطمع كل منهم في الاكلة التي تسيل لعابه ، فاصطدمت المطامع، وتطاحنت الاهواء ، وظهرت النيات علنا ، فصارت البلاد مسرحاً لاحطمهزلة عرفها التاريخ، واستصرخ ابناؤها الحلفاء قائلين :

ايها الاصدقاء ، هذه التربة هي من الوطن العربي الذي حارب بنوه في صفوفكم في ميادين الغرب والشرق ، وطن الذين وعدتموهم بالحرية والاستقلال، وغذيتم احلامهم واما نيهم باستعادة مجدهم الغابر، وسلطانهم المندثر : انها ليست المانية ، ولا تركية، ولا نمسوية ، ولا بلغارية ، ولا شيطانية ، ولا ... حول الا بالله ! فعلام تقييد الحريات فيها ، وتجزئة اراضيها ،وارهاق سكانها ، والتنكيل بهم ؟ انكم لم تفعلوا ذرة في الاراضي الالمانية ،واراضي اعدائكم الاخرين مما تفعلونه هنا . فما هذا التقلب في سياستكم ؟

— « ... لان لنا في السلطنة العثمانية حقوقاً قاطعة ، يجب ان نحافظ عليها ... ان لنا في سوريا ولبنان وكيليكيا وفلسطين حقوقاً، قائمة على حوادث التاريخ ، وعلى اتفاقات ، وعقود ... وسنبذل

---

(١) فرساي، ص١٠٩

جهدنا لجعلها مشروعة » (١)

قال المسيو بيشون ذلك القول ، واعترف بان المسألة تجارية ، « مربوطة بكونترانو » ، كالسلع للبيع ! بعد ان اشتد التطاحن بين الحلفاء في البلاد العربية وتأزم الموقف ، والهدنة مع الاعداء لم تنته بعد ! ... وصدى خطبة المسيو بيرانجه في مؤتمر النفط في لندره ما يزال يدوي في الاذان ، مستصرخاً ان يظل الحلفاء حلفاء في الهدنة وفي السلم كما كانوا في ايام الحروب ، فسافر كليمانسو الى العاصمة الانكليزية ليفاوض زميله لويد جورج في اسس الصلح الذي ينتظره العالم ، وللتفاهم على الخلاف الناشب بين موظفيهما في الشرق ، وفي تلك السفرة يقول المسيو اندره تارديو الذي كان يمين كليمانسو ، وامين سره ، وقد كتب مقاله في مجلة « الاولستراسيون » اذ اثيرت قضية الموصل في البرلمان الفرنسي ، وحملت الصحف الباريسية ، بايعاز من شركة ستندارد اويل الاميركية ، على كليمانسو — قال تارديو ما نعربه حرفياً : « ... وكانت ثلاث مصالح تشغل يومئذ بال رئيس الحكومة الفرنسوية : الاولى ، وقد تناساها الناس ، هي وضع المبادىء العامة ، قبيل انعقاد مؤتمر الصلح ، للاتفاق مع رئيس الوزارة البريطانية

---

(١) من خطبة للمسيو بيشون ، وزير الخارجية الفرنسية ، في مجلس النواب في ٢٩ ك ١ (ديسمبر) ١٩١٩

على القضايا الاوربية ، التي هي حيوية لفرنسا .والمصلحة الثانية كانت تتعلق بسوريا ذاتها ، وبالعراق، اذ كان على الرئيس كليمانسو أن يضع حداً ، من جهة ، للخلافات الخطيرة التي جرت في الاسابيع الاخيرة (بين الانكليز والفرنسويين في سوريا) ويحمل لويد جورج على تنفيذ اتفاق سيكس بيكو بدون اصطدام ، وأن يضمن من جهة ثانية تأييد بريطانيا العظمى في اي تعديل يؤدي اليه رأي اميركا في شكل الانتدابات، او ينجم عن معارضة من الرئيس ويلسن الذي كان قليل الارتياح الى اتفاق ١٩١٦، وهذه القضية قد تتوسيت ايضاً من الرأي العام،واما المصلحة الثالثة فهي مسألة نفط الموصل، اذ كان من الواجب المحتم عليه ان يعيد النظر في الاتفاق المذكور ، ويضمن لفرنسا حصتها من استثمار ابار النفط ، وهي الحصة التي بسط اهميتها الجوهرية المفوض العام الفرنسي لادارة المواد اللاهبة في مذكرته المؤرخة في ٢ ت ٢(نوفمبر) ١٩١٨

» وبدأ الحديث ، فقال كليمانسو للويد جورج: «لنسو هذه المسألة، وقل لي فكرك كله » فاجاب الرئيس الانكليزي حالاً بانه يطلب ان يكون الانتداب على فلسطين بريطانياً بدلاً من الانتداب الدولي،وان تصير الموصل في منطقة النفوذ الانكليزي العربي بدلاً من وجودها في منطقة النفوذ الفرنسي العربي . وشعر المسيو كليمانسو بأن عليه ان يتنزل لمفاوضه عن شيء ليتمكن من الوصول الى اتفاق كان ضرورياً ،،

ولا غنى له عنه ، فاوضح رأيه في الايام التالية في ما يطلبــه من ثمن لقاء تلك المســايرة ، وقال انه على استعداد ، مبدئيا ، لارضاء لويد جورج في مطلبه ، ولكنه يشترط في ذلك ثلاثة امور : الاول : ان تحصل فرنسا على حصتها من نفط الموصل ، وذلك بتعديل اتفاق ١٩١٦ (سيكس بيكو) . والثاني : ان تساند بريطانيا العظمى ، بدون تحفظ ، فرنسا في مؤتمر الصلح على اسس ذلك الاتفاق الكاملة (الا الموصل) وأن تضمن لها تأييدها التام في حالة اعتراض اميركا . والامر الثالث: ان يطبق الانتداب الفرنسي ، اذا وافق المؤتمر على مبدأ الانتدابات ، بشكل واحد في المنطقتين اللتين ميز بينهما ذلك الاتفاق ، اي أن تصير حلب ودمشق تحت انتدابنا كما هي بيروت والاسكندرونه . واي رجل كان في مثل تلك الساعة وتلك الحالة ، مكان المسيو كليمانسو ، لاجاب مثله بالايجاب .

» وكانت المفاوضة المتعلقة بنفط الموصل بدء المفاوضات ، وانتهت في اقل من ستة اسابيع بشكل مرضٍ ، فوقــع المسيو هنري بيرنجه في ٨ نيسان (ابريل ١٩١٩) ووزير المستعمرات والنفط الانكليزي المستر ولتر لونغ على اتفاق يضمن لفرنسا الحصة الالمانية من شركة النفط التركية (تور كيش بتروليوم) اي خمسة وعشرين من المئة من استثمار جميع النفط المستخرج ، والذي سيستخرج ، من ولايتي الموصل وبغداد ، وخمسين من المئة من جميع الابار التي تستطيع فرنسا وانكلترا الحصول

عليها في غاليسيا ورومانيا وروسيا ، واربعة وثلاثين من المئة من جميع الينابيع الممكن استثمارها في مستعمرات التاج البريطاني الغنية بالنفط، وحصلت انكلترة لقاء هذا الاتفاق الاخير على أربعة وثلاثين من المئة،اي النسبة عينها،من جميع الينابيع الممكن استثمارهافي المستعمرات الفرنسية ، وان يكون لها حق مد انابيب تمر في بلدان الانتداب الفرنسي ، من الموصل الى البحر المتوسط (١) ... » الخ

وبعد ان ذكر المسيو تارديو مقاومة النفطيين الانكليز لذلك الاتفاق قال : « ... وبقيت معضلة الاراضي التي ظننا ان حلها من ايسر الامور ، ولكن الادعاءات الجديدة التي اتت بها بريطانيا العظمى منعت اولي الحل طيلة عشرة اشهر ، وحتى استقالة المسيو كليمانسو ، من اية تسوية لشؤون سوريا ، سواء أكانت اقتصادية ام سياسية ، ذلك ان حكومة لندره رغبت في ٨ شباط (فبراير) ١٩١٩ بتغيير التوازن في الاتفاق الذي تم بين الرئيسين (لويد جورج وكليمانسو) في شهر كانون الاول السابق ، طالبة تهشيم سوريا من الجهة الشرقية ، ومن الجهة الجنوبية على الاخص ، مما لم تكن فرنسا لترضى به ، فبذلت حكومتنا جهوداً مضاعفة لحمل الموظفين البريطانيين على اتخاذ وجهة نظر اعدل ، ولكنها لم تفلح ، فبعثت اليهم في ٩ شباط

(١) الاولستراسيون في ١٩ حزيران ١٩٢٠ ، ص ٣٨١

بالمذكرة الاولى تذكرهم فيها بان الانتداب الانكليزي على فلسطين ، وتخلي فرنسا عن الموصل ، لم يكونا تحت شرط تسوية مسألة النفط فقط « بل تابعين ايضاً للتأييد الذي تقوم به بريطانيا العظمى ، بلا تحفظ ، لحقوق فرنسا في سوريا وكيليكيا وفقاً لاتفاق ١٩١٦ ...»

وفي ١٧ اذار (مارس) بعثنا الى لندره بالمذكرة الثانية ، وقد جاء فيها عن قضية الحدود المقترحة ما نصه : « لا يمكن الحكومة الفرنسية ان ترضى دقيقة واحدة ، بتملهذا البتر ... ولن تتأثر بمزاعم لا ترى فيها الا وجهة المستعمرين الانكليز ... واذا كانت الحكومة الانكليزية تنوي معاملة المسيو كليمانسو بتمثل هذه الاراء فهو يفضل التمسك بنصوص اتفاق ١٩١٦ »

» وفي ٢١ و٢٢ نوار (مايو) جرت مناقشتان عنيفتا اللهجة جداً بين الرئيسين . ولم يتم الاتفاق ... » اه

فماذا «قيل» في تينك المناقشتين اللتين اشار اليهما المسيو تارديو في مقاله ؟

اسمعوا ، ايها العرب الذين آمنوا باقوال السلام وحرية المصير ، وحقوق الشعوب في حكم نفسها :

التأم مجلس الصلح الاعلى في باريس في ٢١ نوار ١٩١٩ وجرى الحديث الآتي بين كليمانسو ولويد جورج وهو مسجل في محضر الجلسة :

« كليانسو : ــ عندما ذهبت الى لندره في الخريف الماضي »
قلت لك: « اعلمني عما تطلبه في اسيا ، لتقضي على كل سبب للخلاف بيننا ».. فاجبتني: « اننا نريد الموصل التي وضعها اتفاق سيكس بيكو في منطقة النفوذ الفرنسي »

» فوعدتك بتسوية المسألة ، وقد انجزت وعدي بالرغم من معارضة السكي دوروسي (وزارة الخارجية الفرنسية) »

» لويد جورج : ــ اجل ، اني طلبت اليك في لندره نقل الموصل الى منطقة النفوذ البريطاني فوافقت على طلبي ، وكانت فرنسا موعودة بسوريا ، وبريطانيا موعودة بالعراق ... » اه

وفي اليوم الثاني (٢٢ نوار) كرر المسيو كليانسو هذه الرواية في جلسة المجلس الاعلى فقال : « عندما ذهبت الى لندره في الخريف الماضي ، وكان بين الانكليز والفرنسويين خلافات ناشبة في سوريا والعراق ، مما لا ارغب في اعادة ذكرها ، سألت المسيو لويد جورج ان يقول كلمته الاخيرة في الموضوع فلم يتردد بالتصريح بانه يرغب في ان تكون الموصل في المنطقة الانكليزية ، فاجبته باني مستعد لان املي هذا الحل على وزارة الخارجية الفرنسية .. » (١) ولو انك قلت لي يومئذ يا مسيو لويد جورج ، ان بطلبك الموصل كنت تطلب قسماً كبيراً من شرقي سوريا ومن جنوبيها ، لرفضت منذ تلك الدقيقة ان اعطيك

(١) نقلها دي غونتو بيرون ص ٣١٦

الموصل معه (١)

تنافر كليمانسو ولويدجورج وتنابذا، ولا نقول تشاتما... وكان رجال الاستعمار البريطاني يحرضون رئيسهم ، ورجال الاستعمار الفرنسي يثيرون رئيسهم ، ووقف الرئيس ويلسن مذعوراً ، مضطرباً ، قرفاً ، مما بدا له من حقيقة امر حلفائه الذين حملوا قبل المدنة اغصان الزيتون لتأييد السلام في العالم ، وهم الان يتطاحنون علناً على اغتصاب اراضي الشعوب المستضعفة... وطارت وفود العرب كريشة في مهب الريح ، بين لندن وباريس ، تدق ابواب اولئك المبشرين بانجيل المحبة والحق ، فلا تلقى الا المراوغة والتسويف ، ولا تسمع الا كلام الطمع والاستعمار !

تنابذ المستعمرون ، ولكن رؤساءهم الحقيقيين ، رجال احتكار النفط في العالم ، ظلوا يتابعون المفاوضات السرية بين الفريقين حتى ظفروا باعلان اتفاق موقت بينهما في ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ قضى بانسحاب الجيوش البريطانية من السواحل السورية ، وبابقاء الجيوش العربية في الداخل ، وباطلاق يد الانكليز في الموصل وفلسطين !

وكان ثمن ذلك الاتفاق قتل سوريا الجغرافية ، تا سنفصله باسهاب

---

(١) رواها المسيو تارديو في مذكرته التي نشرتها صحف باريس في ١١ حزيران ١٩١٩ عن المفاوضات المتعلقة بالموصل

مع الوثائق الرسمية ، والمفاوضات السريـة ، والمكاتبـات السياسية ، وروايات بعض الشهود ، في كتابنا الثاني

ولعب النفطيون على الف حبل في وقت واحد : اذ سعى بعضهم للاستئثار بالنفط العربي ، وحاربهم في مسعاهم البعض الاخر ، وقام « بعض ثالث » بمهمة الوسيط بين الفريقين خوفا من ضياع الاقطار العربية على الجميع ! ولم تكن هذه السياسة التي اتبعها ملوك النفط بالاولى من نوعها ، فقد مررنا ، في هذا الكتاب ، بسياسات كثيرة مثلها !...

وفي تلك الاثناء كانت شركة الانكلو برشيان تعمل سراً — ودائماً سراً ! — للاتفـاق مع الارمني الجيورجي خوشتـاريان على شراء امتيـازه النفطي في شمالي ايران (١) لقاء مئة الف دينـار انـكليزي ، دفعة اولى ، فتمت لها الصفقة في ٨ ايار (مايو) ١٩٢٠ ، بعد ان مهدت لها الحكومة البريطانية سراً — ودائماً سراً !... — باتفاق سياسي بين حكومتي طهران ولندره في ٩ آب (اغوسطوس) ١٩١٩ وضع ايران تحت الحماية البريطانية الحديدية ، مما اثار ضجة عنيفة في الاندية النفطية والسياسية ، وقال عنه النائب شنودن ، الذي صار وزير المال البريطاني في ما بعد : « انه اتفاق املي على الشـاه

---

(١) — ارجع الى ص ١٧٢ من هـذا الكتاب

الشاب بالضغط والتهديد ! ... » (١)

وشعرت حكومة السلطان ، صح النوم ! بان غرام فرنسا بموارنة سوريا ، وهيام بريطانيا بمجد العرب الباسق في العراق ، قد لبسا وشاحاً تنتشر منه رائحة كريهة ! مع ان النفط لا رائحة له ... فصدرت ارادة شاهانية في ١٤ ك ٢ (يناير) ١٩٢٠ بالغاء الارادة الدستورية المتعلقة باراضي الموصل النفطية ، وباسترجاع تلك الاراضي الى الخزانة السلطانية الخاصة (٢)

وكثرت المطامع النفطية ، وبرز فرسانها الى الميدان ، فرأى الانكليز والفرنسويون ان يجابهوا تلك المطامع بالامر الواقع ، واستمر المفاوضون يواصلون جهود « التوفيق » بين الفريقين حتى انتهى بهم الامر الى وضع اسس الاتفاق التاريخي الذي وقعوا عليه في مؤتمر سان ريمون

وقال الحلفاء بأن مؤتمر سان ريمو هو لاجل الصلح مع السلطنة العثمانية ، فاعلنوا فيه انتداباتهم على الاقطار العربية المنسلخة عنها ، وارجأوا وضع شرائط الصلح الى مؤتمر سيفر

اعلنت الانتدابات على سوريا الجغرافية وعلى العراق في ٢٥ نيسان ١٩٢٠

---

(١) ـــ فيشر ، ص ٢١٦ ، ودي غونتوبيرون ، ص ٢٩٤

(٢) ـــ ارجع الى ص ٨٧ من هذا الكتاب

وفي ٢٤ نيسان ، اي قبل يوم واحد من اعلان الانتدابات ، تم الاتفاق سراً — ودائماً سراً ! — بين مندوبي فرنسا وبريطانيا في مؤتمر سان ريمو على ... اقتسام نفط الموصل . وقد ظلت نصوص ذلك الاتفاق الجشع مطوية ، مكتومة ، لا يعرف العالم من امرها الا تقديرات مبهمة ، ولكن شركة ستندارد اويل التي حرمت « حصتها » من القرص الشهي اثارت على المتفقين حرباً شعواء وتمكنت بعد ثلاثة اشهر من الحصول على النص الرسمي فاذاعته في الصحف ، وحملت حكومة واشنطن ، والرئيس ويلسن نفسه ، على التدخل في نضال المعركة ، فامتنعت الولايات المتحدة من الموافقة على الانتدابات ، وجرت بين الوزارتين البريطانية والاميركية مكاتبات رسمية جارحة (١) يعف كثيرون من كتاب الصحف عن كتابة مثلها ، وتكهرب جو العلاقات بين الدولتين حتى باتت الحرب بينهما على قاب قوسين .

وظل النضال عنيفاً بين الاستعمارين السكسونيين طيلة سنتين ، الى ان اعطي الاميركان حصة من نفط الموصل ، فاعترفت حكومة

---

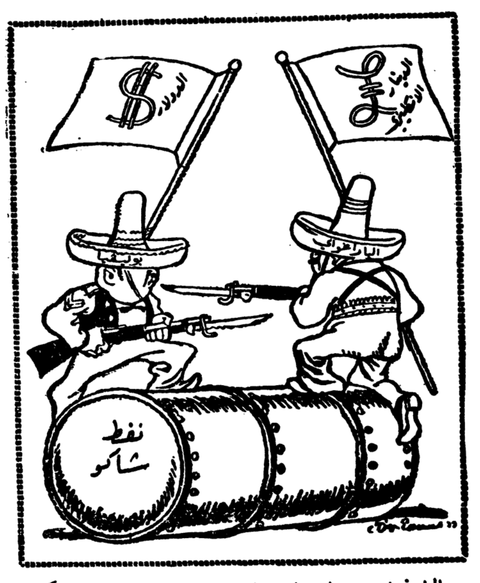
(١) نشرت هذه المكاتبات الرسمية في « الكتاب الابيض » الذي اذاعته وزارة الخارجية البريطانية بعدئذ ، وقد لقينا امر الصعاب في الحصول على نسخة منه ، سننشرها معربة بحروفها في كتابنا الثاني

واشنطن بالانتدابات ، وتفاهم ديتردينغ ورو كفلر على اقتسام النفط الايراني ، واعلنا الهدنة موقتاً !...

وكانت الحرب ثانية بينهما، ثم الهدنة،ولم يوءد ثمنهماالا الضعاف، واولهم العرب !

***

هذه هي «نتيجة» الحكاية التي بدأنا بسردها، ايها القاريء العزيز، بعدان عرضنا عليك مقدمتها البطيئة الطويلة، ومشاهدها السريعة القصيرة، وسترى في كتابنا الثاني ان النتيجة الاولى هي المن والسلوى بالنسبة الى النتيجة الثانية التي صرنا اليها ... فالى اللقاء



البارغواي وبوليفيا تتحاربان بسلاح ديتردينغ وروكفلر للاستيلاء على نفط شاكو . وحرب شاكو اثارت اهتمام عصبة الامم وبحث فيها مجلسها في جلسته الاخيرة التي عقدت في هذا الشهر (ايلول)

اتفاق سان ريمو (١)

ان هذا الاتفاق مبني على مبدأ التعاون الودي والتبادل ، في البلدان التي يمكن ان تمتزج فيها فوائد الامتين (فرنسا وبريطانيا) النفطية. وهذه المذكرة تتعلق في الدول او البلدان الاتي ذكرها : رومانيا، اسيا الصغرى (الاقطار العربية وجوارها)، اراضي الامبراطورية الروسية القديمة ، غاليسيا ، المستعمرات الفرنسية ، ومستعمرات التاج البريطاني .

« ويمكن ان يمتد مفعول هذا الاتفاق الى بلدان اخرى بعد تفاهم الفريقين المتبادل

(هنا ينص الاتفاق على المصالح النفطية في رومانيا ثم في اراضي الامبراطورية الروسية القديمة ، ثم ينتقل الفريقان الى الكلام عن العراق فيقولان :

« بلاد مابين النهرين (العراق) — : ان الحكومة البريطانية تتعهد بان تمنح الحكومة الفرنسية ، او الاشخاص الذين تعينهم ، حصة تساوي خمسة وعشرين من المئة ، بالاسعار الدارجة ، من منتوج النفط الخام

---

(١) عربه المؤلف عن النص الفرنسي الذي نشرته مجلة «ليروب نوفيل» في الجزء ٢٢ من سنتها الخامسة ، في ٣ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ ، ص ٦٩٩

الذي تتمكن حكومة صاحب الجلالة من الحصول عليه في الاراضي النفطية في بلاد مابين النهرين ، هذا اذا استمرت الادارة الحكومية تلك الاراضي ، اما اذا استمرت الاراضي المذكورة شركة خاصة فالحكومة البريطانية تضع عندئذ تحت تصرف الحكومة الفرنسية حصة مشاركة في هذه الشركة تبلغ خمسة وعشرين من المئة ، ولن يكون الثمن المدفوع لهذه المشاركة اعلى من الثمن الذي يدفعه اي مشترك اخر في الشركة المذكورة . وكذلك تم الاتفاق على ان تكون شركة النفط المشار اليها تحت الرقابة البريطانية الدائمة

« اذا رغبت الحكومة المحلية ، أو المصالح الاهلية (العراقية) الاخرى ، في حالة تأسيس الشركة المذكورة ، ان تشترك في رأسمال هذه الشركة ، فقد صار الاتفاق على قبول اشتراكها حتى الحد الاعلى البالغ خمسة وعشرين من المئة ، ويكون للفرنسيين نصف العشرة الاولى من المئة في الحصة الاهلية (العراقية) واما المساهمة الاضافية (اي القيمة الباقية لاشتراك العراق بعد اخذ الفرنسيين خمسه) فتؤخذ من جميع المساهمين بالنسبة الى ما يملكون من اسهم

« تقبل الحكومة البريطانية بان تؤيد جميع الترتيبات التي تستطيع الحكومة الفرنسية ان تنال بها من شركة الانكلو برشيان مؤن النفط التي يمكن ارسالها بتقنية من ايران الى البحر المتوسط بواسطة اقنية تحفر في ارض مشمولة بالانتداب الفرنسي وتكون فرنسا قد

قدمت التسهيلات الخاصة لحفرها . ويكون مبلغ تلك المؤن النفطية (التي تعطى لفرنسا) خمسة وعشرين من المئة من النفط الذي يرسل بالتقنية المشار اليها بشرط ونصوص يمكن وضعها بالاتفاق بين الحكومة الفرنسية وشركة الانكلو برشيان .

« بناء على الترتيبات المنشورة اعلاه ، تسمح الحكومة الفرنسية ، اذا طلب اليها ، وحالما يقدم لها الطلب ، ببناء خطين انبوبيين (بيب لين) مختلفين مع خطوط حديدية لازمة لبنائهما وصيانتهما ، ولنقل النفط من بلاد مابين النهرين (العراق) وايران ، مخترقاً مناطق نفوذ فرنسي حتى مرفأ ، او بضعة مرافىء ، على البحر المتوسط الشرقي ، تعينها فيما بعد الحكومتان بالاتفاق التام بينهما

« تتعهد فرنسا ، في حالة اختراق مثل تلك الانابيب والخطوط الحديدية ارضاً تكون في منطقة نفوذ فرنسي ، بان تقدم جميع تسهيلات المرور للنفط المنقول . على انه سيكون متوجباً التعويض على اصحاب الاملاك عن المسافة التي تمر الانابيب فيها

« وكذلك ، تمنح فرنسا جميع التسهيلات للحصول على ارض لازمة لبناء مستودعات وخطوط حديدية ومعامل تصفية ومرافىء الخ ... في الميناء الذي تنتهي فيه الانابيب . والنفط المنقول بهذه الطريقة يعفى من جميع رسوم الشحن والمرور (ترانزيت) . وكذلك تعفى المواد اللازمة لبناء الانابيب والخطوط الحديدية ومعامل

التصفية والانشاءات الاخرى من جميع رسوم الاستيراد ورسوم النقل .

« في حالة رغبة الشركة المذكورة (الانكلو برشيان) بناء خط انبوبي وخط حديدي يمتدان حتى الخليج الفارسي ، تقدم الحكومة البريطانية (لفرنسا) مساعداتها اللازمة للحصول على التسهيلات عينها في هذا الموضوع » اه

(ثم ينص الاتفاق في فقراته الثلاث الاخيرة على اقتسام النفط بين فرنسا وبريطانيا في افريقيا الشمالية والمستعمرات الفرنسية الاخرى ، ومستعمرات التاج البريطاني مما لا علاقة لنا به الان) (١)

التواقيع :

عن فرنسا : اسكندر ميلران ، فيليب برتلو

عن بريطانيا العظمى : لويد جورج ، جوهن كادمان

سان ريمو في ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠

---

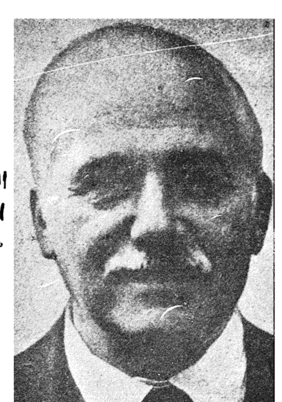
(١) — ان البرلمان الفرنسي لم يبرم هذا الاتفاق لان الحكومة لم تعرضه عليه ، وكذلك لم تعرض عليه اتفاق سيكس بيكو ... ولعل في هذه الاشارة عزاء للبرلمان السوري !

مصادر الكتاب

الكتب الفرنسية : (١) تاريخ الشعب الانكليزي (ايلي هالفي) — (٢) الاسلام واسيا امام الاستعمار (اوجين يونغ) —(٣)الاقطار العربية المحررة (خيرالله خيرالله) — (٤) مصير السلطنة العثمانية (اندري ماندلستام) — (٥) سياسة الانتدابات في الشرق (جان لوكه) — (٦) كيف استقرت فرنسا في سوريا (كونت ر . دي غونتو بيرون) — (٧) بوذا ضد الانتلجانس سرفيس (موريس لا بورت) — (٨) ما تحت التجسس الانكليزي (روبر بوكار)— (٩) في اقاصي اوروبا واسيا (موريس روندي سان) — (١٠)رحلة بوجولا في الشرق الادنى (باتيستان بوجولا) —(١١)ثلاث سنوات في اسيا (الكونت دي غوبينو) — (١٢) الثورة العربية من ١٩٠٦ الى ١٩٢٥ (اوجين يونغ) —(١٣) المجلة النفطية —(١٤) كتاب النفط السنوي(اده موريس) . — (١٥) الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية (مناقشات مجلس النواب ومناقشات مجلس الشيوخ) —(١٦) النضال لاجل النفط وروسيا (بول ابوستول واسكندر ميشلسن) — (١٧) السيطرة على النفط (كميل ايمار) — (١٨)النفط وفرنسا (هنري بيرانجه) — (١٩) روكفلر ملك النفط (ر. كورو) — (٢٠) الحرب السرية لاجل النفط (انطوان زيخكا) — (٢١) منابع العراق النفطية (سي . بي . نيكوليسكو)

المصادر غير الفرنسية

(٢٢) سيطرة النفط (لويس فيشر ـ اميركي) ـ (٢٣) شركات احتكار النفط والعلاقات الانكليزية الاميركية (اي. هـ. دافنبورت . وسيدني روسل كوك ـ انكليزيان) ـ (٢٤) حصار كوت العمارة (كابتين اي. او. موسلي ـ انكليزي) ـ (٢٥) خمس سنوات في تركيا (ليمان فون ساندرس ـ الماني) ـ (٢٦) مذكرات ادوار غراي ـ انكليزي) ـ (٢٧) الثورة في الصحراء (كولونيل تي. اي. لورنس ـ انكليزي) ـ (٢٨) عالم الاسلام الجديد (لوثروب ستودارد ـ اميركي) ـ (٢٩) فرساي ١٩١٩ (كارل فريدريخ نوهاك ـ نمساوي) ـ (٣٠) الكتاب الابيض الانكليزي (وزارة الخارجية البريطانية) ـ (٣١) تاريخ الموصل (القس سليمان صائغ ـ عراقي) (٣٢) مطبوعات الحكومة العراقية ـ (٣٣) صحف منوعة منها الطان وجريدة عصبة الامم ومجموعة مجلة الاولستراسيون ومجموعة ايروب نوفل



السير هنري ديتردينغ ، نابوليون النفط في العالم ، وملك الاقطار العربية غير المتوج... والمسيطر على نصف حكومات الدنيا



لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يوم اقتسم الحلفاء بلدان العرب ليستولوا على نفطها



تحت تأثير الضغط والاحتكاك يشتعل
النفط ويرتفع نحو ... السماء

وهذا الرسم يمثل حادثة اشتعال في
مراكش تعيد للذاكرة حادثة
سدوم وعمورة



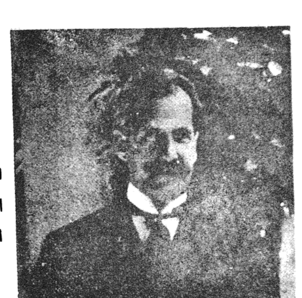
جورج كليمانسو الذي تنزل للانكليز
عن الموصل قبل اتفاق سان ريمو



جورج بيكو صاحب الاتفاق
المعروف باسمه



اسكندر ميلران الذي وقّع على
اتفاق سان ريمو



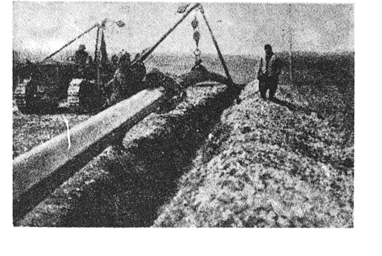
فيليب برتلو الذي وقع على
اتفاق سان ريمو اذ كان
امين السر العام لوزارة
الخارجية الفرنسية



السير جوهن كادمان واضع اتفاق سان ريمو ورئيس شركة النفط العراقية
نزل من طائرته التي تقله الى بغداد



خيام عمال الانابيب في الصحراء

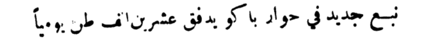


لى اليمين : عمال عرب يمدون الانابيب قرب طرابلس وهذا نصيبنا
من النفط العربي !!

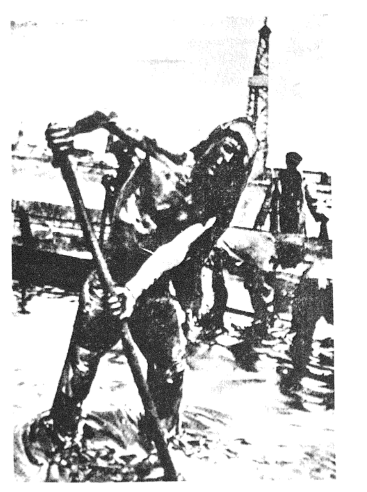


ادارة شل في برلين وهي واحدة من اربع وثلاثين بناية مثلها تملكها الشركة المذكورة في العالم

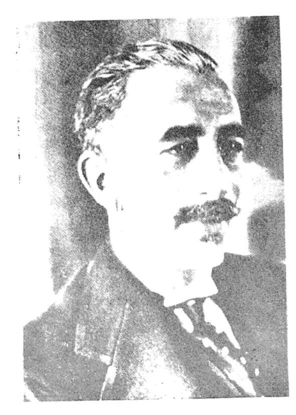




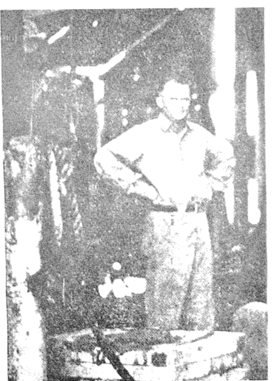
نبع جديد في حوار باكو يدفق عشرين الف طن يومياً



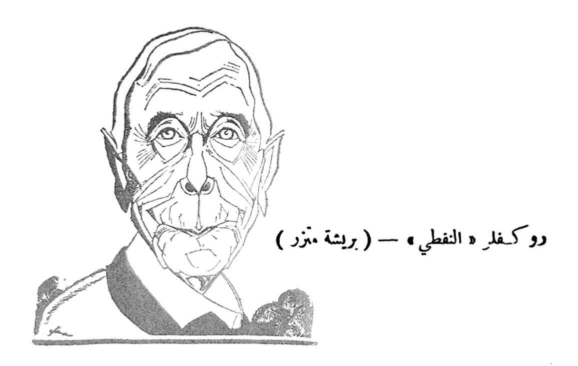
والعمال غاطسون فيه



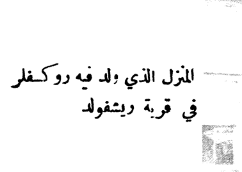
جلالة الملك فيصل الذي منحت في عهده
امتيازات النفط في العرق



المهندس دريسكل يحفر الابار في كركوك
وهو من اعظم مهندسي النفط في العالم

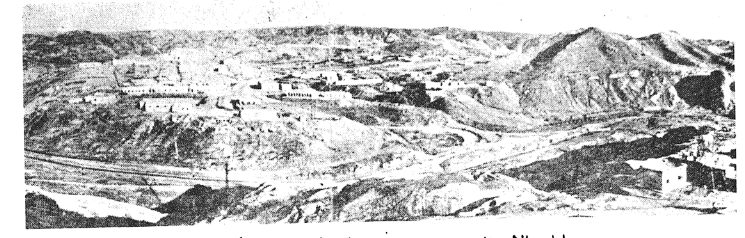


روكفلر « النفطي » — (بريشة متزر)

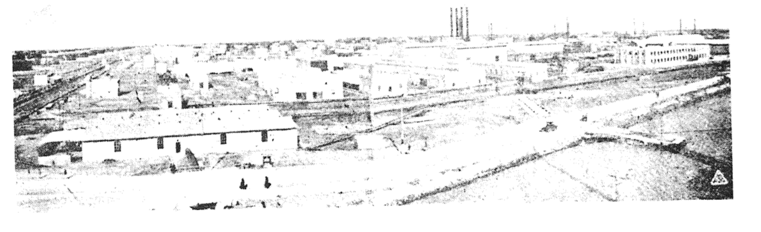


المنزل الذي ولد فيه روكفلر
في قرية ريشفولد





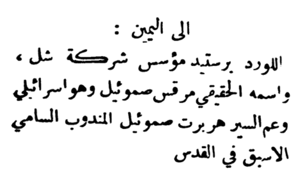
بنايات الانكلو برشان بين جبال النفط في جنوبي ايران



مستودعات الانكلو برشيان ومعاملها لتصفية النفط وتكريره في عبادان على الخليج الفارسي

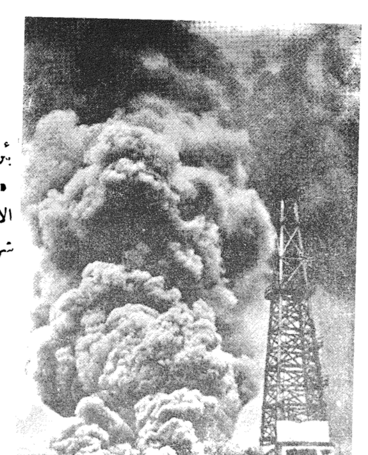


جلالة الشاه رضا بهلوي الذي عدل في عهده
امتياز دارسي لفائدة ايران



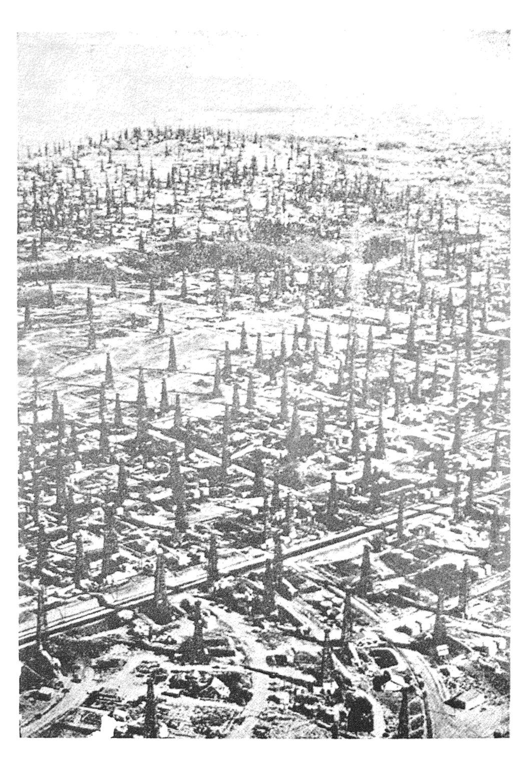
الى اليمين :
اللورد برستيد مؤسس شركة شل ،
واسمه الحقيقي مرقس صموئيل وهو اسرائيلي
وعم السير هربرت صموئيل المندوب السامي
الاسبق في القدس



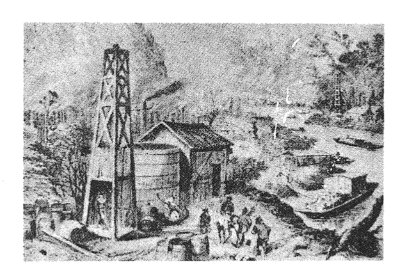


بئر نفطية لشركة الانكلو برشيان «لعبت» بها النار . وحرق الابار هو ايسر سلاح تحمله شركات الاحتكار في حرب التزاحم

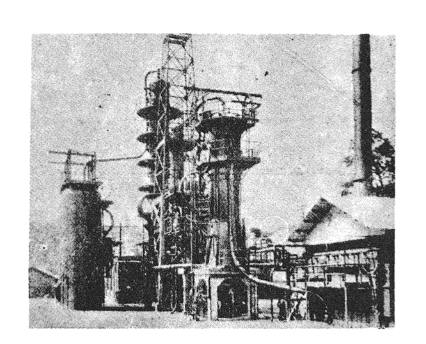
شرطة السوفيات تحرس ابار النفط في روسيا ليلاً نهاراً خوفاً من وصول الايدي المجرمة اليها



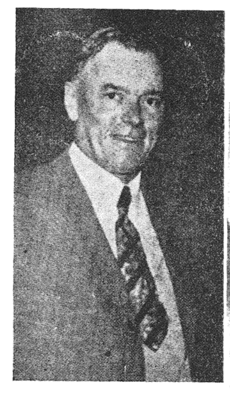
بعض ابار النفط التي تخص ديتردينغ في المكسيك



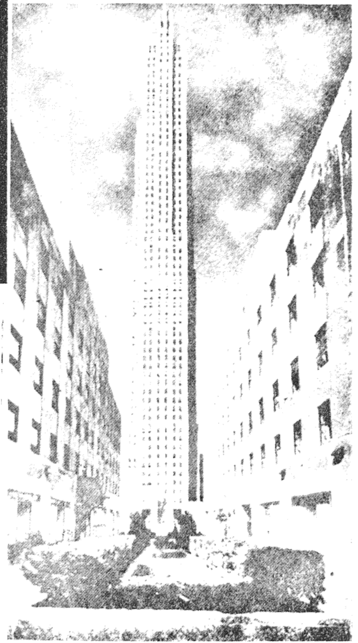
بدء صناعة النفط منذ نصف قرن



الات صناعة النفط في ايامنا



ولتر تايغل ، خليفة روكفلر ، في ادارة مؤسسات شركة ستندارد اويل العالمية



ادارة مؤسسات روكفلر في نيويورك

فهرس

يوسف ابراهيم يزبك

١٩٠١ ــ ١٩٨٢ ــ لبنان

من أوائل الدعــاة التقدميين والنهوضيين في الوطن العربي ، أصدر الى جانب « النفط مستعبد الشعوب ١٩٣٣ » « المواسي البشرية ــ ١٩٢٩ » عن مأســاة المهاجرين العرب الى أمريكا وقضية دريغوس ١٩٣٩ « وكتاب مؤتمر الشهداء ١٩٥٥ » عن شهداءالسادس من أيار ، وسلسلة من المقالات بعنوان « صفحات من البعث العربي ١٩٤٢ » اضافة الى كتب أخرى .

يعتبر كتاب النفط مستعبد الشعوب من أول الكتب التي صدرت في اللغة العربيةمحللة أهمية النفط ودوره في الاقتصاد العالمي والعربي .

يصدر قريبا في سلسلة : قضايا وحوارات النهضة العربية :

١ ــ على طريق الهند ١٩٣٥	عبد الفتاح ابراهيم
٢ ــ الاصلاح والنهضة	اعداد وتقديم محمد كامل الخطيب
٣ ــ الشرق والغرب	اعداد وتقديم محمد كامل الخطيب
٤ ــ الاشتراكية	اعداد وتقديم محمد كامل الخطيب

اضافة الى قضايا وحوارات اخرى يعلن عنها في حينها .

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٠

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل ٢٠٠ ل.س